كتاب الهلال

كتب لها تاريخ

د . جلال أمين

الغلاف للفنان
محمد أبوطالب

كتب لها تاريخ

بقلم
د . جلال أمين

دار الهلال

تقديم

يحتوى هذا الكتاب على تحليل وتقييم لعدد من الكتب التى نالت واستحقت شهرة واسعة وثناءً عظيما معظمها فى مصر والعالم العربى، وبعضها فى العالم الغربى، ولكتب أخرى نالت فى رأيى أكثر بكثير مما تستحق من الشهرة والثناء.

وفى هذا الكتاب أقدم حيثياتى وأسبابى لتفسير ما نالته هذه الكتب من الشهرة والثناء، حقا أو ظلما.

إن لكل كتاب من هذه الكتب، التى تنتسب إلى فروع مختلفة من المعرفة: —

الأدب والسيرة الذاتية، السياسة والاقتصاد، علم الاجتماع وعلم النفس، التربية وفلسفة العلوم، قضية مهمة، ترجع إلى أهمية الموضوع الذى يتناوله الكتاب، أو إلى أهمية الظروف التى كتب فيها أو إلى الضجة التى أحدثها، أو الاستقبال الحار الذى استقبل به، أو الهجوم الشديد الذى واجهه، أو الدور الذى لعبه كاتبه فى حياتنا الثقافية، إيجابا أحيانا وسلبا فى أحيان أخرى. ومن ثم فإنها كلها «كتب لها تاريخ».

د. جلال أمين

القاهرة يناير ٢٠٠٣

(١)
الطيب صالح
عـرس الزيـن

من أجمل الكتب التى قرأتها «عرس الزين» للطيب صالح . وهى رواية قصيرة لا يزيد حجمها عن مائة صفحة من الحجم الصغير . قرأتها لأول مرة فى أوائل السبعينات ، أى منذ نحو ربع قرن ، ثم أعدت قراءتها منذ أيام لأتأكد من استحقاقها لهذا الحكم، فأحببتها فى المرتين حبا شديدا ، وكنت أول مرة قد أخذت أذكرها لكل من أقابله وكأنى اكتشفت درة من الدرر ، ورحت هذه المرة أتأكد من أن كل من أعرفهم ، من المهتمين بالأمر، قد قرأوها، وأتعجب من أمر من لم يقرأها منهم حتى الآن . كنت قد قرأت قبلها رواية موسم الهجرة إلى الشمال ، للطيب صالح أيضا، فأحببتها أيضا حبا شديدا ، ولكن الروايتين مختلفتان اختلافا كبيرا . «موسم الهجرة» أعمق فكرا وأشد تعقيدا وتثير مشكلة تتعلق فى الأساس (إذا صح فهمى لها) بالالتقاء بين حضارتين

أو ثقافتين ، ولكن عرس الزين أكثر عذوبة ، وأرق معاملة لأبطالها ، وهى فى نظرى أوسع دلالة ، إذ تتعلق بالإنسان فى أى مكان وزمان .

أحيانا أقول لنفسى : ربما كان من الطبيعى جدا أن يكون القائم بهذه المهمة أديب سودانى ، دون أى أديب آخر ، بل وأديب سودانى عاش سنوات كثيرة من حياته خارج السودان . إذ هل يتوفر مثل هذا المزاج الرائق وهذه الدرجة من التسامح مع الضعف البشرى ، وهذا الأدب الجم ، وهذا الصبر ، مع هذا القدر من الحكمة فى تقييم الأمور إلا لأديب سودانى ، وهل يمكن أن يتوفر مثل هذه القدرة على النظر من عل ، وبهذا التأنى والروّية إلا لشخص أعفته إقامته الطويلة بالخارج من المعاناة اليومية لمشاكل السودان المسكين ؟

قلت لنفسى أيضا إنى لا أكاد أشك أن شخصية «الزين» لها أساس حقيقى فى تجارب الطيب صالح الشخصية ، رآها أو سمع بها فاستقرت فى ذهنه لا تبارحه ، وتملكت عليه نفسه ، وصمم على أن يكتب عنها فى يوم من الأيام ، ولم يسترح حتى كتب هذه القصة . إذ أن مثل هذه الشخصية إذا عُرفت أو سُمع بها فلابد أن يُكتب عنها ، فهى تلخص ما يمكن أن نعتبره أثمن شئ فى الحياة .

★ ★ ★

تبدأ القصة بداية موفقة جدا ، عندما يتداول الناس فى تلك القرية السودانية الصغيرة هذا الخبر المثير : «الزين سيتزوج» ، ويكون وقع الخبر على الجميع كوقع أغرب شئ فى الوجود . هل هذا معقول؟

الزين سيتزوج ؟ هل تقول «الزين»؟ ومن تلك التى تقبل أن تتزوجه ؟ هل يمكن أن تقبل فتاة فى القرية أن تتزوج الزين ؟

هكذا يطرح المؤلف القضية من أول سطر ، فلا يملك القارئ إلا أن يتبعه ليرى ما قصة الزين هذا ؟ وماذا به مما يجعل خبر زواجه بهذه الغرابة ومستعصيا على التصديق ؟

«الزين» شاب فقير يتيم الأب لا يملك فى نظر أهل القرية أى شئ مما يجعله صالحا للزواج . فهو أولا غريب المنظر ، فقد أصابه مرض وهو فى السادسة من عمره أدى إلى سقوط جميع أسنانه إلا واحدة فى فكه الأعلى وأخرى فى فكه الأسفل .

ولم يكن على وجهه شعر إطلاقا «لم تكن له حواجب ولا أجفان، وقد بلغ مبلغ الرجال وليست له لحية أو شارب» . والصدر مجوف ، والظهر محدودب قليلا ، والساقان رقيقتان طويلتان كساقى الكركى، أما القدمان فمفرطحتان .

وهو فقير لا يملك شيئا ، وهو أضحوكة الجميع ، بل إننا إذا طبقنا معاييرنا المألوفة فى الحكم على درجة الذكاء والغباء ، لوصفناه بالبلاهة ، إذ تكاد كل تصرفاته أن تكون غير متوقعة وغير مألوفة ، وسلوكه غريب وغير مفهوم ، يسامحه الناس على تصرفاته باعتباره لا يعرف سببا لتصرفه على هذا النحو .

ولكن سرعان ما يتبين القارئ ، أن «الزين» رغم سخرية الناس به ، واستصغارهم لشأنه ، هو أفضل رجل فى القرية ، وأنه ليس من الغريب على الإطلاق ، على الرغم من استغراب الجميع وعدم تصديقهم ، أن تكون التى ستتزوجه ، بل والتى تحبه ، هى أفضل فتاة فى القرية .

ففى القرية فتاة اسمها «نعمة» ، جميلة وقورة المحيا ، معتزة بنفسها ، ذكية لماحة ، بل لعلها أكثر ذكاء من كل قريناتها ، أرغمت أباها أن يدخلها الكتاب لتتعلم القرآن فكانت الوحيدة بين الصبيان . تقدم لخطبتها شاب بعد آخر ، من مختلف الأصناف ، الغنى والمتعلم والوسيم ، والذى يصلح أبوه وأمه أن يكونا أصهارا ، فكانت ترفضهم جميعا ، دون إبداء السبب ، ذلك أن صدرها كان ينطوى على شئ لا يعرفه أحد .

أدركت «نعمة» بذكائها وثاقب بصرها أن «الزين» ، رغم كل ما يظهر فيه للآخرين ، هو بالفعل أفضل شاب فى القرية ، بل لعله الشاب الوحيد الجدير بها . إنه أولا أصدق رجال القرية وأقلهم رياء ، وأطيبهم قلبا ، وأشدهم تعاطفا مع المحرومين ، وأكثرهم استعدادا للتضحية . أما شغفه بالفتيات الجميلات فحدث عنه ولاحرج ، فهو لا يشفى من حب إحدى فتيات القرية الجميلات إلا ليقع فى حب فتاة أخرى . وهو متى أحب لا يكتم حبه بل يذيعه على الملأ صائحا بأعلى صوته «أنا مقتول فى دار العمدة» ، مثلا، إذا كانت التى استولت على قلبه هى بنت العمدة ، أو «أنا مقتول فى حوش محجوب» ، إذا كان حبه لعلوية بنت محجوب ، وهكذا . فهو فى كل وقت «مقتول» بحب فتاة جميلة أو أخرى ، والجميع يعرف من هي التى تستولى على قلب الزين حاليا . وسرعان ما أدركت الفتيات اللاتى فى سن الزواج وأسرهن ، أهمية الزين ، فهو يقوم بدور وسائل الإعلام «وأخبار المجتمع» فى الصحف ، فيلفت نظر الناس إلى فتاة تم نضجها وظهر جمالها ، وأصبحت مؤهلة للزواج ، فإذا بأسر هؤلاء الفتيات ترحب بالزين وتكرمه وتحسن معاملته كما يحسن فنانونا اليوم مثلا معاملة رجال الصحافة والإعلام، إدراكا منهم لما يحوزونه من قدرة على التأثير فى الرأى العام .

ولكن شغف الزين بالحياة لا يقتصر على حب الفتيات الجميلات ، بل هو محب للناس عامة ، كثير الحديث ، عالى الضحكات ، يعدى ضحكه الناس من حوله وإن كان ضحكا شبيها بنهيق الحمار ، وهو إذا ضحك فقد السيطرة على نفسه ، فقد يسيل الدمع من عينيه وقد يستلقى على قفاه ويضرب الأرض بيديه ويرفع رجليه فى الهواء .

وهو معروف بالنهم بالطعام ، رغم نحافته الشديدة ، إذا أكل لا يشبع ، ومن ثم نجد المدعوين إلى الأفراح يتحاشون أن يجلس الزين معهم أثناء الأكل ، إذا أنهم يعرفون أن الفريق الذى سيجلس معه الزين لن ينال شيئا من الطعام . والغريب أيضا أن الزين ، رغم ما يبدو من هشاشة جسمه وضعفه ، أثبت أن له قدرة جسمانية عظيمة . فأهل القرية يذكرون كيف أن الزين أمسك مرة بقرنى ثور جامح استفزه فى الحقل ، فرفعه عن الأرض وكأنه حزمة قش ، ثم ألقاه أرضا فهشم عظامه . «وكيف أنه مرة فى فورة من فورات حماسه قلع شجرة سنط من جذورها وكأنها عود ذرة» . ومن ثم يخاف الناس غضبه على أحد الأشخاص، كما حدث عندما غضب على سيف الدين الذى أهان الزين بلا مبرر ، وسمع الناس الزين يقول عنه

«الحمار الدكر لازم أكتله» ، وهم يعرفون أن «الحمار الدكر» هو أقصى ذم يلحقه الزين برجل .

أما ما يظن الناس بالزين من بلاهة ، فالأرجح أن ليس لها من سبب إلا أن تقييمه للناس والأشياء يختلف عن تقييم معظم الناس ، وأنه فضلا عن ذلك ، لا يكتم شيئا فى قلبه ، فقلبه على لسانه . فإذا عرفت أيضا أنه جامح العاطفة، سواء فى حبه أو فى كرهه ، كان لابد أن يبدو الزين شخصا غير طبيعى ، وقد يظهر أحيانا بمظهر الأحمق أو الأبله .

كان حريا «بنعمة» أن ترى حقيقة الزين أكثر من الآخرين ، فهى أيضا لا تشارك أهل قريتها كثيرا من أحكامهم وتقييماتهم ، وهى أيضا جريئة القلب لا تخاف الافصاح عما يدور فى عقلها . لا عجب أنها كانت إذا رأته يعابث الفتيات وهن يضحكن من كلامه وسلوكه الغريب ، تنهره غاضبة «ماتخلى الطرطشة والكلام فارغ، تمشى تشوف أشغالك ؟»

وكان الزين ، إذا قالت له نعمة ذلك يسكت عن الضحك ويطأطئ رأسه حياء ثم ينسل بين الناس ويمضى فى سبيله . وكانت نعمة هي الفتاة الوحيدة ، لسبب لا يخفى على القارئ ،

التى كلما رآها الزين مقبلة صمت وترك مزاحه وفر من بين يديها وترك لها الطريق .

شخص واحد آخر كان يرى الزين على حقيقته ويعرف له قدره ويعامله باحترام وحب ويخصه بعلاقة حميمة دون الآخرين جميعا . ذلك هو «الحنين» ، وهو رجل صالح منقطع للعبادة ، يقيم فى البلد ستة أشهر فى صلاة وصوم ثم يضرب فى الصحراء ويغيب ستة أشهر أخرى ، ثم يعود ، ويعتبره أهل القرية بمثابة ولى من أولياء الله الصالحين . هذا «الحنين» لا يأنس لأحد فى القرية مثلما يأنس للزين ، ولا يبش فى وجه أحد مثلما يبش فى وجهه «وكان إذا قابله فى الطريق عانقه وقبله على رأسه ، وكان يناديه (المبروك) . وكان الزين أيضا إذا رأى الحنين ترك عبثه وهذره وأسرع إليه وعانقه» . وهما يتحادثان معا بالساعات ، ولا يأكل الحنين طعاما فى بيت أحد إلا فى بيت الزين ، ويحاول الناس أن يعرفوا من الزين سر هذه الصداقة ، فيقول الزين بدوره «الحنين راجل مبروك» .

★ ★ ★

ولكن ما أهمية كل هذا ؟ وأين الأحداث المهمة فى القصة ؟ إن القصة بمعنى من المعانى ، ليس فيها أحداث مهمة على الإطلاق . إذ ما أهمية أن يتزوج الزين ، ولو من أجمل وأفضل

بنات القرية ؟ وما أهمية أن يتشاجر الزين مع رجل سافل هو سيف الزين فيكاد يقتله لولا ظهور الحنين فجأة ؟ وما أهمية قيام الزين بدور وسائل الإعلام فى تزويج الفتيات؟ ما أهمية هذا كله ؟ أهمية الزين (التى تذكرك أو تذكرنى أنا على الأقل بأهمية زوربا اليونانى فى القصة الشهيرة) هى أهمية الحياة نفسها . فالذى يميز الزين فى الحقيقة عن أقرانه وخلانه فى القرية ، هو هذا الحب العظيم للحياة . إنه ليس مجرد عشق للفتيات الجميلات، ولا مجرد استغراق فى الضحك ولا مجرد نهم بالطعام ، وليس مجرد تعاطف مع المحرومين يزيد عن تعاطف الآخرين ، وليس مجرد الافصاح عمّا فى قلبه. فكل هذا تعبير عن شئ واحد ثمين للغاية : هو حب عظيم للحياة ، والصفات المعاكسة لهذا كله : قلة الانفعال بالجمال ، الضحك المتحفظ ، فقدان الشهية للطعام ، أو السكوت عندما يجب الكلام ، أو قول عكس ما تعتقد ، أو فقدان القدرة على التعاطف مع الآخرين ... إلخ كل هذا ليس له إلا معنى واحد : ضعف القدرة على تذوق الحياة ، أو هو انسحاب منها .

بهذا نفهم سبب شغف الفتاة الجميلة «نعمة» بالزين . إذ نفهم من الكلام القليل الذى جاء بالقصة عنها ، أن لديها هى أيضا هذا الشغف العظيم بالحياة ، مع الشجاعة اللازمة للتصدّى

لأى محاولة لمنعها من الاستمتاع الكامل بها . ففى تلك القرية المحافظة التى لا تجرأ فيها الفتاة عادة على معارضة أبويها فى أمر مهم كالزواج ، تعرف أم نعمة وأبوها ، أن نعمة ليست كالأخريات ، وأنه لا فائدة من اختيار زوج لها إذ هى التى ستختار زوجها ، بل إنها ليست فى حاجة حتى إلى الافصاح عن سبب رفض هذا العريس أو ذاك . ويذكر القريبون من نعمة تلك القصة القديمة ، عندما كانت نعمة طفلة صغيرة ، وكان النساء إذا جئن لزيارة أمها يجلسن نعمة على حجورهن . وكانت نعمة تكره ذلك حتى إنها مرة ضجرت من عبث امرأة بدينة بها ، وشعرت بذراعى المرأة الغليظتين تنطبقان عليها وكأنها تخنقها ، فإذا بنعمة تصفع المرأة على وجهها وتفر هاربة . كذلك فإن نعمة هى التى أرغمت أباها على أن يدخلها الكتّاب لتتعلم القرآن ، وكانت الطفلة الوحيدة بين الصبيان . وهى إذا أقبلت على القرآن «تحفظه بنهم ، وتستلذ بتلاوته ، وكانت تعجبها آيات معينة تنزل على قلبها كالخبر السار. كانت تؤثر مما حفظته سورة الرحمن وسورة مريم وسورة القصص ، وتشعر بقلبها يعتصره الحزن وهى تقرأ عن «أيوب» . وكان أخوها الذى يكبرها بعامين يحثها على مواصلة التعليم فى المدارس ، ولكن نعمة لم تكن تؤمن بذلك النوع من التعليم وتقول له

«التعليم فى المدارس كله طرطشة ، لغاية القراية والكتابة ومعرفة القرآن وفرائض الصلاة » .

من الشيق أيضا أن تلاحظ أنه حتى ذلك الرجل الإلهى «الحنين» رغم تعبده وكثرة صلاته وصومه ، كان لديه هو نفسه احترام عظيم لهذا الشغف بالحياة ، فهو أيضا ضحوك بشوش ، يحب الناس حبا حقيقياً ، وليس فى تعبده ذرة رياء أو نفاق ، والمفارقة فى القصة شديدة وواضحة للغاية بين هذه الصورة من صور التدين ، والصورة الأخرى الشائعة التى تستخدم الدين ضد الحياة ، والتى يمثلها فى القصة إمام المسجد ، إذ تصفه القصة بأنه : «كان رجلا ملحاحاً متزمتاً كثير الكلام ، فى رأى أهل البلد، كانوا فى دخيلتهم يحتقرونه لأنه كان الوحيد بينهم الذى لا يعمل عملا واضحا ، فى زعمهم .

« لم يكن له حقل يزرعه ، ولا تجارة يهتم بها ، ولكن كان يعيش من تعليم الصبيان ، له فى كل بيت ضريبة مفروضة ، يدفعها الناس عن غير طيب خاطر . وكان يرتبط فى أذهانهم بأمور يحلو لهم أحيانا أن ينسوها : الموت والآخرة والصلاة .. ويقول لك محجوب إذا سألته عن إمام المسجد إنه (راجل صعب ، لا يأخذ ولا يدى) ، معنى ذلك أنه لم يكن يسايرهم أو يخوض

معهم فى أحاديثهم ، لم يكن يعنيه أوان زراعة القمح وسبل ريه وسماده وقطعه أو حصاده . لم يكن يهمه موسم الذرة فى حقل عبد الحفيظ نجح أم فسد . هل البطيخ فى حقل ودّ الريس كبر أم صغر ؟» (هل عرفت إذن رأى الطيب صالح فى التدين الصحيح؟).

ومن ناحية أخرى ، كان إمام المسجد يهتم بأمور لا يأبه لها إلا القليلون فى البلد . «كان يتتبع الأخبار من الإذاعة والصحف ، ويحب أن يناقش هل ستقوم الحرب أم لا ؟ هل الروس أقوى أم الأمريكان ؟ ماذا قال نهرو وماذا قال تيتو ؟ وكان أهل البلد مشغولين بجزئيات الحياة ، لا تعنيهم عمومياتها ، وهكذا نشأت الهوة بينه وبينهم » (هل تعرف الآن رأى الطيب صالح فى السياسة والسياسيين ؟) كان أهل القرية يعترفون بفصاحته ، «كان يلهب ظهورهم فى خطبه ، وكأنه ينتقم لنفسه منهم ، بكلام متدفق فصيح عن الحساب والعقاب ، والجنة والنار ، ومعصية الله والتوبة إليه ، كلام ينزل فى حلوقهم كالسم . يخرج الرجل من المسجد بعد صلاة الجمعة زائغ العينين ، ويحس وكأن سير الحياة قد توقف . ينظر إلى حقله بما فيه من نخل وزرع وشجر فلا يحس بأى غبطة فى نفسه ، يحس أنها جميعا عرض زائل ، وأن الحياة التى يحياها ، بما فيها من فرح وحزن ، ما هى إلا جسر إلى عالم

آخر ، ويقف برهة يسأل نفسه : ماذا أعد لذلك العالم الآخر ؟ لكن جزئيات الحياة ما تلبث أن تشغل فكره ، وسريعا ، أسرع مما كان يتوقع ، تغيب صورة العالم البعيد ، وتأخذ الأشياء أوضاعها الطبيعية ، وينظر إلى حقله فيحس مرة أخرى بذلك الفرح القديم الذى يعطيه مبررات وجوده . ومع ذلك فأكثرهم يعودون إليه (أى إلى الإمام) فى كل مرة ، ليجربوا نفس الصراع الغامض . كانت فى عينيه نظرة احتقار وترفع ، يحس الواحد منهم وقعها حين يفقد ثقته بنفسه . كان مثل الضريح الكبير وسط المقبرة».

★★★

لا يمكن للقارىء ، كما ترى ، أن يخطىء مغزى القصة ، وهو مغزى ، رغم أنه واضح وبديهى ، نحتاج ، فيما يبدو ، إلى من يذكرنا به من حين لآخر ، إذ ما أشد ميلنا إلى الاستبسلام لكل ما هو زائف ، وما أضعف قدرتنا على الانتصار للحياة . والطيب صالح يذكرنا بهذا على نحو لطيف ، وبرقة نشكره عليها . فالقصة بالإضافة إلى ما ذكرته ، يتوفر فيها هذا الشىء النادر ، وهو التفاؤل . فالذى ينتصر فى النهاية هو الزين . ينتصر على كل أشخاص القرية المزيفين ، إذ لا تقبل أجمل وأذكى فتاة فى القرية بالزواج إلا منه ، ومن ثم فالقصة تترك القارىء مفعماً بالأمل .

وهذا هو ، بعض ما دعا الدكتور على الراعى إلى أن يختار ذلك العنوان الجميل لمقاله عن «عرس الزين» «زغرودة طويلة للحياة» . «فعرس الزين» هى كذلك . ولكن القصة ليست بالطبع من السذاجة بحيث تجعلك تظن أن بإمكان الزين (أو الحق) أن ينتصر على كل شىء ، فهناك على الأقل حقيقة الموت الذى لا يمكن لأحد أن ينتصر عليه ، ومن ثم ففى أقصى درجات السعادة والفرح ، وعندما يبلغ الرقص والغناء ذروة البهجة والحماس فى حفلة عرس الزين ، يختفى الزين لبضع دقائق ليزور قبر شيخه المحبوب «الحنين» ويعثر عليه أصدقاؤه وهو يبكى عند قبر الحنين بكاءً مراً ، وهو يقول بصوت متقطع يتخلله النحيب «أبونا الحنين ، إن كان ما مات كان حضر العرس» ثم يعود الزين إلى الحفلة فينضم إلى الرجال وهم يحيطون بفتاة ترقص وهم «يصفقون ويضربون بأرجلهم ويحمحمون بحلوقهم» ، فيقفز الزين قفزة عالية فى الهواء ، ويصيح بأعلى صوته ويده مشهورة فوق رأس الراقصة «أبشروا بالخير .. أبشروا بالخير» .

(٢)
الطيب صالح
موسم الهجرة الى الشمال

كان يوما مشهودا ذلك الذى جاء فيه الطيب صالح ، الأديب السودانى الشهير ، لإلقاء محاضرة فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة . كانت قد علقت بعض الإعلانات عن المحاضرة على حوائط الجامعة ، مع صورة للطيب صالح ، ولكن الذى جلب أكثر الحاضرين هو انتشار الخبر من شخص لآخر : «هل تعرف أن الطيب صالح سيلقى محاضرة فى الجامعة ؟»

وسمع بالخبر كثيرون من خارج الجامعة فأتوا بدورهم ، وأحضر بعضهم ، مثلما فعلت أنا أيضا ، زوجاتهم أو أزواجهن، وبعض أولادهم . وهكذا اكتظت القاعة المعدة للمحاضرة ، والتى لاتتسع لأكثر من ١٥٠ كرسيا ، بالحاضرين المتشوقين لسماع الرجل ، والذى أتى بعضهم قبل ساعة من الموعد المحدد ، توقعا

للزحام ، وفوجئ من أتى قبل المحاضرة بقليل بامتلاء الكراسى عن آخرها فجلسوا على السلالم وأمام الأبواب .

الجميع كانوا قد قرأوا «موسم الهجرة إلى الشمال» ، وأحبوها حبا جما ، ولكن كثيرين أيضا قرأوا «عرس الزين» وبعض قصصه القصيرة . ورغم أن الجميع قد أحبوا هذه القصص كلها فإن شيئا لابد قد ظل يقلقهم منذ أن قرأوها ، فهم لا يستريحون لتفسير واحد لقصص الطيب صالح ولايستطيعون الجزم بأنهم يفهمون ما كان يقصده بالضبط . وقد دفعهم هذا أيضا إلى الحضور أملا فى أن تبدد لهم المحاضرة ما علق بأذهانهم من شكوك وأن توضح لهم ما ظل غائما وغير مفهوم .

وقد دفعنى أنا إلى الحضور شئ مشابه ، ولكن كانت هناك أيضا أشياء أخرى . لقد أحببت كل ما قرأت للطيب صالح حبا شديدا ، ومن ثم فيسرنى دائما أن أسمع المزيد عن هذه القصص، كما أنى عرفت الرجل معرفة شخصية وجلست معه عن قرب فزاد حبى وتقديرى له . إنه رجل قليل الكلام ولكنه عذب الحديث ، خفيف الظل ، بالغ الأدب، ويحب الاستماع أكثر مما يحب أن يتكلم هو نفسه . فكم قابلنا من الناس ممن تنطبق عليهم هذه

الأوصاف؟

وقد فهمت مما قرأت من قصص الطيب صالح ورواياته أن مشكلة الالتقاء بين الحضارات أو الثقافات تثير اهتمامه (وربما قلقه) ، وأن المشكلة الناجمة من صعوبة التوفيق بين النهضة أو التقدم وبين المحافظة على ثقافة الأمة وتقاليدها (أو ما يسمى أحيانا بمشكلة الأصالة والمعاصرة) هى مشكلة مهمة بالنسبة له ، ولكنها مشكلة مهمة أيضا بالنسبة لى ، فها هى إذن فرصة جديدة لسماع المزيد عنها منه . والعنوان المعلن للمحاضرة «الشرق والغرب ، وجهة نظر شخصية» (East and West : A Personal Narrative) ، فالأمل إذن كبير فى أن ينصب كلام الطيب صالح كله أو أكثره على هذه المشكلة التى يهمنى أمرها .

دخل الطيب صالح القاعة ورأى الجمهور الكبير الذى ينتظره ، وفوجئ بعاصفة من التصفيق ، فلاحت على وجهه بعض علامات السرور وإن كنت قد لمحت على وجهه أيضا نظرة استغراب ، ربما اختلط ببعض السخرية الحقيقية ، لا من الجمهور ، بل على الأرجح من الدنيا ، وكأنه يقول لنفسه : «هل خدعت هذه القصص القليلة إذن ، هذا العدد الكبير من

الناس ؟» .

بدأ الرجل كلمتـه بالشكر طبعـا ، ثم قال إن المرة الأولى التى دعى فيـهـا إلى القاء محـاضـرة فى أى جـامعـة من الجـامعـات ، كانت فى الجـامعـة الأمريكية ببيروت ، وكانت المرة الثـانيـة ، منذ نحو عشرين سنة ، فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة . ولكنه لم يدع فى حيـاته قط لإلـقـاء محاضـرة فى أى جـامعة عربية . وهو لايستطيع أن يجد تفسيرا لهذا ، فـهـو لم يعرف عنه أنه ممن يحملون ولاء خاصا للولايات المتحدة . ضحك الحاضرون إذ وجدوا الأمر غريبا مثلما وجده . ولكنه لم يستطرد فى ذلك بل قال دون اعتذار إنه سوف يتكلم ، لا عن الشرق والغرب ، بل عن تجربته فى الكتابة . لقد قال بالفعل كلمتين عبر بهما عن عدم ارتياحه ارتياحا تاما لاستخدام كلمتى الشرق والغرب على النحو الذى يستخدمان به ، فـهـو يشك جـدا مـثـلا ، فى أن العـالم العـربي ينتـمـى إلى «الشرق» ، الذى تبدو بعض شعوبه البعيدة غريبة جدا عليه ، أما «الغرب» فما هو بالضبط ؟ إنه يشمل فى نظرنا بلاشك ، بريطانيا وفرنسا ، وربما أيضا بعض البلاد الأخرى كألمانيا ، ولكنه يشك فى أن مفهوم الغرب فى نظر العربى يشمل حتى دولة كإيطاليا ، التى تقترن فى ذهن العربى بأشياء كالجبن والزيتون !

على أى حال إنه لن يخوض فى هذا الأمر ، وإنما سيتكلم عن تجربته ككاتب .

وبالفعل لم يعد الطيب صالح لموضوع الشرق والغرب بعد ذلك، وإنما أخذ يتكلم عن المشقة التى يلاقيها وهو يمارس الكتابة وكيف أنه يفضل أشياء أخرى كثيرة عليها، كالقراءة مثلا ، وأنه فى الحقيقية لا يجلس للكتابة إلا عندما «يبلغ السيل الزبى» . (وإن كان قد اعترف فى أثناء المناقشة بأنه يجد متعة فى البحث ، أثناء الكتابة ، عن اللفظ المناسب ، وفى المقارنة بين تعبير وآخر من الناحية اللغوية البحتة) . قال إنه لا يتصور بسهولة كيف استطاع شخص كنجيب محفوظ مثلا ، أن يكرس حياته كلها على هذا النحو للكتابة ، ونحن نعرف أنه لم يترك مصر قط إلا فى رحلتين قصيرتين إلى اليمن ويوجوسلافيا ، وبالرغم منه ، حرصا منه على ألا يفسد السفر أو أى شئ آخر ، النظام الذى وضعه لنفسه فى الكتابة والقراءة . لا عجب أن حصل نجيب محفوظ على جائزة نوبل . أما يوسف إدريس ، فقد فعل شيئا مختلفا تماما . أراد أن يأكل الكعكة وأن يحتفظ بها سليمة فى نفس الوقت ، فكتب أشياء كثيرة رائعة حقا ولكنه أيضا عاش حياته بالطول والعرض . فلما التقى به الطيب صالح

فى بغداد بعد حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل بقليل ، وجده غاضبا وثائرا لأنه اعتبر نفسه أجدر بالجائزة . فقال له الطيب صالح «ما أعجبك يا رجل ! أتريد أن تفعل كل هذا ، أن تعشق وتلعب وتشرب وتطوف بلاد العالم تلهو وتمرح ، وتريد فوق ذلك كله أن تحصل أيضا على جائزة نوبل ؟!» .

كان يحيى حقى رجلا مختلفا عن الاثنين ، هكذا قال الطيب صالح ، يحب ظاهر للرجل ، وكان من الواضح أن قلبه يميل إليه أكثر مما يميل إلى غيره من الأدباء المصريين ، فقد أشار بإعجاب ، ليس فقط إلى موهبته وأدبه ، ولكن أيضا إلى روحه المرحة وظرفه .

كان من الواضح أن الطيب صالح يعلق أهمية كبيرة فى حكمه على الأشخاص على ما إذا كانوا يتمتعون أو لا يتمتعون بروح المرح ، بل إنه فى إشارة خاطفة لنظام الحكم الحالى فى السودان لم ينتقده إلا فى شئ واحد فقال : إن هذا النظام «سئ المزاج» (Bad tempered) ويفتقد روح المرح (Sense of humour) ، مما أثار عاصفة من الضحك فى القاعة ، لما تعودناه من تقييم نظم الحكم بمعايير مختلفة تماما ، مثل مدى ما تتيحه من حريات أو مدى نجاحها فى رفع معدلات التنمية .

وقد توالت هذه الملاحظات المرحة فى حديث الطيب صالح ،

فمما أذكره مثلا ما قاله عن الكاتب الأمريكى الشهير إرنست همنجواى ، فهو لا يعتبره أديبا عظيما ولكنه كان غريب الأطوار وكثيرا ما يخرج فى سلوكه عن المألوف ، مما جعل وسائل الإعلام الامريكية تعشقه عشقا ومن ثم جلبت له شهرة عظيمة . أو قوله عن المصريين أنه لا يعتقد أن هناك شعبا فى العالم يعشق وطنه مثلما يعشقه المصريون . وهم فوق ذلك كثيرو الكلام عنه والتغنى بجماله ، ويعبرون عن ذلك بهيام وغرام شديدين، ويعيدون ويزيدون تعبيرهم عن ولههم بمصر (darling Egypt) «يا حبيبتى يا مصر» وكأنهم يخشون أن يأتى شخصا لينتزعها من أيديهم !

ولكننا فوجئنا بأن الحديث قد توقف فجأة ، بعد أقل من نصف ساعة من بدايته ، إذ قال الطيب صالح أنه قد اتفق مع منظمى هذا اللقاء على ألا يكون محاضرة بل مجرد فرصة لتبادل الحديث، وهو يدعونا الآن لتوجيه ما نشاء من أسئلة إليه .

كان هذا مفاجأة بالنسبة لى ، فقد كنت أتوقع محاضرة بالفعل، وكنت أتطلع إلى الاستماع إليه لوقت أطول بكثير . ولكنى قلت لنفسى : «لا بأس ، الأسئلة والأجوبة قد تؤدى نفس الغرض» وراحت الأسئلة تنهال على الطيب صالح لمدة تزيد على

الساعتين ، كلها بدون استثناء تحاول أن تحول الرجل عن المنحى الذى اختاره للكلام ، هذا المنحى الذى يرفض أن يضفى جدية زائدة على نفسه أو إنتاجه ، ويرفض أن يتفلسف فى موضوع الشرق والغرب ، أو أن يدلى بأى رأى حاسم وفاصل فى أى موضوع سياسى أو ثقافى . حاول السائلون من الطلبة والأساتذة أن يزحزحوا الرجل عن مكانه فلم يتزحزح قيد أنملة . بل حاول هو أن يثنيهم عن عزمهم ، وأن يوضح لهم المرة بعد الأخرى ، ولكن بأدب بالغ ، أمرا بسيطا ، ولكنهم رفضوا تماما أن يفهموه أو يقبلوه . حاول إفهامهم أن كاتب الرواية أو القصة له طريقة واحدة فى التخاطب مع الآخرين ، وهى كتابة الرواية أو القصة ، وأن أى رسالة يريد أن يوصلها إليهم يجب أن تصل إليهم عن هذا الطريق دون غيره . كان يحاول أن يقول لهم «أرجوكم ألا تطلبوا منى الشرح والتحليل ، فالذى أريد أن أقوله قلته بطريقتى وليس لدى ما أضيفه ، اللهم إلا إذا كتبت رواية أو قصة أخرى» .

قالت له طالبة : «بصراحة لقد شعرت بعد انتهائى من قراءة (موسم الهجرة) باضطراب فكرى تام (Confusion) فما الذى تقصده بهذا .. وما الذى تقصده من ذاك .. ؟ أجابها الطيب

صـالح : «أنا مـسـرور بأن الرواية كـان لهـا هذا الأثر عليك . فـالاضطراب الفكرى الذي تتكلمين عنه (Confusion) نتيـجـة لا بأس بها على الاطلاق لقراءة الرواية . ألا ترين الحياة كلها مليئة بالاضطراب والفـوضـى ؟» (إنى بـالطبـع لا أذكـر مـا قـاله الطيب بالضبط ، كلمة بكلمة ، ولا ما قالته الطالبة بالضبط ، وإنما أكتب من الذاكرة) .

وتوالت الأسئلة عن مصطفى سعيد بطل قصة موسم الهجرة : أى نوع من الرجال هو بالضبط ؟ هل شخصية مصطفى سعيد انعكاس لشخصيتك أنت ؟ هل مصطفى سعيد هو الطيب صالح نفسه ؟ .. إلخ بل لقد سأل سائل عن قصده من اختيار هذا الاسم بالذات ، وهل الاسم «مصطفى» يرمز لشئ معين ، و«سعيد» يرمز لشئ آخر ؟

لابد أن الطيب صالح سمع مثل هذه الأسئلة مرارا وتكرارا منذ ظهـرت الرواية لأول مـرة فى ١٩٦٦ ، ولابد أنه سـئم هذا النوع من الأسئلة بشـدة ، ولكنه حاول أن يمارس ضبط النفس ورد ردودا مختلفة على هذه الأسـئلة ولكنها تقول شيئا واحدا : «لا ، لست مصطفى سعيد . الشخصية مثل سائر شخصيات الرواية من صنع الخيـال . طبعـا لابد أن هناك بعض الشبـه بين

مصطفى سعيد وبينى ، أو بينه وبين شخصيات أخرى عرفتها ، ولكن فيه أيضا أشياء كثيرة اخترعتها اختراعا . ولكن ما أهمية هذا الأمر بالضبط ؟ أما عن السؤال عن أى نوع من الرجال هو ، أو ما الذى يرمز إليه ، فالمفروض أن يكون هذا قد ظهر بشكل أو آخر فى الرواية وليس لدىَّ ما أضيفه إلى ذلك ..»

استمرت الأسئلة على هذا المنوال . قال أحد الطلبة : «لو فرض ورأيت مصطفى سعيد يمشى أمامك الآن فماذا أنت قائل له ؟»

قال الطيب صالح دون تردد «أقول له هاللو ! ..» واستمر الطالب «وما الذى يمكن أن يقوله لك ؟» .

قال الطيب «هاى ..»

ضحك جمهور الحاضرين ، ولكنى لا أظن أن الطيب صالح كان راضيا عن طريقة سير الأمور . قال بعد قليل ، فى إجابته عن سؤال آخر عن مصطفى سعيد : «لماذا هذا الاصرار على مصطفى سعيد ، بل وعلى موسم الهجرة إلى الشمال دون غيرها؟ ماذا عن «عرس الزين» مثلا ، أو «بندر شاه» و«ضو البيت» ؟ وإن كانا فقط جزأين من مشروع أكبر لم أتمه بعد .

وشخصية الزين قد يكون فيها أوجه شبه بى أكثر مما فى شخصية مصطفى سعيد .. هل سأعيش طول عمرى أحمل مصطفى سعيد على كاهلى على هذا النحو ؟ » .

شعرت ببعض القلق ، وكان قد انقضى أكثر من ساعة ونصف فى هذا الشد والجذب دون أن يبدو على الحاضرين أى دليل على أنهم سيوقفون هذا التحقيق مع الطيب صالح ، وخفت أن يكون صبر الطيب صالح قد بدأ ينفذ وإن لم يبدر منه بعد ما يدل على ذلك . ولكنى أنا نفسى كنت متشوقا بدورى إلى سماع الطيب صالح وهو يتكلم عن تلك المشكلة التى تؤرقنى منذ فترة طويلة (مشكلة الأصالة والمعاصرة، أو الصراع بين المحافظة على التراث وبين تيار التغريب) تشجعت وطلبت الكلام وقلت له : «إنى أتفهم تماما ما تقوله من أن الروائى ليس له من وسيلة للتعبير عما يدور فى رأسه إلا الرواية نفسها . وقد قدمت أنت لنا مجموعة من الروايات والقصص المبهرة التى نشعر بالامتنان لك بسببها . هذا صحيح ، ولكنى كنت لأقنع بهذه الاجابة من كاتب مثل نجيب محفوظ أو يوسف إدريس ، أو حتى يحيى حقى ، أكثر مما يمكننى أن أقنع بها منك .. ذلك أنى أجد فى رواياتك وقصصك وحدة تجمعها كلها ، وكأنها جميعا تتكلم

عن مشكلة واحدة ، وهى ، حسب فهمى ، ما يمكن تسميته بالتقابل أو المواجهة بين حضارتين أو ثقافتين . فاختيار عنوان (الشرق والغرب) إذن لموضوع لقائنا بك لم يكن صدفة ، أو دعنا نقول إن فى كل أعمالك قلقا على «الجذور» أو خوفا من انتزاعنا من جذورنا . وهذا أمر يقلق الكثيرين . يقلق طلبة الجامعة الأمريكية وكثيرين من أساتذتها أيضا . ولهذا نحب أن نسمع منك كلاما عن هذا الأمر . هل يمكن أن نزعم مثلا ، أن تاريخ كتابتك لرواية موسم الهجرة إلى الشمال (١٩٦٦) كان متأثرا بما كان لازال يشيع فينا من أمل فى ذلك الوقت ، فى تحقيق النهضة دون التضحية بالجذور ، أما الآن ، وقد مرت ٣٦ سنة على ظهور الرواية ، فقد أصبح هذا الأمل أضعف بكثير . وهل يمكن أن يكون هذا واحدا من أسباب قلة ما كتبته منذ ذلك التاريخ ؟»

عندما أستعيد فى ذهنى الآن ما قلته أتساءل عما إذا كان من الأفضل ألا أقول ما قلت . فهانذا أقع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه بقية التلاميذ والأساتذة الذين شاركوا فى توجيه الأسئلة . ألم يكن من الواجب علىَّ أن أكتفى بما قاله الطيب صالح عن مشكلة الجذور والأصالة والمعاصرة وصدام الحضارات أو الثقافات، فى

رواياته وقصصه ؟ وألا أصر على أن استنطقه بأكثر مما يريد أن يقول ، فيقول نفس ما قاله من قبل ولكن بطريقة ليست هى الطريقة المحببة إليه ؟ ألا يجب أن نحترم حق الفنان فى الاقتصار على التعبير عن نفسه بالطريقة التى خلقه الله للتعبير بها ؟ لماذا نصر على مطالبة الرسام أو النحات بأن يشرح لنا بالكلام ما فى ذهنه ، بينما طريقته فى الشرح هى فقط الرسم أو النحت ؟ وما جدوى الإصرار على أن يشرح لك بيتهوفن أو باخ ما يريد أن يقوله فى السيمفونية أو السوناتا ، وهل يمكن أن نظفر من أى منهما بأى شئ ذى قيمة حتى لو افترضنا أن حاولا أن يعبرا بالكلام عن مكنون نفسيهما ؟ هل وقعنا فى خطأ فظيع لمجرد أن الأداة التى يستخدمها كاتب الرواية أو القصة هى نفس اللغة التى نستخدمها فى التحليل المنطقي ، فظننا أنه لابد أن يكون من الممكن التعبير عن مضمون الرواية أو مغزاها أو «رسالتها» بنفس الطريقة التى نعبر بها فى مقال سياسى أو فلسفى ؟

ها أنذا ، وقد زعمت أنى قد تفهمت ما أراد الطيب صالح قوله فى الرد على سؤال بعد آخر ، ارتكب نفس الخطأ وأطلب منه شيئا مستحيلا أو شيئا ثقيلا جدا على نفسه .

ردَّ عليَّ الطيب صالح بأدب كما رد على الآخرين ، وقال بشكل

أو بآخر أن مشكلة الجذور والأصالة والمحافظة على التراث قد عبر عنها آخرون على نحو أفضل مما يمكن له هو أن يعبر عنها ثم أضاف ، من باب محاولة تهدئة مخاوفى ، أنه لا يخاف على تراثنا وثقافتنا فهى قوية منيعة ، وهو لا يتصور مثلا ألا يستمر شاعرنا العظيم المتنبى حيا فى نفوسنا وثقافتنا على مر العصور فى المستقبل كما استمر فى الماضى .

لم يبدد هذا القول مخاوفى بالطبع ، إذ أننى أرى الكثير من الظواهر المرعبة ، من تدهور مستوى التعليم ، إلى غزو المدارس الأجنبية ، إلى تدهور مكانة اللغة العربية فى نفوس أبنائنا .. إلخ ، مما يشير إلى أن هناك مبررات حقيقية لهذا الخوف . ولكنى قبلت من الطيب صالح رفضه أن يخوض فى الموضوع ، خاصة بعد أن فكرت قليلا فى الأمر ، على النحو الذى شرحته توا ، واقتنعت باختلاف طريقة الروائي عن طريقة المحلل السياسى أو الاجتماعى فى التعبير عن نفس المشكلة .

★ ★ ★

ثم وقف طالب ليوجه سؤالا أكثر جرأة للطيب صالح ، وكان سؤالا سياسيا هذه المرة . قال إن الكاتب الشهير جابرييل

جارسيا ماركيز أصدر بيانا منذ أسابيع قليلة أدان فيه بشدة وحشية اسرائيل وأيد بقوة حق الفلسطينيين فى المقاومة ، وهو موقف لابد أن كان له أثر كبير ، بالنظر إلى مكانة الرجل الحائز على جائزة نوبل . وتساءل الطالب : ألم يكن مثل هذا الموقف أجدر بكتابنا العرب الكبار ، كنجيب محفوظ مثلا ، والطيب صالح نفسه؟

تأملت وجه الطيب صالح وهو يستمع إلى السؤال لأرى وقع هذا السؤال المحرج عليه ، وعما إذا كان من الممكن أن أستشف شعورا بالضيق أو بأنه وضع فى مأزق يصعب عليه الخروج منه ، فرأيت وجها ينم عن نفس راضية ، وعن تقدير للسؤال دون شعور بأى حرج أو صعوبة . قال الطيب صالح ما معناه إنه لم يشعر قط فى حياته بالميل إلى التعبير عن مشاعره ومواقفه السياسية على هذا النحو . إنه يقدر بالطبع نبل وأهمية موقف ماركيز ، خاصة وأن القضية ليست قضيته أو قضية أمته ، ولكن هذه ليست طريقته هو . وذكر أنه عندما كان صبيا صغيرا رأى مظاهرة للطلاب فى السودان تحتج على سياسة ما أو تطالب بمطلب سياسى أو آخر ، فلم يجد فى نفسه أى دافع للانخراط فى صفوفهم ، وعاد إلى

بيته ليقرأ . قال الطيب صالح : «هكذا أنا» ، آملا بالطبع أن نقبله على علاته .

وأنا أقول له : نعم ، نحن نقبلك بالضبط كما أنت ، ونشعر بالفخر بك والامتنان لك . كما أننا لا نجد من الصعب أن نتبين أن الوطنية وحب الوطن والتعاطف مع المقهورين ، من الفلسطينيين وغيرهم ، وسائر المواقف الأخلاقية ، يمكن التعبير عنها بألف طريقة ، وأن الطيب صالح قد اختار طريقة من أجمل هذه الطرق وأكثرها نفاذا إلى القلب .

(٣)
بهاء طاهر
خالتى صفية والدير

عندما قرأت رواية بهاء طاهر «خالتى صفية والدير» فرحت بها فرحاً شديداً ، كأننى اكتشفت كنزا ، وخطر لى أننى ربما لم أقرأ قصة باللغة العربية بهذه الجودة منذ قرأت «موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب صالح . ها هى ذى قصة ، لا يزيد حجمها على ١٤٤ صفحة ، بما فى ذلك رسوم حلمى التونى البديعة ، تمس شغاف القلب برقتها ونبل أبطالها ، بما فى ذلك المجرمين منهم ، وتعاطفها البالغ القوة مع الانسان بوصفه إنساناً ، بصرف النظر عن أى صفة أخرى ثانوية . ولكنها بالإضافة إلى ذلك ذات بناء قوى متماسك لا يكاد أن يكون من الممكن أن تقترح تبديل جزء منه بجزء أخر ، أو إحلال جملة محل جملة ، وهى تمسك بانتباه القارىء منذ أول صفحة وحتى نهايتها وتتركه وهو أكثر حكمة وأقل خسة .

شخصياتها الأساسية قليلة العدد ، منها شخصية المقدس بشاى ، الذى كان يقيم بالدير الواقع على بعد نصف ساعة من

القرية التى تدور بها الأحداث ، ولا يعرف أحد ما إذا كان المقدس بشاى هذا يقيم بالدير باعتباره راهباً تحت الاختبار أم مجرد خادم للكنيسة أم مزارعا فى أرض الدير . ولكنه كان أشهر أهل الدير فى القرية وأحبهم إلى قلوب الناس ، فهو بالغ الطيبة نظيف القلب ، اتسع قلبه لحب كل شىء : انساناً وحيواناً أو شجرة ، إلى جانب نوع من الحكمة قد تبدو أحياناً وكأنها تسمح له برؤية ما لا يراه الناس ، وبأن يتوقع ما سوف يحدث ، وإن كان يبدو لكثيرين أحياناً ، ربما لنفس السبب ، وكأنه «خفيف العقل» .

كان المقدس بشاي يفتح باب الدير للصبى الذى يروى القصة كلما جاء إليه وهى يحمل علبة الكعك التى أعدتها والدته كهدية للدير فى العيد الصغير ، بينما يهدى الدير للأسرة المسلمة بلحا مسكراً صغير النوى ، وهو بلح لا تطرحه فى البلد إلا نخلات الدير . يستقبل المقدس بشاى الصبى مهللاً : أهلا بالتلميذ النجيب ، أهلا بابن الحاج الطيب .. أهلاً بجيران الخير . ولا تكون حفاوته بالحمار الذى يركبه الصبى بأقل من ترحيبه بالصبى نفسه، فكان يربت على عنقه ويناغيه بعبارات التدليل ويكاد يقبله ، فإذا ارتابت الصبى دهشة من هذا التصرف ، قال المقدس

بشاى فى شىء من العتـــاب : «كيف تسألنى يا ولدى وأنت تلميذ فى المدرسـة ؟ ألم يدخـل مـخلصـــنا أورشليم ممتطيـاً هذه الدابة فتهلل له الشعب ؟ » .

وكـان المقدس بشـاى إلى جـانب طيـبتـه البـالغة عـالماً خـبيـراً بشئون الزراعة ، فكان والد الصبى يستشيره قبل كل زرعة ، فلما أراد مـرة أن يزرع قطناً قـال له المقـدس بشـاى وهـو يضـحك . أى قطن يا حـاج فى أرض بلدنا التى تطلع فـيـهـا الخـبـيـزة بطلوع الروح؟ ازرع ذرة أحسن . وفعلاً ثبت أن نصـيحة المقـدس بشـاى كانت فى محلها تماما .

★★★

على أنه لا المقدس بشاى ولا حتى الدير كله هو محور القصة . فـالقصـة الاساسية التى أسـأذن القارىء فى تلخيصها فى سطور قليلة هـى قـصـة «صـفـيـة» (خـالة الصـبى الذى يروى القـصـة) و«حربى» وهـو قريب آخر له من بعيد . صـفية فتاة رائعة الجمال ، يعتبرها الصبى أجمل إنسانة فى العالم باستثناء فـاتن حمامة . يتيمة الأم والأب ، ومن ثم فـهى تقيم مع أختها وزوج أختها (والد الصــبى) . و«حــربى» يتـيم الأب والأم هـو الآخـر ، وجـمـيل بين الرجال كما كانت صفية جميلة بين البنات . توافد الخطاب يطلبون

يد صفية منذ كانت فى العاشرة فكان زوج أختها يرفضهم جميعاً لأسباب مختلفة ، أهمها أنه كان هناك إحساس عام فى البيت وخارجه بأن صفية لحربى وحربى لصفية ، رغم أن حربى لم يطلب يدها قط ، بل كان يعاملها وكأنها طفلة .

كانت صفية تحبه وتريده ، مثلما كانت تريده بقية البنات ، «فكانت هى وبنات أختها يتلصصن عليه من خلال الأبواب شبه المغلقة عندما يجلس مع أبى على الدكة فى صحن الدار يتحدثان عن الزرع أو يشربان الشاى ويتسامران» . فلما سمعها الصبى تقول وهى تختلس النظر إلى حربى «سبحان الله مثل فلق القمر »، وهدد الصبى بفضحها عند أختها قبلت صفية الصبى فى جبينه، وسألته فى عتاب : وترضيك فضيحتى يا ابن أختى ؟

كان لحربى خال جاوز الستين من عمره ، بالغ الثراء والنفوذ فى البلد ، تزوج مرتين وترمل دون أن ينجب ، ويعرف باسم «البك القنصل» رغم أنه لم يكن قنصلاً قط . ووقعت المصيبة عندما جاء البك القنصل مع حربى ليطلبا يد صفية لا لحربى بل للبك نفسه الذى يكبرها بنحو خمسين عاماً فهو فى مقام جدها . فحينما بهت عائل صفية وولى أمرها ، وكان يظن أن حربى جاء ليطلبها لنفسه، زاد الطين بلة أن قال حربى إنه « شرف لأى بنت أن يتزوجها البك

ويرفع مقامها » : نقل الكلام إلى صفية لمعرفة رأيها ، فصعد الدم إلى وجهها واستفسرت : «حربى قال ذلك ؟» ، فقيل لها نعم ، فاذابها تقول : أنا موافقة .. سأتزوج القنصل وسأعطيه ولداً . وأقيمت الأفراح ورقص حربى فى الفرح ابتهاجاً بزواج خاله ، وبدأت رحلة العذاب للجميع ، ومأساة صفية وحربى والبك القنصل. لقد رزق البك بالولد الذى تمناه وأسماه حساناً ، ولكن فوجىء الناس بانقلاب البك على حربى انقلاباً فظيعاً وطرده من قصره ، وشاع أن وشاية أوعزت للبك أن حربى أقسم على قتل حسان لكيلا ينفرد بميراث البك ، كما شاع أن صفية تصدق أن حربى قال ذلك ، فأرسل البك رجاله حاملين البنادق فخلعوا عن حربى ثيابه وربطوه فى جذع نخلة وأشبعوه ضرباً حتى ضاع جلد الظهر وتمزق لحم ظهره وساقيه وهو يصرخ مستغيثاً بالبك أن يأمرهم بالكف « يكفى يا خال ، يكفى » ولكن دون جدوى ، حتى التقط حربى بندقية أحدهم انطلقت منها رصاصة أودت بالبك قتيلاً. فأقسمت صفية أن تأخذ بثأرها وألا تقبل العزاء فى زوجها حتى يأخذ ابنها حسان بثأر أبيه ، وأصابها ما يشبه الجنون ، وزال الجمال القديم وأصبحت تشبه المرأة العجوز وتتصرف مثل العجائز .

حكم على حربى بالسجن عشر سنوات ، فلما خرج كان المكان الآمن الوحيد الذى يستطيع أن يحتمى به من انتقام صفية هو الدير ، حيث استقبله الرهبان على الرحب والسعة وأصبح فيه المقدس بشاى نديمه وحارسه . ولكن حربى كان قد أصبح شخصاً آخر ، هزل جسمه ، وضاع مرحه ، وفقد رغبته فى الطعام ، وظل يزداد هزالاً حتى مات ، فما أن بلغ صفية خبر موته حتى صرخت صرخة هائلة والتقطت ابنها من الأرض ثم رمته بكل قوتها نحو الحائط فلم ينج من الموت إلا بمعجزة . وراحت فى غيبوبة ، وأتوا لها بطبيب كتب لها حقناً للتغذية فكانت تنزع الإبر من يديها ورفضت أن ينقلوها إلى المستشفى ، وتدهورت حالتها بسرعة وقال الطبيب أنه لا فائدة ، وذات يوم أفاقت من غيبوبتها وكان زوج أختها بجانبها فإذا بها تلتفت إليه بعينين متعبتين وتقول بصوت طفولى :

«نعم يا والدى .. أعذرنى .. لا استطيع أن أقوم .. ولكن إن كان حربى يطلب يدى فقل للبك إنى موافقة .. أنت وكيلى يا والدى .. وأنا موافقة على أى مهر يدفعه حربى .. لا تشغل بالك بالمهر ..» ثم أغلقت عينيها وماتت .

★★★

لن أخوض فى تحليل القصة وما تنطوى عليه من معانى ، فليس هذا هو هدفى من هذا الحديث ، ولكنى فقط سأشير إلى ما اتسمت به رواية بهاء طاهر من «تحضر» . كان الصبى صاحب القصة فى إحدى زياراته للدير قد توقف أمام صورة للعذراء وهى تحتضن المسيح الرضيع وتحنو عليه بعينيها ، وأخذ الصبى يتأمل الصورة فرآه المقدس بشاى وقال : حتى أنت التلميذ الصغير ، ولا أنت من ديننا ولا نحن من دينك ، تعجبك الصور وتحب أن تتفرج عليها . أما الخواجات السياح الذين يأتون من آخر الدنيا ويتزاحمون ويتدافعون ويكادون يقتلون أنفسهم فى الحر والشمس من أجل نظرة على تماثيل المساخيط الكفار فى برابى الاقصر ، فلا أحد منهم يضع حصوة ملح فى عينه ويأتى لينظر إلى صور العذراء الطاهرة ، ويقولون بعد ذلك إنهم نصارى .

وكان من مظاهر اللوثة التى أصابت صفية أن أطلقت على حمار السباخ الأسود اسم «حربى» وراحت تدرب ابنها على البصق على «حربى» الحمار ، فلما سمع زوج أختها بهذا استشاط غضباً وقصد بيتها وصاح بها «أطلبى من ربنا الصبر، ولكن ما تفعلينه حرام» . فلما صاحت محتجة «نارى يا والدى .. دعنى أطفىء نارى» قال لها بلهجة هادئة : الذى قتل البك ياصفية

رجل لا حمار .. ابن آدم .. وابن آدم ربنا كرمه ، وحرام أن تسمى حماراً باسم رجل .. حرام .. والله يا صفية لو لم ترجعى عما أنت فيـه فلن أدخل لك داراً بعد اليوم ، أبن آدم لا يكون حماراً .

ومرة سأل الصبى أباه سؤالا عن حسان وصفية والثأر فالتفت إليه أبوه قائلاً : اسمع يا ولدى .. عندى أمل فيك .. عندى أمل فى حسان عندما يتعلم ، عندى أمل عندما تكبر أنت ويكبر هو .. ولكنه لم يكمل . وكان يخطب فـى المسجد فيرق صوته ويتهدج حين يذكر الرسول عليه الصلاة والسلام ، يذكر ما قاساه قبل الهجرة وبعد الهجرة ، يذكر حروبه وجروحه فيخفت صوته ويمتلىء حزنا ثم يعود إلى القوة والابتهاج وهو يذكر كيف أتم الله نعمته وألف بين القلوب المتخاصمة ، ويتوقف لحظات وهو يجيل بصره بين جمهور المصلين. أكاد أشعر به يريد أن يمسك كل واحد من كتفه ويقول له: «عندى أمل ».

وعندما أمرت صفية حارسين من حراسها بأن يذهبا إلى حربى فى الدير وأن يقتلاه قال الرجلان : يا ست صفية إن خرج من الدير قتلناه ، ولكننا لا نستطيع أن نقتله فى الدير ، حتى المجرمون والمطاريد لا يفعلون ذلك .. هذا حرام .

وعندما أراد واحد من المطاريد الهاربين من الحكومة أن يهاجم الدير لما سمعه من أنه مملوء بالذهب ، وعبر عن ذلك لزعيم عصابة

المطاريد ، الذى كان ذا نخوة ومروءة ، استشاط هذا الزعيم غضباً وضربه فى رجله بالرصاص وصاح به : تريدنى أن أعتدى على الرهبان الذين أوصى عليهم ربنا سبحانه وتعالى ؟ . ثم التفت إلى أبى مستشهداً : ألم يوصى عليهم سبحانه وتعالى يا حاج ؟ . فقال أبى بشىء من الحرص : «الرهبان مذكورون فى القرآن الكريم يا معلم ».

ولما كان حربى يسلم الروح «رأينا المقدس بشاى يجرى دون الحزام الذى يربط وسطه فتهدل ثوبه وتهدل جسمه كله ، واختلط لهاثه ببكائه وهو يقول اسرع يا حاج . اسرع . الرب يسترد الوديعة . ولما رآنى المقدس بشاى أبكى احتضننى بقوة ثم أبعدنى عنه قليلاً وظل يضع يداً على كتفه ويشير بيده الأخرى المرتعشة نحو الجسد المسجى وقال فى دهشة بالغة : انظر يا ولدى .. وهذا أيضا عاش للألم .. أترى ؟

فى صفحات قليلة بعد انتهاء الرواية ، كتب بهاء طاهر بعض ذكرياته وملاحظاته الشخصية ختمها بقوله «لقد حرصت فى أول الرواية على أن أقول إن كل أحداثها من نسج الخيال . ليس بالضبط فجنين الخيال أيضاً هو الواقع ، ومن ذلك أن أبى رحمه الله كان شيخاً أزهرياً تقياً ، ربانا لنكون مسلمين صالحين ،

وأدعو الله أن أكون كذلك ، وكان هو نفسه يتعامل مع الناس جميعا بخلق الإسلام الصحيح ، وأشهد الله أنني لم أسمع منه يوماً في حياته كلمة تفرق بين الناس بمقولة هذا مسلم وهذا مسيحى .

قلت لنفسى : وهكذا كان أبى بالضبط ، ووضعت الكتاب جانباً .

★★★

ثم لم تمض أيام قليلة حتي حدثت حوادث امبابة . فطبقاً لما نشرته الصحف وأذاعته الاذاعات الأجنبية بدأت الأحداث بأن اشتعل شجار بين المسلمين والأقباط فى منطقة إمبابة أدت إلى أن هاجم بعض المتطرفين من المسلمين كنيسة فى شارع الوردانى التهمت محتوياتها بما فيها ٤٠ ألف كتاب ومكتبة شرائط وأورج قيمته ٩٠ ألف جنيه . وقالت بعض الصحف أنهم أحرقوا أكثر من ٤٠ شقة للمسيحيين ، بينما ذكرت صحيفة أخرى أن بعض المسلمين تعرضوا لأسلحة نارية وللضرب بالجنازير على يد أسرة مسيحية بحجة أن أحد أبناء هذه الأسرة قد ضرب . أما بقية الأحداث فيكاد يأبى القلم تدوينها ، كإلقاء البعض بامرأة من منزلها من ارتفاع ١٠ أمتار وقفز ابنتها من نفس الارتفاع خوفاً على نفسها من المهاجمين ، وكإجبار بعض الأقباط على عدم

ارتداء الصليب وعلى خلع الصليب بالقـوة ، ثم ذكـرت بعض التفسيرات المخجلة للشجار والعراك كالقول بأنها بدأت عندما اتهم بعض المتطرفين صاحب محل جزارة مسيحيا بإذاعته شرائط دينية مسيحية مسجلة على جهاز كاسيت وبأنه كان يتعمد إذاعتها أثناء صلاة الجمعة ، وقول آخر بأنها بدأت بمشاجرة بين متطرفين وبائع دجاج مسيحى أتهمه المشترى بأنه لا يذبح الدجاج حسب الشريعة الإسلامية ، وذكر ثالث بأن البعض أطلق إشاعة بأن صاحب مقهى مسيحيا يعرض شرائط فيديو مخلة بالآداب فى مقهاه ، أو أنها بدأت بعراك بين بائعين جوالين أحدهما مسيحى والآخر مسلم تنافسا على مكان واحد لعربيتهما .. الخ .. إلخ .. إلخ .

★★★

تذكرت بهاء طاهر وأباه والمقدس بشاى والدير كما تذكرت أبى، وتساءلت عما كان من الممكن أن يقوله والد بهاء طاهر أو يقوله أبى لو كان قد قيل لأى منهما أن جماعة من المسلمين ساروا فى الشوارع وهم يهتفون «لا إله إلا الله ، الأقباط أعداء الله » كما ذكرت إحدى الصحف أنه حدث فى إمبابة . هل كان والد بهاء طاهر سيقول كما كان يقول «عندى أمل ؟» . ثم قلت

لنفسي : وما الذى تنتظر أن يحدث فى حى سكنى وصفه الصحفيون الذين ذهبوا لتغطية الأحداث بالصورة الآتية : عدد كبير من الفقراء النازحين من الصعيد وبعض المحافظات الأخرى ، يسكنون مساكن عشوائية ومكدسة بالبشر ، عديمة الخدمات ، وتضم أعداداً غفيرة من العاطلين ، ويستعمل جزء كبير منها كمقالب زبالة للقاهرة والجيزة ، ولا يخلو شارع من المجارى الطافحة ، وشوارعها محفورة من الوسط تمهيداً لعمل مجارى جديدة ، وأكوام الأتربة تسد أبواب البيوت على الجانبين فى شارع الاعتماد، وهو الشارع الذى وقعت به معظم الأحداث ، فلما جاء رجال الشرطة كان عليهم أن يخوضوا في برك من مياه المجارى التى تعوم فيها جبال القمامة . فى هذه البيئة يتحرك السكان بين المقاهى ومحلات بيع الأشرطة التى تذيع ليل نهار وبصوت عال أغانى من نوع «أنت يا خيشة كداب قوى » ، ثم يأتى خطباء المساجد الأهلية التى لا تراقبها وزارة الأوقاف يقولون كلاماً يحرض هذا على ذاك .

هل يستغرب فى مثل هذه الظروف أن يظن شاب عاطل أن إجبار قبطى على خلع صليبه يعتبر عملاً محموداً يرفع من قدره أمام نفسه وأمام أقرانه ؟ أو أن يقوم آخر مثله بإجبار إمرأة قبطية

على القفز من ارتفاع عشرة أمتار؟ بل أن تقدم امرأة قبطية أو مسلمة بإلقاء نفسها من ارتفاع عشرة أمتار بمحض اختيارها لأن الحياة فى منطقة امبابة لم تعد ممكنة للآدميين ؟ قلت لنفسى أيضا أنه حتى لو قررت وزارة التعليم أن يقرأ تلاميذ المدارس رواية بهاء طاهر ، على أمل أن يفطنوا إلى أن المقدس بشاى يمكن أن يكون رجلا طيباً ، وأن ابن آدم كرمه الله ومن ثم لا يجوز أن يعامل كالحمار ، بدلاً مما تحتويه الكتب المقررة من سخافات لا هى بالفن ولا بالدين - حتى لو فعلت وزارة التعليم ذلك فإن حل المشكلة يحتاج أيضاً إلى ردم المجارى وجمع القمامة وكنس التراب وإسكات الميكروفونات وإيجاد عمل للمتبطلين .

(٤)
بهاء طاهر
نقطـة النــــور

نحن مـدينـون بالشكر للروائى القـدير بهـاء طاهر على هذه السيمفونية الجميلة التى أهداها لنا فى مطلع القرن الجديد (نقطة النور ، روايات الهلال ، يناير ٢٠٠١) فأمتعنا وشحذ فكرنا وقوى ثقتنا بحيوية الثقافة المصرية .

لقـد شغل بهـاء طاهر الناس بروايته الجميلة (خالتى صفيـة والدير) التى بهرتنا ببسـاطتـهـا وإحكام صنعتـهـا ، وكـذلك بما تضـمنتـه من حكمـة وتعـاطف إنسـانى قـوى . ثـم اسـتـولى على إعجابنا أيضا بروايته التالية (الحب فى المنفى) الأكثر تعقيدا من (خالتى صفية والدير) والأقل أناقة ولكنها كانت لهذا السبب أيضا ، أكثر شحذا للفكر وإثارة للتأمل . ثم ها هو بهاء طاهر الآن يعطينا عملا له بساطة وأناقة (خالتى صفية والدير) وأكثر شحذاً للفكر وإثارة للتأمل من كلا الروايتين السابقتين .

رواية «نقطة النور» يتوفـر فـيـهـا كل المطلوب لرواية ناجحـة التشويق من الصفحة الأولى ، واللغز (أو الألغاز) التى لا تحل حلا

كاملا إلا بانتهاء الرواية ، والشخصيات المقنعة تماما والواضحة وكأن باستطاعتك أن تتعرف على كل منهم إن قابلته فى الطريق ، والتفاصيل الضرورية لبث الحياة فى القصة مع إهمال ما عدا ذلك مما لا موجب لذكره ، والتحرك السريع فى الأحداث دون التوقف بلا طائل عندما لا يخدم الغرض من الرواية ، فضلا عن الحوار الجيد الذى يتفق مع الشخصيات التى تفوه به ، ولغة رائقة فيها حيوية العامية ونفاذها إلى القلب ، وجمال الفصحى ورقيها ، والحوار خفيف الظل لأن القصة مليئة بالشخصيات خفيفة الظل : الجد الباشكاتب وحفيدته فوزية ، ولبنى الفتاة الارستقراطية ، وجابر القهوجى .. الخ بالإضافة إلى هذا كله ، سوف يجد القارىء شيئاً آخر ، وإن لم يكن بالطبع شرطا من شروط الرواية الناجحة، وهو أنه ليس فى الرواية كلها شخصية واحدة شريرة ، كما هى الحال بالضبط فى رواية (خالتى صفية والدير) . فبهاء طاهر يستطيع أن يتعاطف مع الجميع ، وأن يكتشف السبب الحقيقى الدافع إلى المكر أو النصب أو الكذب أو المراوغة ، فإذا بالعمل الشرير يتحول إلى مجرد مظهر من مظاهر الضعف الانسانى الموجود فينا جميعا ، بدرجة أو أخرى . شخصيات الرواية تتفاوت فقط فى القوة والضعف ، فى الذكاء والغباء، وارتكابها لخطأ فى

حق الغير أو القسوة عليه سببهما إما الضعف أو الغباء ، وليس أكثر من ذلك . إن أقل شخصيات الرواية حظا من تعاطف المؤلف (ومن ثم من تعاطف القارىء أيضا) هو شخصية الدكتور شوكت، ولكن السبب وراء قسوة الدكتور شوكت أو غلظته أو إهماله لابنته تكفى لفضحه جملة عابرة من ابنته لبنى مثل جملة «لماذا لا تتغير ياأبى ؟ » أو نظرة عابرة من مطلقته الدكتورة صفاء ، فإذا به يتحول من رجل فظ غليظ القلب يتظاهر بالثقة الكاملة بالنفس إلى صبى مراهق مهزوز يحتاج إلى من يربت على ظهره ويظهر له بعض العطف والحنان .

كل هذا رائع . ولكنى لم ألمس بعد ، ولو لمسا خفيفا ، أهم ما فى الرواية وأكثرها جاذبية .

الرواية تدور أحداثها حول أسرتين : أسرة تنتمى إلى الطبقة الوسطى الدنيا ، وأسرة أرستقراطية . أهم شخصيات الأسرة الأولى الجد الباشكاتب (وهو أهم شخصية فى القصة على الاطلاق) وابنه شعبان ، وحفيده سالم ، وحفيدته فوزية .

والأسرة الأخرى تتكون من الدكتور شوكت الطبيب الناجح والثرى ، وابنته لبنى الطالبة فى كلية الحقوق ، ومعها الدادة سنية، أما الأم ، الدكتورة صفاء ، فقد طلقها الدكتور شوكت بعد أن

اكتشف خيانتها له مع صديق له . والذى يجلب الأسرتين فى قصة واحدة هى علاقة الحب التى نشأت بين سالم ، الحفيد الوسيم والحساس والبالغ الطيبة ، ولبنى الفتاة الاستقراطية الحساسة بدورها والتى تفتقد حب الأب (المشغول دائما عنها بعيادته) وحب الأم التى تعيش مع زوجها الجديد بعد طلاقها .

أهم شخصيات الرواية طرا وأشدهم جاذبية وهو محور القصة بلا شك ويرجع إليه اسمها «نقطة النور» ، هو الباشكاتب توفيق، الجد العجوز الذى يهيم به أفراد أسرته حبا ، وكذلك جيرانه من سكان الشقق الأخرى فى عمارته ، وجميع سكان حارته وكل من يتصل به . هو محبوب من الجميع بلا استثناء ، وعلى الأخص من حفيده سالم ، وحفيدته فوزية ، مع تحفظ واحد بسيط ، يتعلق بابنه شعبان ، لا أقصد أن شعبان لا يحب أباه ، ولكن من المؤكد أننا لا نلمس هذا الحب ولا نسمع عنه .

فشعبان خارج البيت باستمرار حيث يبيع الأقمشة فى دكانه الذى أنشأه له أبوه ، ولا يظهر فى البيت إلا عند الضرورة أو عند النوم . وقد ترك بنته وأبنه : فوزية وسالم ، ليسهر عليهما الجد ، يربيهما بدلا منه بعد أن توفت زوجته ، أم الطفلين ، فى سن الشباب .

ما سر جاذبية هذا الجد وسحره ؟ طيبة القلب والحب الغامر للجميع ، ولحفيدته على الأخص ، بل والحب الغامر للحياة ، بما فى ذلك النساء الجميلات ، بعد أن فقد هذا أيضا زوجته التى كان يعشقها عشقا . ولكن ليس هذا كل شيء . إنك تفهم من سياق القصة كم هو ذكى ، هذا الجد ، وكم هو حكيم ، وكم هو قادر على فهم مشاعر الناس الحقيقية وما يدور بخلدهم دون أن يتفوهوا به . إنه متدين شديد التدين ، والدين عنده قد اكتسب هاتين الخصيصتين الرائعتين : الحب الغامر للناس والتعاطف المستمر معهم ، إلى جانب المحاولة المستمرة دون توقف لفهم حقيقة الأشياء . هاتان الخصيصتان : الحب الغامر والرغبة العارمة فى فهم حقيقة الحياة والناس ، دفعتاه دفعا إلى ما يشبه التصوّف . وهو من شدة صفاء روحه وإخلاصه يشيع فيمن حوله إيمانا مماثلا بما يؤمن هو به : هذا الحلم الذى رآه لابد أنه يعنى أن حفيده سالم سيوفق فى مسعاه . هذه الرؤية التى طرأت على مخيلته لابد أن معناها أن زوج فوزية الغاضب ، سيعود إليها يوم الخميس لاسترضائها ، وهذه الأعشاب التى نصحه بها مرعى العطار لابد أنها ستشفى سالم من مرضه ، وليس ما كتبه له الأطباء من أدوية .. الخ فإذا بكل ما يقول أو يتنبأ به يتحقق

بالفعل ، وكأن شدة رغبته فى أن يتحقق شىء ما ، وشدة ثقة الناس فيما يقول . قد جعلت رغبته تتحقق بالفعل ، أو كأن حبه الكامل لحفيده سالم يجعل شفاء الولد على يديه .

القارىء يتعاطف مع الجد وتصوفه تعاطفا تاما ، إذ ليس فى وسعه ألا يتعاطف معه ، فهو فضلا عن نقاء روحه وإخلاصه خفيف الظل ، عذب الحديث وبالغ النشاط . إنه دائم الحركة ، ذهابا وإيابا ، إما لأحضار الحجاب الذى سوف يشفى حفيده من مرضه . أو لتقديم طلب لإعفاء حفيده من الامتحان ، أو لمقابلة نازلى هانم التى تزوجها سرا من وراء ظهر ابنه وحفيدته ، زواجا عرفيا ، فيذهب ليقضى معها يوما واحدا كل أسبوع ، تاركا أسرته طوال الرواية تحاول أن تعرف دون جدوى سر هذا الموعد المنتظم مساء كل خميس .

ولكن الأمور تتعقد بالطبع وتنحرف عن سيرها المألوف مما يخلق مشكلات تستعصى على فهم الجد العجوز ، مع كل ذكائه وفطنته ، كما تستعصى على الحل ، رغم كل ما يملأ قلبه من حب ورغبة فى مساعدة الآخرين .

الحفيد (سالم) تصيبه من حين لآخر حالة أشبه بالصرع ، مصحوبة بهياج شديد ، فينقلب من شاب وديع حساس إلى شاب

ثائر ينطلق بسبابه وشتائمه حتى ليصيب بها أقرب الناس إليه ، ويفقد شهيته للطعام أياما وأسابيع فيصيبه الهزال والضعف حتى يثير الفزع لدى الجميع .

والحفيدة (فوزية) تتزوج من جارها (فراج) وهو شاب طيب تحبه ويحبها ولكنه قليل الدخل لا يكفي مرتبه من وظيفته المتواضعة للقيام بحاجيات زوجته وطفلهما . ودكان الابن (شعبان) تكسد بضاعته فيعجز بدوره عن سد حاجات ابنه وعن مساعدة ابنته وزوجها .

والعمارة القديمة التي يملكها الجد وتسكن الأسرة في إحدى شققها ، يصيبها شرخ خطير يجعلها آيلة للسقوط مما يهدد حياة الجميع ، وكلهم عاجزون عن تحمل تكاليف مسكن جديد .

في أثناء هذا كله يتعرف الحفيد سالم ، وقد أصبح طالبا في كلية الحقوق ، على زميلته (لبنى) ويقعان على الفور في الحب .

وبسبب هذا الحب يشفى سليم من مرضه ، ويعوض هذا الحب لبنى عما تفتقده من حب أبيها وأمها . ولكن ياليت الحب يكفي لحل كل المشكلات . إن فوزية ، أخت سالم الطيبة ، تحتاج من المال ما يمكنها من الاحتفاظ بزوجها ورعاية ابنها ، وشعبان يحتاج من

المال ما يمكنه من إنقاذ ماء وجهه أمام أسرته وجيرانه ، والأسرة كلها تحتاج من المال ما يكفى لسكن جديد بدلا من العمارة الآيلة للسقوط . بل وحتى لبنى نفسها يعكر صفوها ذكريات مؤلمة قديمة تتعلق بمدرس خصوصى حاول اغتصابها ، وأب أنانى وأم لا تكاد تسأل عنها . وسالم نفسه ، بعد أن ظن أنه ظفر أخيراً بالسعادة بعثوره على لبنى عاوده المرض بلا سبب مفهوم فى لحظة إختلائه لأول مرة بمحبوبته .

عندما تتعقد الأمور على هذا النحو وتبلغ الأحوال غاية السوء ، تتعلق الأفئدة كلها بالجد ، الذى يصيبه الكبر ويقعده المرض ولكنه لا يكف لا عن محاولة الفهم ولا عن التعاطف مع الجميع . والجد يتعلق «بنقطة نور» وعده بظهورها رجل صالح وولى من أولياء الله. وضع فيه الجد كل ثقته وآماله . يتعلق أمل الجد بظهور «نقطة النور» الموعودة هذه ، والتى بظهورها سوف يعم السلام الجميع وتعود للنفوس كلها طمأنينتها .

وثقة الجد بظهور نقطة النور لا حد لها ، ولا يمكن أن يعتريه أى شك فيها ، وثقته هذه تنتقل منه إلى الجميع ، بما فى ذلك لبنى نفسها ، الفتاة الآتية من وسط مختلف تماما ، ولكنها تتمتع بما تمتع بها الجد توفيق والحفيد سالم من شفافية الروح والتعاطف

مع الآخرين . الوحيد الذى لا ثقة له بكل هذا هو شعبان ، إنه لا يشارك الجد الثقة بنصائح أولياء الله الصالحين ، ولا بفعالية الحجاب والبخور والعطارة فى علاج ابنه سالم ، وقد كان ممانعاً لتزويج ابنته فوزية من جارها الذى تحبه لأنه لا مال له. وهو يبيع أرض العمارة سرا على أمل أن يحل ما يحصل عليه من مال مشاكل الأسرة بعد سقوط العمارة ، بينما يحاول الجد بكل جهده ترميمها وينفر نفوراً شديدا من فكرة تشريد السكان والانتقال من هذا الحى الذى ألفه وأحب أهله .

ولكن بهاء طاهر لا يخفي موضع تعاطفه الحقيقى . ففى المشهد الأخير حيث تأتى لبنى إلى بيت سالم وتحاول رأب الصدع الذى نشأ بينهما ، والجد راقد فى سريره بين الحياة والموت ، تقول لبنى لسالم : «حدثنى ماذا يقول جدك عن الأرواح ؟ فيخبرها أن جدّه يقول «إن كل الأرواح جميلة وكلها طيبة فتسأل لبنى : «وهل قال لك ياسالم ما الذى ينقذ هذه الأرواح ؟ » فيجيب سالم : «نعم، قال الحب» .

لا شك أن بهاء طاهر يميل بقلبه إلى الاعتقاد بأن الحل الذى وضع الجد فيه ثقته هو الحل الوحيد الصحيح . أليس الحب هو الذى أدى إلى شفاء سالم ، وأعاد إلى لبنى الأمل ، وحافظ على

أسرة فوزية الصغيرة ، وتحمى الأسرة الكبيرة من الانهيار والتشرد فى كل أتجاه ؟

قد لا يستطيع أن يقدم الجد تفسيرا واضحا لما يؤمن به ، ولكنه واثق من أن الحلول التى يأتى بها شعبان لن تفيد شيئاً : لن يؤدى بيع العمارة إلى شىء ، كما أنه لن ينقذ شعبان نفسه من كساد تجارته ، إذ أن سببَ كساد تجارته ليس قلة المال وإنما قلة حب الناس له .

★★★

بالإضافة إلى هذا البعد الفلسفى للرواية ، هناك بعد اجتماعى وسياسى ، فهذه الحدوتة الجميلة والحزينة هى أيضا قصة مصرية للغاية . تدور معظم أحداثها بالقرب من ميدان السيدة زينب ، وتفوح منها رائحة مصرية صميمة ، وتبرز من حوار أبطالها الشخصية المصرية واضحة وقوية . ليس هذا فحسب ، بل أن بعض الأحداث الأساسية فى القصة يمكن اعتبارها رمزاً لما يمكن أن يسمى «بالمسألة المصرية» كما تجلت فى العقود الأخيرة . أقصد بالذات ذلك الشرخ الخطير الذى أصاب العمارة ، وحيرة الجميع فيما يمكن أن يصنعوه إزاء هذا الشرخ ، الترميم ، أم الهدم والبحث عن مسكن فى مكان آخر ؟ ولكن كلا الحلين باهظا

التكلفة ومتاعبهما كثيرة ، وقد يكون العثور على مسكن آخر مستحيلا . وهدم العمارة وبيع الأرض قد يجلبان للأسرة مبلغا من المال قد يكفي لحل مشكلة سكنها هي ، ولكن ماذا عن بقية السكان ؟ وكيف تتصور الحياة ، على أية حال ، في مكان آخر بعيدا عن الجيران والأحباب ومكان العمل والذكريات ؟ ، بل هل يتصور أصلا أن يستمر الجد في الحياة لو انتقل من العمارة إلى مكان آخر ؟ نعم ، ما الذي يمكن أن تصنعه مصر إزاء هذا الشرخ الخطير ؟ هل نبيع كل شيء ونبني بناء جديداً ؟ قد يكون لهذا الحل إغراؤه الذي تصعب مقاومته ، فالمشترى جاهز وأمواله حاضرة ، والبيع قد يبدو هو الحل العقلاني الوحيد ، ولكن أى نوع من الحياة يمكن أن يتصور لمصر إذا تم البيع وتحولت العمارة إلى أرض فضاء ؟

شعبان هو الوحيد من بين أفراد الأسرة الذى يتصرف على أسس مادية بحتة . ففي نظره لا حل إلا في البيع وكل ما عدا هذا مجرد عواطف وتمسك بالقديم دون جدوى . ومن الممكن إذا لزم الأمر ، احضار سيارة اسعاف لنقل الجد إلى مسكن آخر . ولكن ما قيمة كل هذا بدون العلاقات الانسانية ؟ بل ما قيمة الجد نفسه في أى مكان آخر ؟

ولكن هل لديكم أى حل آخر غير البيع والانتقال إلى مسكن جديد ؟ الرواية كما رأينا تنتهى بعبارة مؤداها أن هناك حلا آخر ، وهو مضمون الحوار الذى نقلته حالا مما دار بين سالم ولبنى، وهما أصغر شخصيات الرواية سناً ، ومن تنعقد عليهما الآمال ، بما فى ذلك ، على الأرجح ، آمال مصر نفسها . الجد لا رأى له لأن مرضه يمنعه من التعبير عن رأيه ، ولكنه طبعا ، لو كان يستطيع الكلام ، كان سيرفض حتماً فكرة البيع وسيفضل البقاء فى حجرته ولو وقعت كلها على رأسه . وفوزية المسكينة تتنازعها عواطف متضاربة . إنها مع الجد وسالم بقلبها ولكن عليها أن تفكر فى طفلها الصغير الذى يحتاج إلى ما لا يمكن توفيره إلا ببيع الأرض وهدم العمارة .

قد يكون من السهل على القارىء أن يخمن الحل الذى يتعاطف معه بهاء طاهر ، ولكنه يترك النهاية مفتوحة وتظل القضية مطروحة للنقاش : قضية أسرة الباشكاتب والمسألة المصرية على السواء . ولكن أيا كان الحل ، فإن علينا ، على أى حال ، ألا نتصور أن من الممكن الوصول إليه بالحساب بالورقة والقلم ، وبالجمع والطرح ، بل لابد أن يكون التصرف ، أى تصرف ، مقترنا بالحب ، وإلا ضاع كل شىء هباء . إن فى الرواية من

الأحداث ما يكفى لتأييد هذا الاستنتاج ، إذ لا يمكن أن نتوقع من شعبان ، بكل عقلانيته أى خير ، مع كل ما فيه من ثقل دم وقلة اكتراث بالآخرين . كما أن هتاف أصدقاء لبنى فى الجامعة ، مهما كان صدق شعاراته ، لا يمكن بدوره أن يؤدى إلى خير إذا لم يقترن بحب حقيقى للبلد . فما هو المطلوب عمله بالضبط ؟ إن السر لا يعرفه للأسف إلا الجد ، ولكن الجد فى حالة لا يستطيع معها الإفصاح . لقد راح فى غيبوبة وهو ينتظر ظهور «نقطة النور» . وهو الوحيد الذى يستطيع أن يشرح لنا بالضبط معنى «نقطة النور» هذه .

(٥)
سلوى بكر
عن الروح التى سرقت تدريجيا

عندما قرأت مجموعة قصصية نشرت منذ بضع سنوات للكاتبة سلوى بكر ، فتنت بأفكارها وبطريقتها فى الكتابة فبحثت عن أعمال سابقة لها ، ووجدت لها مجموعتين أخريين ، فإذ قرأتهما لم يتغير رأيى بل زاد تعلقى بأدبها ، وخطر لى أن أجلس لأكتب تفسيراً لهذا الإعجاب أملا أن يغفر لى تطفلى باقتحامى ميداناً ليس ميدانى .

كان أول ما قرأت لها قصتين إحداهما بعنوان «كل ذلك الصوت الجميل الذى يأتى من داخلها» والأخرى تحمل عنوان المجموعة القصصية بأكملها «عن الروح التى سرقت تدريجاً»، فاتضح لى على الفور أن سلوى بكر مهمومة بما نحن مهمومون به، ففى كلا القصتين تعبر عن الإحباط الذى نشعر جميعاً به ، بصورة أو بأخرى ، ولسبب أو لآخر .

فى القصة الأولى امرأة يثور فى ذهنها فجأة أمل ضعيف فى الخروج من دوامة الحياة الرتيبة والكئيبة ، وفى أن تطرح عن كاهلها العبودية للزوج والأولاد ومطالب الحياة اليومية . يثور بذهنها أمل فى أن تعيش حياتها كما تحب ، وأن تعبر عن رغباتها وأفكارها الحقيقية ، ويمر بخاطرها احتمال أن تكون جميلة ، بعكس ما كانت تعتقد دائماً ، وأن تكون ذات صوت جميل ، على الرغم من أن أحداً لم يلاحظ ذلك من قبل .

ولكن هذا بالطبع لا يجوز ولا يقبله أحد ، فزوجها ، وعيسى البقال ، وكل من يسمع قصتها ، يرجح أنها ليست فى كامل قواها العقلية ، وأنها تحتاج إلى طبيب نفسى ، وأن كل هذه الآمال التى ثارت بذهنها لبضع ساعات لا تواجه إلا بثلاث حبات يومياً من أحد الأدوية وحبة قبل النوم من دواء آخر .

والقصة التالية مباشرة ، «عن الروح التى سرقت تدريجياً» ، تتكلم أيضاً عن الإحباط الذى أخذ يتسرب إلينا جميعاً منذ أواخر الستينيات ، كما يعكسه التغير الذى لحق بزوجين شابين ، كانا ممتلئين بالأمل منذ عشرين عاماً ، ثم سرقت الروح منهما تدريجياً ، حتى انتهى الأمر بهما إلى الجلوس أمام التليفزيون كل يوم ، ليشاهدا مالا رغبة لهما فى الواقع فى مشاهدته ، وينشأ ستار يزداد كثافة يوماً بعد يوم ، ليفصل بينهما .

بمجرد أن تقرأ القصتين الأوليين تتحقق من أن سلوى بكر تنتمى إلى المعسكر نفسه الذى تنتمى أنت إليه ، وهذا فى حد ذاته سبب كاف للاغتباط ، ولكن مما يزيد غبطتك أنها عبرت عن بعض ما تشعر به بطريقة بالغة الفعالية . فسلوى بكر لا تضيع أى وقت ، تدخل فى الموضوع مباشرة ، ولا تطيل الكلام ، فقصصها لا تزيد فى معظم الأحوال على ثمانى صفحات أو عشر ، ولكنها فى هذه الصحفات القليلة تقول أشياء كثيرة .

كنت دائماً أعتقد ، ولا أزال ، أن الأدب وسيلة أكثر فعالية بكثير فى التعبير عما أصاب المجتمع المصرى من تحولات خلال العشرين عاماً الماضية ، من أى علم من العلوم الإجتماعية . شعرت بذلك مثلا عندما قرأت «أهل القمة» لنجيب محفوظ ، فوجدت أن نجيب محفوظ استطاع أن يعبر عن تغير التركيب الطبقى للمجتمع المصرى بسبب الانفتاح ، بل وحتى عن أسباب هذا التغير ، بكفاءة تفوق كفاءة أى بحث قرأته لعلماء الاجتماع المصريين . تذكرت هذا وأنا أقرأ قصة سلوى بكر «عن الروح التى سرقت تدريجياً» . إنى لا أعتبر هذه القصة من أحسن قصصها ، فربما كان التعبير عن الفكرة المقصودة منها مباشراً أكثر من اللازم ، ولكنها مع ذلك صورت تصويراً جيداً آثار سنوات الانفتاح

على حياتنا ، وفيما لا يزيد على سبع صفحات ربطت ربطاً مقنعاً جداً بين أشياء تبدو متباعدة ، مثل حريق دار الأوبرا في ١٩٧١ ، وزحف العمارات الشاهقة علينا ، وانشغال الناس أكثر فأكثر في ساعات طويلة من العمل لمواجهة تكاليف المعيشة ، وجلوس الزوجين كل مساء أمام التليفزيون لأنه لم يعد باستطاعتهما تحمل تكاليف السينما أو المسرح ، وانتظار الأتوبيس بالساعات وسط أكوام من البشر ، ومتاعب الحصول على سباك لتركيب ماسورة جديدة ، وزوال سور الأزبكية بكتبه ، وحلول اللوحات الفجة والصور الملونة تلويناً قبيحاً محله .. الخ .

هذا النقد الحاد لما أصاب نمط الحياة فى مصر من تدهور ، مادياً ومعنوياً ، كان من السهل جداً أن ينزلق معه الكاتب أو الكاتبة إلى عاطفية مصطنعة ، ولكن سلوى بكر فى رأيى ، لم تنزلق إليها ولا مرة واحدة .

أنظر مثلاً قصتها الجميلة «إحدى وثلاثون شجرة جميلة خضراء» ، حيث تعبر سلوى بكر عن هذا التدهور فى نمط الحياة المصرية بأن تروى فى ١٢ صفحة صغيرة قصة امرأة نادرة ، مرهفة الحس ، مشكلتها الوحيدة أنها لا تستطيع أن تكتم مشاعرها أو أن تقول عكس ما تشعر به . وتقنعك سلوى بكر

إقناعاً تاماً بأن هذه المرأة يمكن أن تبتئس ابتئاساً شديداً بسبب قطع أشجار الشارع الذى تسلكه كل يوم فى طريقها إلى عملها وفى عودتها منه ، وتناقص عدد الأشجار شيئاً فشيئاً من ٢١ شجرة إلى ثلاث شجرات ، تنمو بدلا منها غابة من الأسمنت والألوان الرمادية والبنية ، وتقنعك أيضاً بأن من الممكن جداً لهذه المرأة أن يعتبرها الناس مجنونة ويدخلوها مستشفى الأمراض العقلية . بدأ الناس يشكون فى اعتبارها شاذة حينما رأوها تقبل زميلاً لها فى شفتيه فى مكان عام ، قبلة سريعة وخاطفة ، استجابة لشعور عارض جداً مرت به ، ثم اكتشف رئيسها وزميلاتها في أحد الأيام أنها أتت إلى عملها دون ارتداء حمالة الصدر ، ثم أنها قامت بشراء مكتب طلبت من بائعه أن يلونه باللون الأحمر الفاقع لتتخفف من وقع اللون الرمادى المحيط بها في كل مكان . ثم إنها فى يوم الانتخابات لم تعرف كيف تميز بين المرشحين ، فصاحت بالمشرفين على عملية الانتخاب تسألهم «عن السبب فى أن معظم الوزراء عندنا قبيحو المنظر وأقفيتهم سمينة ، على نحو يجعل المرء يتشكك فى قدرتهم على فعل أى شىء نافع» .

ولكن الدليل القاطع على أنها مجنونة جاء عندما حاولت أن

تنفذ ما هددته أمها به يوماً من أن تقطع لسانها بالمقص لأن لسانها هو سبب كل المشكلات .

لقد ذكرت ثلاث قصص تنتهى كلها بالإحباط ، ولكن الحقيقة هى أن كل قصص سلوى بكر تنتهى بالإحباط وخيبة الأمل . ففى قصة «العاشقة» مثلاً ، تجد أن الممرضة فايزة لا تختلف كثيراً عن «سيدة» فى قصة «كل ذلك الصوت الجميل» ، فهى تخدم الجميع وتطاوع الجميع ، وعلى وجهها دائماً ابتسامة لا تتغير ، واللحظة الحلوة الوحيدة فى حياتها هى تلك التى تأتى إليها حين تشرع فى النوم ، فتحلم بشاب طويل جميل يحتضنها ثم تستسلم للنوم . وتجد خيبة الأمل نفسها بالطبع فى قصة «نونة الشعنونة» و«الحلم الأمريكى» و«انتظار الشمس» .. الخ .

إن ناقداً لبنانياً (حسن داوود) قال إن بطلات سلوى بكر هن فى الحقيقة «امرأة واحدة» ، وربما كان هذا صحيحاً ، ولكنى أميل إلى القول بأن المشكلة واحدة وليست المرأة ، كما أنى أصدق سلوى بكر حينما تقول إنها لا تقدم أدباً للمرأة باعتباره أدباً موجهاً ضد الرجل ، فمشكلة المرأة فى قصص سلوى بكر هى مشكلة الرجل بالقدر نفسه .

★★★

قصة «نونة الشعنونة» ، التى ربما أعتبرها أفضل قصصها ، هى قصة خادمة لم تبلغ بعد الثالثة عشرة من عمرها ، «حمارة شغل» ، على حد تعبير مخدومتها ، ولكن مخدومتها هذه زوجة الضابط ، تصفها أيضا بأنها «شعنونة» ، لأنها تنتهز كل فرصة للتنصت على ما يدور فى المدرسة المجاورة للمنزل ، حيث إن شباك المدرسة يكاد يلاصق شباك المطبخ . تحاول أن تسمع ما تقوله المدرسة للطالبات ، ولا تكف عن التفكير فيما تسمعه ، وتحاول فهمه أو حفظه ، حتى إنها عندما رأت المدرس الخصوصى يسأل الولد ، ابن مخدومتها ، عن الجذر التربيعى للخمسة والعشرين ، ولم يعرف الولد الإجابة ، ونظر إلى أمه ببلاهة ، ردت نونة على الفور بالإجابة قائلة «خمسة يا مغفل» ، وكانت هذه هى المرة الوحيدة التى صفعتها فيها مخدومتها على وجهها طوال السنوات الثلاث التى قضتها فى خدمتهم . لكننا نفهم من القصة أن نونة اختفت أو ماتت فى صباح اليوم التالى لليوم الذى جاء فيه أبوها ليأخذها معه إلى قريته ، لأنه قد تقدم لها عريس «والعريس عائد من بلاد الرسول يحمل من الفلوس ما يكفى لفرش حجرة بحالها فى بيت أمه» . إذ وقتها طب قلب نونة ، وهرب الدم من وجهها حتى أصبح بلون البفتة البيضاء ، فهى لا تريد العودة إلى البلد

أبداً ، ولا ترغب في العيش وسط الوساخة والبراغيث والناموس ، ولاترغب فى الزواج حتى لا تصبح كأخواتها مزروعة فى «الغلب» ، وإنما كانت تحلم بالمدرسة والبنات اللاتى كانت تسمع أصواتهن من شباك المطبخ .

لا أعتقد أن من الإنصاف أن ننقد سلوى بكر لمجرد أن بطلاتها دائما ينتهين إلى الإحباط وخيبة الأمل ، فالقصص والشخصيات من التنوع بدرجة كافية . ولكن ربما كان من الممكن أن نقول لسلوى بكر إن قصصك ، رغم أنها ممتعة ، يجرى أكثرها داخل جدران أربعة ، ونادراً ما تخرج بطلاتك أو أبطالك إلى الشارع . هناك مع ذلك ثلاث قصص على الأقل تجرى أحداثها فى الهواء الطلق ، هى قصة المطلقة التى يعرض عليها الزواج رجل عجوز تقابله فى الحديقة العامة ، فى قصة «انتظار الشمس»، وقصة بائعة الترمس فى «امرأة على العشب» ، وقصة قارئة البخت فى «فأر أبيض صغير» ، وكلها قصص تذكرنى بأفلام مدرسة السينما الواقعية الإيطالية التى كنا نراها فى الخمسينيات ، والتى يمتزج فيها البؤس الشديد بالسخرية والفكاهة ، وهى تصلح فى اعتقادى لإنتاج ثلاثة أفلام قصيرة جميلة ، لا تحتاج من المخرج إلى براعة شديدة أو خيال واسع ، فكل شىء مرسوم ببراعة وبكل تفاصيله .

والحقيقة أن خيبة الأمل التى تنتهى بها قصص سلوى بكر تروى بمقدار كبير جداً من خفة الدم . القصص كلها حزينة ، هذا صحيح ، ولكنها ليست ثقيلة الوطأة . ففى قصة نونة الشعنونة مثلاً ، ليس هناك فقط ذلك الموقف الطريف بين نونة وابن مخدومتها حينما تعرف هى الجذر التربيعى لخمسة وعشرين ولايعرفه هو ، فتقول له «خمسة يا مغفل» ، ولكن هناك أيضا ما سمعته مرة من خلال شباك المدرسة وشباك المطبخ ، وهو بيت شعر لأمرىء القيس يصف فيه حصانه ويقول : «له أيطلا ظبى وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل» ، فكلمة «أيطلا» (وتعنى الخاصرتين) «كانت تحير نونة جداً ، فعندما تأخذ فى ترديدها مع البنات تتوقف قليلاً عن «دعك» الصحن الذى تغسله فى الحوض ، تسأل نفسها عما يمكن أن يكون «أيطلا» هذا ، هل هو برسيم أم حلاوة طحينية أم حمار حصاوى ؟» .

كذلك عندما تصف ميمى فى قصة «لعب الورق» ، فى الخطاب الذى كتبته لمحرر القلوب التعيسة ، تشكو له من أنه ليس هناك من يريد أن يتزوجها بسبب شكلها ، تقول : «ماذا أقول لك عن شعرى الخشن الصلب الذى يجعل رأسى أشبه بقنفذ صغير ملتصق بأكتافى ، أأحدثك عن ساقى المقوستين الشبيهتين بكسارة اللوز والبندق ، أم عن بروز أضلاع صدرى التى يستطيع أى طفل صغير أن يتعلم عليها العد والحساب ؟» .

وفى قصة «انتظار الشمس» تحكى سلوى بكر قصة زوجة كرهت زوجها من أول يوم فى الزواج ، ولم تدعه يقبلها إلا مرة واحدة ، وكانت هى القبلة الأولى والأخيرة بعدها «دعكت أسنانها بالفرشاة والمعجون ، وعندما ضربها علقة سخنة «قذفته بمفتاح إنكليزى أسال دمه» .

وهناك من قصص سلوى بكر ما يشكل في الواقع نكتة كبيرة ولكنها مؤثرة جداً وإنسانية للغاية . من ذلك قصة ممتازة اسمها «مناسبة للسعادة» ، وخلاصتها أن عائلة «فوزية» كانت تستعد للذهاب إلى حفلة المدرسة التى ستتسلم فيها فوزية جائزة للتفوق ، ذهب أبوها للحلاق ، وجملت أمها حواجبها وأدخلت العيال الحمام، وكوت فوزية شعرها ، واستلفت أم فوزية معطفاً لائقاً من جارة لها ، وذبحوا للغداء ديكاً ودجاجة ، وأهدوا إلى جارتهم صينية بسبوسة ، واشتروا لفوزية حذاء جديداً ، وتمنى أخو فوزية أن تكون جائزة التفوق بندقية ، وتمنت الأم أن تكون الجائزة شيئاً مفيدا للبيت كبطانية صوف مثلا أو حتى حقيبة جلدية لفوزية توفر لهم بعض المصاريف . وعندما خرجت عائلة فوزية من البيت متجهة إلى المدرسة ، تطلعت إليهم عيون الجيران من الشبابيك والأبواب بإعجاب ، ولم يكن هناك ما يضايق فوزية إلا حذاؤها

الواسع الجديد الذى أصرت الأم على شرائه واسعاً ليظل صالحاً للاستخدام فى السنة المقبلة ، وكان الحذاء يعوق حركة فوزية رغم أن أمها حشرت فيه أربع صفحات من مجلة «آخر ساعة» .

وكان الأب سعيداً لولا شعوره بأنهم تهوروا وبالغوا فى الإسراف بهذه المناسبة ، فربما لم يكن هناك لزوم لذبح الديك والدجاجة ، ولا للبسبوسة التى كان يمكن الاستغناء عنها والاكتفاء بشاى كحلو بعد الغداء .

وفى الحفلة استمعت عائلة فوزية للسلام الجمهورى ، وتلاوة من القرآن الكريم ، وكلمة من الناظرة عن هذه المرحلة الخطيرة التى تمر بها مصر ، واستمعوا إلى أغان وطنية عن السد العالى وفلسطين . وحينما ساروا عائدين إلى البيت كانت فوزية تحمل فى يدها مصحفاً صغيراً كتب على غلافه الداخلى :

«إلى الطالبة المجدة .. بمناسبة تفوقها فى امتحان آخر العام» ، ثم اسم المربية الفاضلة ناظرة المدرسة وتوقيعها .

★★★

لا أريد أن أختم هذا الفصل دون أن أشير إلى هذا الولاء العظيم الذى تحمله سلوى بكر للعامية المصرية ، وذلك الكنز الذى تحتويه قصصها من التعبيرات العامية بالغة الجمال والتأثير ،

والتى شعرت بالخوف ، وأنا أقرأ قصص سلوى بكر ، من أن تختفى شيئاً فشيئاً من حياتنا ، إذ أن كثيراً منها لم أسمعه منذ مدة طويلة وجاءت قصص سلوى بكر لتذكرنى به . سأضرب لذلك بعض الأمثلة القليلة : فى قصة نونة الشعنونة تريد الكاتبة أن تقول إن شباك المطبخ كان قريبا جدا من شباك المدرسة فتقول «الشباك فى الشباك» ، وفى قصة أخرى تريد أن تذكر أن الطفل قضى حاجته ، دون أن يخلع ثيابه ، فتقول إن الطفل «مبلل وعاملها على نفسه» ، وتصف اليوم الذى لا تجد فيه وقتا لما تريد أن تفعله بأنه يوم «معفرت» ، وبدلاً من أن تقول «قالت لنفسها» تكتب «قالت لروحها» ، وتصف انتهاء الموضوع بأنه «أصبح فى خبر كان» ، وهكذا .

لا أظن أننى من الآن فصاعدا يمكن أن أجد قصة سلوى بكر فى مجلة أو كتاب دون أن أقبل بلهفة على قراءتها .

(٦)
سلوى بكر
ليـــل نهـــار

عندما تقرأ رواية سلوى بكر «ليل نهار» ، التى نشرتها (دار الهلال ، مارس ٩٧) تتبين أنها ليست فقط قصاصة ماهرة ، إذ تجذبك الرواية من أول سطر فلا تتركها حتى تنتهى منها ، وليست فقط متحدثة خفيفة الروح ، ترى الجانب المضحك حتى فى الموقف المأساوى ، وليست فقط صاحبة موقف سديد من اللغة العربية والعامية ، فتمزج بينهما مزجا أراه موفقا للغاية ، فلا تضحى بقوة التعبير والصدق التام اللذين تملكهما العامية بحكم أنها هى اللغة التى نتكلم ونفكر بها بالفعل ، ولكنها لا تضحى أيضا بوقار الفصحى وجمالها المستمدين من عراقة هذه اللغة وارتباطها بأدب راق له تاريخ عظيم .

كل هذا نعرفه من قصصها السابقة ، القصيرة والطويلة ، كما عرفنا درايتها الوثيقة بنوع حياة المصريين العاديين وسلوكهم (كما

يظهر على الأخص فى روايتها : «العربية الذهبية لا تصعد إلى السماء» وحساسيتها للمشاكل الاجتماعية التي يعانون منها كما في روايتها البديعة «أرانب» مثلا، بل وقدرتها على الانتقال إلى مستوى مختلف تماما من العواطف الإنسانية ، التى لا تتعلق بالمشكلة الاجتماعية بل بالضعف الإنسانى بوجه عام ، كما فى روايتها الرقيقة القصيرة «وصف البلبل» . ولكن روايتها الأخيرة «ليل نهار» ، وإن تضمنت شيئا من هذا كله، تتعلق بقضية مختلفة تماما . فالقضية هذه المرة تتعلق بمجمل المعضلة المصرية ، وإن استخدمت سلوى بكر لاستدراج القارىء إلى مواجهة هذه الحقيقة الكئيبة ، حيلة لطيفة لا يضيق القارئ منها حتى يكتشف أنه يقف أمام المعضلة المصرية بكل أبعادها ، وأن عليه أن يفكر فيها على نحو جدى .

فالقصة تبدو لأول وهلة ، بل وطوال الرحلة تقريبا ، وكأنها قصة عادية لمحررة بسيطة فى مجلة فاشلة هى «ليل نهار» .. صحيح أن هذه المحررة (وهى بطلة القصة وراويتها) امرأة ذكية ، قوية الشخصية وذات حس أخلاقى قوى ، ترفض الرضوخ لمطالب رئيس حقير لها فى المجلة ، تحتقره احتقاراً تاما ، وتعرف تمام

المعرفة افتقاده لأى حس أخلاقى وأى شعور بالولاء لأى شىء إلا نفسه . هذا صحيح ، ولكن مصر مليئة ، فيما أتصور ، بهذا النوع من النساء والرجال المقهورين لهذا السبب نفسه ، والذين يواجهون يوميا متاعب لا حد لها ، لهذا السبب أيضا ، إذ أن قدرتهم على الالتواء والمداهنة ضعيفة للغاية واستعدادهم لبيع أنفسهم منعدم ، ولكن هذه المحررة البسيطة التى تكابد مشاكل الحياة اليومية بشجاعة ، متحملة أثناء ذلك أعباء رعاية أمها التى تقيم معها ، وتحلم دون جدوى بلقاء رجل تحترمه يخفف عنها من ثقل هذه الأعباء ، فتصادف من الرجال من يخيبون أملها ، الواحد بعد الآخر ، هذه المحررة البسيطة فى مجلة «ليل نهار» تضعها ظروف عملها فجأة وجها لوجه أمام الرجل الذى كانت تحلم به : رجل صادق ووسيم وجذاب وثرى . ويكاد القدر أن يبتسم لها ويضع حدا لمشاكلها ، إذ تكتشف أن الرجل يحمل نحوها نفس المشاعر وتكاد المسألة أن تنتهى نهاية سعيدة للغاية . ولكن الأمر ليس بهذه البساطة ، فالمسألة المصرية تتدخل فى الموضوع وتفسده . فما هى هذه «المسألة المصرية» ؟ إنها ببساطة كل ما يفكر فيه المثقفون المصريون اليوم مجتمعاً : ضعف الانتماء ،

الفساد ، الانقسام الطبقي الحاد ، النفاق السياسى ، اليأس من أى إصـــلاح ، الشـــعـــور بقلة الحـــيلة ، انصــــراف الناس إلى مشروعاتهم الفردية الصغيرة ، تضارب المصالح الخاصة بعضها ببعض، وضعف الارتباط بأى قضية عامة .. الخ .

كان لابد أن تفسد هذه المسألة المصرية المشروع الخاص والعام لهذه الصحفية البائسة .

★★★

هذا هو القدر المتيقن من هذه الرواية الجميلة لسلوى بكر ولكن من المؤكد أن القراء سوف يستخلصون منها أشياء أخرى كثيرة ، فهى على صغر حجمها غنية بالايحاءات المتعلقة بهذه «المسألة المصرية» . وسوف يكتشف القارىء أن الرواية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالمناخ الاجتماعى والثقافى الذى يعيشه المصريون اليوم ، وأن سلوى بكر قد استخدمت موهبتها للتعبير بطريقتها الخاصة عن هذا المناخ فنجحت فى رأيى نجاحاً باهراً .

(٧)
علاء الأسوانى
جمعية منتظرى الزعيم

هذه مجموعة متميزة جدا من القصص القصيرة (جمعية منتظرى الزعيم ، للدكتور علاء الاسوانى ، الاصدار الأول من إصدارات «الكتاب» ، القاهرة ١٩٩٧) ، وما أن انتهيت من قراءتها حتى شعرت بأننى يجب أن أكتب عنها حتى يلتفت إليها من لم يلتفت .

ذلك أن القصص القصيرة الجميلة التى يكتبها الآن عدد لايستهان به من القصصيين المصريين ، كثيرة لحسن الحظ ، ولكن هناك شيئا فى هذه المجموعة يجعلها متميزة حقا ، ويثير البهجة والأمل فى النفس بأن قصصيا مصرياً عظيما يمكن عن قريب أن يحتل المكانة التى تركها يوسف إدريس .

طبعا القصص مشوقه منذ أول سطر ، كما يجب أن تكون القصة القصيرة ، وعلى الأخص القصص القصيرة جدا مثل

معظم قصص علاء الأسواني . فهذا الشرط المهم متوفر فى جميع قصصه . وهو أيضا كاتب حقيقى وليس مزيفا ، بمعنى أنه لا يلقى الكلام على عواهنه ، أو يحمـله أكثر مما يحتمل ، أو يتقعر أو يصطنع أو يخترع العواطف اختراعا . وهو لا يبدأ القصة إلا ولديه فكرة محددة ، يعرف الموضوع تماما قبل أن يخط خطا واحدا ، ويعرف هدفه وما يريد أن يقوله للقارىء . ناهيك عن خلو الكلام من أية بذاءة أو محاولة متعمدة للإثارة . فهو لا يعتمد على قلة الأدب والتجرؤ الزائف على ما يتمتع باحترام عام لفتاً للأنظار، كما لا يعتمد على الجنس لإثارة الاهتمام . الجنس موجود ، ولكن بأدب وبشكل طبيعى جدا ودون انكشاف مبتذل ، تماما كما هو موجود فى حياتنا العادية . كل هذا مفروغ منه ولا يحتاج حتى إلى الثناء والتقريظ ، إذ أن كل هذا لابد أن يعتبر شرطا من شروط اعتبار العمل عملا أدبيا بل عملا يلتفت إليه أصلا .

المدهش والمثير للإعجاب والسرور حقا هو بعض السمات المميزة لمعظم قصص هذه المجموعة ، والتى لم أجدها فى معظم ما قرأت من قصص قصيرة خلال سنوات كثيرة ماضية ، أهمها هذا التعاطف الرائع مع الأوجه المختلفة للضعف الإنسانى . وهى أوجه ضعف موجودة فينا جميعا ، بدرجات متفاوتة حقا ولكنها موجو

دون أدنى شك ، كضعفنا أمام اقتراب الموت والشيخوخة بل ومجرد مرور الزمن (كما فى آخر قصة فى المجموعة : «مدام زتامنديس : صورة أخيرة») ، أو حاجتنا الممضة إلى رضا الآخرين عنا (كما فى قصة «حصة الألعاب») أو ميلنا إلى القسوة مع من كان أضعف منا ، واستعذابنا لممارسة هذه القسوة معه (كما فى نفس القصة السابقة وكذلك فى قصة «نظرة إلى وجه ناجى») ، أو ضعفنا أمام ملذاتنا الحسية حتى فى أشد الظروف مدعاة إلى الانصراف إلى شىء آخر أو للتفكير فى أشياء أكثر سموا (كما فى قصة «أحزان الحاج أحمد») ، أو ضعفنا إلى درجة تثير التقزز أحيانا أمام جمع المال ، مع محاولتنا التظاهر بغير ذلك (كما فى قصة «أختى الحبيبة مكارم») ، أو بؤسنا المثير للاشفاق الشديد إذا أقعدنا المرض أو فقدنا لقدرة من القدرات الجسمانية فعجزنا عن مجاراة الآخرين فيما يفعلون (كما فى قصة «عزت أمين اسكندر») أو الذل الكامل الذى يجلبه الفقر والعوز المادى (كما فى قصتى «كلاب بوكسر : جميع الألوان» ، و«لماذا يا سيد ؟ : سؤال») .

القصتان الباقيتان من المجموعة ، ممتازتان أيضا ، ولكنهما من نوع مختلف إحداهما (فستان قديم وغطاء للرأس) موضوعها

المعنى الحقيقى للشرف (أو هكذا فهمتها) ، عن طريق إجراء مفارقة بين فتاتين : فتاة شريفة حقا ولكن المجتمع لا يعتبرها كذلك ، والأخرى لها كل السمات الخارجية للشرف دون أن تكون طاهرة النفس فى الحقيقة . والقصة الأخرى (جميعة منتظرى الزعيم) ، وهى التى تسمى المجموعة كلها باسمها ، هى القصة الوحيدة فى المجموعة ذات المغزى السياسى (أو هكذا فهمتها) ، فتصف أحلام سياسى نزيه يحلم بعودة أيام جميلة مضت حينما كان زعيمه الوطنى المحبوب لا يزال حيا .

القصص العشر كلها لا تملأ أكثر من مائة صفحة صغيرة ولكنها تترك أثرا فى نفسك لا يمكن التقليل من شأنه . بل إن بعضها (مثل قصة «عزت أمين اسكندر» أو قصة «مدام زتامنديس» أو قصة «أختى الحبيبة مكارم» .أو قصة «حصة الألعاب») لا أظن أن من الممكن لى أن أنساها . فالصور الأربع التى ترسمها هذه القصص ، صور مبتكرة جدا ومرسومة بعناية فائقة وبتفاصيل حية للغاية ، ولكن الأهم من هذا كله أنها تتغلغل إلى أعماق النفس البشرية فى أربع شخصيات مختلفة أشد الاختلاف : شخصية تلميذ قبطى فقد إحدى ساقيه ويحلم بركوب الدراجة مثل صديق له ، وشخصية راقصة كانت جميلة عندما

رآها القاص وهو تلميذ صغير حين كانت عشيقة لأبيه ، ثم رآها مرة أخرى بعد مرور خمسة وثلاثين عاما بعد أن ذهب جمالها وأصبحت عجوزا تنتظر الموت ولكنها لازالت تذكر ، ولو بصعوبة ، أيام الشباب الموغلة فى القدم ، ثم شخصية رجل سافر لجمع المال فى إحدى دول الخليج ، وموقفه عندما تطلب منه أخته المساعدة فى تحمل نفقات أمهما المريضة ، وأخيرا شخصية تلميذ مفرط فى البدانة ، يخجل من ارتداء ملابس الرياضة ثم يجبره المدرس على ذلك ، فيشبعه زملاؤه سخرية واستهزاء وبقسوة منقطعة النظير ، فيحاول أن يحمى نفسه فى البداية بأن يشترك معهم فى الضحك وكأنه يستهزىء هو أيضا ببدانته ، ولكن عندما تشتد قسوة التلاميذ عليه ، ويمعنون فى إذلاله ، يجلس ويجهش بالبكاء .

★★★

سألت نفسى عن سر هذا التأثير القوى الذى أحدثته هذه القصص فىّ ، وعن سبب اعتقادى أن بعض هذه القصص قد يبقى فى ذهنى لمدة طويلة جدا فلا يمكن نسيانه بسهولة ، مثل بعض قصص يوسف إدريس العظيمة ، أو بعض من أجمل قصص تشيكوف ، كقصة تشيكوف عن الموظف الصغير الذى قاده حظه العاثر إلى الجلوس وراء رئيسه فى المسرح ، وأطلق

«عطسة» رغما عنه ظن أنها أصابت قفا رئيسه ببعض الرزاز ، فظل يعذب نفسه ويؤنبها ، ويعتذر لرئيسه المرة بعد المرة ، حتى ضاق رئيسه به ذرعا ، وتنتهي القصة بانتحاره . كيف يمكن لك أن تنسى هذه القصة لتشيكوف ؟ ولكن كيف لي أيضا أن أنسى أيا من هذه القصص الأربع التي ذكرتها لك من قصص علاء الأسواني ؟

إن السبب في رأيي واحد . هذه وتلك قصص لا تنسى لأنها تنفذ إلى أعماق النفس البشرية فتلمس شيئا موجودا فينا جميعا (ولو بدرجات متفاوتة) ولكنها تستخرجه وتكبره حتى يصبح واضحا وضوح الشمس ، فإذا بنا نجد أنفسنا وجها لوجه مع بعض من أكثر نوازعنا الطبيعية قوة وسلطانا : من أشدها رقة إلى أكثرها سفالة .

(٨)
علاء الأسوانى
عمـارة يعقـوبيـــان

فى رواية عـلاء الأسـوانى البـديعـة «عـمـارة يعقـوبيـان – دار ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠٠٢» أربع قصص متوازنة: قصة طه الشاذلى ابن البواب مع خطيبته بثينة، وقصة زكى بك الدسوقى، سليل الأسرة الوفدية العريقة، مع أخته دولت، وقصة حاتم رشيد، الصحفى اللامع والشاذ جنسيا مع صديقه الصعيدى عبدربه، ثم قصة الحاج عزام الذى بدأ حياته ماسحا للأحذية ثم صار أحد أكبر أثرياء مصر وعضوا فى مجلس الشعب ولازال يطمح فى المزيد.

الجميع يسكنون عمارة يعقوبيان فى وسط القاهرة، إما فى إحدى شققها الفاخرة، أو فى إحدى غرفها فوق السطوح، والمؤلف يتنقل من قصة لأخرى، يترك إحدى القصص الأربع فجأة، وأنت فى أشد الشوق إلى معرفة بقيتها، ليواصل أحداث قصة أخرى، ثم يعود لمواصلة الأولى وهكذا.

عنصر التشويق إذن موجود من أول صفحة ولا ينتهى إلا بانتهاء الرواية، بل ولا ينتهى حتى بانتهائها. اذ يترك المؤلف بعض القصص مفتوحة لأكثر من احتمال، اعتقادا منه، وأظنه على حق، بأنه قد حكى من كل قصة من القصص ما يكفى لتمكين القارئ من تخمين ما سيحدث، وحتى اذا اختلفت بعض التخمينات فليس لهذا الاختلاف أهمية فى الحقيقة، فمغزى الرواية فى جميع الأحوال واضح وضوحا كافيا.

سألت نفسى بعد أن قرأت من الرواية أكثر من نصفها، كيف استطاع المؤلف أن يحتفظ للرواية بوحدتها، بحيث يشعر القارئ بأنه يقرأ قصة واحدة لا أربع قصص، مع أن شخصيات كل قصة لا تتداخل بالمرة مع شخصيات القصص الأخرى، باستثناء شخصية بثينة التى تدخل فى قصة طه الشاذلى، باعتبارها خطيبته وحبيبته، ثم تدخل فى قصة زكى بك الدسوقى فى صورة سكرتيرته ثم عشيقته؟ باستثناء شخصية بثينة، كل من القصص الأربع مستقلة تماما عن بقية القصص، صحيح أن كل الشخصيات تسكن عمارة يعقوبيان، ولكن هذا الاشتراك فى سكنى عمارة واحدة لا يؤثر إلا تأثيرا طفيفا للغاية على مسار أى قصة منها. ومع ذلك فالقارئ يقرأ القصص الأربع كما لو كان

يقرأ قصة واحدة، وهو اذ يترك إحداها ليواصل أحداث قصة أخرى، لا يكون كمن ترك كتابا قبل أن يتمه ليقرأ فى كتاب أخر. القصص أربع ولكن الرواية واحدة ، وكأننا بصدد عدة أعضاء من نفس الجسم.

كانت الاجابة التى ارتحت إليها لتفسير هذه الوحدة فى الرواية رغم تعدد القصص، هى أن القصص كلها واحدة فى الهم. المأساة واحدة وإن كانت تتخذ صورا مختلفة، والسبب الأصلى لمأساة كل من أبطالها يكاد يكون هو دائماً نفس السبب. ومن ثم فأنت اذ تنتقل من قصة لأخرى لا تغادر المأساة ، وكل من القصص تدعم وتؤكد فهمك لذلك السبب الكامن وراءها جميعا.

قد تقول ما وجه الشبه بين مشكلة زكى بك الدسوقى، الرجل الثرى الذى يحاول قتل الفراغ بمضاجعة النساء، وبين مشكلة طه الشاذلى ابن البواب الفقير الذى يفشل فى دخول كلية الشرطة ، أو بين هذه وتلك وبين مشكلة الحاج عزام الذى يحاول أن يشبع نهما لا نهاية له إلى المزيد ثم المزيد من المال والنفوذ؟ وأخيرا ما الشبه بين هذه المشكلات الثلاث ومشكلة حاتم رشاد التى تنحصر فى محاولة الاحتفاظ بعشيق دائم له؟

يتبين وجه الشبه، والعلاقة الوثيقة بين المشكلات الأربع، متى تبينا السبب الذى أفشل محاولات الجميع لحل مشكلاتهم، فإذا به

سـبب واحـد، السـبب الذى حـرم طه الشـاذلى من دخـول كليـة الشرطة، ثـم حرمه من مـحبوبته وخطيبته الجميلة بثينة، ثم دفع به إلى الانضـمام إلي جمـاعة من الجمـاعات المتطرفة، ثم انتـهى به نهاية مـأساوية، هذا السبب هـو نفسـه الذي خرب عـلاقة زكى بك الدسوقى بشـقيقته ومـحبوبته القديمة دولت، إلي أن أصبـحت أقرب إلى علاقة سلب ونهب وانتهت بهما إلى أقسام البوليس والمحاكم. وهو نفس السـبب الذى أفسد حـياة عبد ربه الصـعيدى الطيب والمحب لزوجـتـه وابنه، وانتـهى بـه إلي ارتكاب جـريمة قـتل حـاتم رشيد ، وأخيراً فإن نفس هذا السـبب هو الذى أفسد حيـاة الشابة الجميلة سـعـاد مرتين، مرة عندمـا فقدت زوجـهـا الذى سافر إلي العراق بحثا عن عمل، ومرة عندما اعتدى عليها الحاج عزام اعتداء وحشيا ثم طلقها وطردها شر طردة.

السـبب واحـد، وسـوف يكـتـشـفـه القارئ بسـهـولة، ولكن الذي سوف يدفعه بلاشك إلى الكثيـر من التفكير هو أن هذا السـبب الواحـد الذى يكمن وراء هذه المآسى الأربع هـو نفسـه الذى يكمن وراء المأساة المصرية بصفة عامة.

بهـذا المعنى إذن تتـحـول رواية عـلاء الأسـوانى إلي رواية سياسية بامتيـاز، صـحيح أن من الممكن للقارئ الاستـمتـاع بها

حتى ولو لم يكن لديه أدنى اهتمام بالسياسة، ولم يكن له أى قدر من الوعي السياسى أو المعرفة بما يدور فى الحياة اليومية للمصريين، ولكن علاء الأسوانى يعرف ويفهم ما يدور فى الحياة اليومية للمصريين بدرجة مبهرة حقا وداعية للاعجاب، كما أن وعيه السياسي، كما يظهر بجلاء، على أعلى درجة من الحدة والذكاء، وهذا هو الذي يجعل من قراءة هذه الرواية للمهتمين بالحياة السياسية والاجتماعية المصرية، متعة فكرية اضافية ومصدرا للتفكير الخصب فى الأحوال المصرية..

ولكنى أريد بالإضافة إلى ذلك أن ألفت نظر القارئ إلى فضيلة أخرى رائعة تتحلى بها الرواية، ولا تتوفر فى بعض من أكثر الروايات جمالا وجاذبية، مصرية أو أجنبية، وأقصد بها نجاح الكاتب فى أن يبين بقدر عال من الوضوح، الظروف التي دفعت كل شخصية من شخصيات الرواية إلى التصرف على النحو الذى تصرفت به ، مهما بدا هذا التصرف غريبا، أو شاذا أو ممعنا فى لا أخلاقيته أو اجرامه، فإذا بك، وقد عرفت هذه الظروف وما ولدته من مشاعر، تصبح قريبا جداً من الصفح والعفو. فلا يكاد يبقى شخص واحد من أشخاص الرواية لا يحظى من القارئ بالعطف، مهما كانت درجة القسوة أو الغرابة فيما ارتكبوه من أعمال .

والرواية بهذا تحقق نجاحاً آخر يضاف إلي نجاحها فى وصف الحالة المصرية. فهى بهذا تقترب اقترابا مثيراً للاعجاب من أن تكون وصفا للحالة الإنسانية بوجه عام. ومن ثم يجد القارئ أنه قد حظى بكسب إضافى من قراءته للرواية، لا صلة له بمصر بالذات، ولكنه وثيق الصلة بالإنسان فى أى مكان، وهكذا تصبح عمارة يعقوبيان أكثر من مجرد عمارة في وسط القاهرة، تتكون من بعض الشقق الفاخرة وغرف فوق السطح، بل تصبح أقرب إلي نموذج لأى عمارة، تبنيها أى جماعة من الناس، أيا كانت أجناسهم والوانهم، ليلتقوا فيها بمن يحبون، فيقضون فيها بعض اللحظات السعيدة القصيرة، ويطلقون فيها بعض الضحكات، قبل أن يذرفوا فيها الكثير من الدموع.

(٩)
لطيفة الزيات
البــــاب المفتــــوح

عرفت الدكتورة لطيفة الزيات معرفة عابرة عندما كنت أحضر بعض الاجتماعات القليلة لجمعية الدفاع عن الثقافة الوطنية بدعوة كريمة منها. وفي المرات القليلة التي قابلتها فيها وجدتها شخصية ودود ومجاملة، وقد حمدت لها دائماً التزامها المخلص بقضية الدفاع عن الثقافة الوطنية وانتصارها للقضية الفلسطينية، ونشاطها المستمر في خدمة هذه القضية ولكنى لم أحظ للأسف بأى فرصة لتبادل حديث طويل معها.

وعندما صدرت لها مجموعة من القصص القصيرة وسيرة ذاتية قصيرة بعنوان «حملة تفتيش في أوراق شخصية» قرأت بعض هذه القصص وقرأت السيرة الذاتية فتأكد لى انطباعى الطيب الذى تكوّن من مقابلتي الشخصية معها، وإن كنت لم أتعاطف مع ما قرأت بنفس الدرجة التى أبداها الكثيرون من النقاد اليساريين الذين كان معظمهم على معرفة شخصية وثيقة

بها . وكنت دائماً أشعر ببعض التحفظ الممزوج بالدهشة ازاء زواجها من المرحوم الدكتور رشاد رشدى واستمرار هذا الزواج ثلاثة عشر عاما، وهي المناضلة ذات التاريخ السياسي المشرف، وهو من هو، الذى لعب دورا فى الحياة الثقافية فى مصر فى فترة حكم السادات، لم يكن فى رأيى ورأى الكثيرين دورا مشرفا. وقد اعترفت د.لطيفة فى سيرتها الذاتية بأن صبرها الطويل عليه لم يكن وراءه إلا اعتبارات أنثوية . ثم قرأت مدحاً متكرراً لهذه السيرة الذاتية من جانب المهتمين بأدب الدكتورة لطيفة، مؤكدين بوجه خاص على صراحتها فى الاعتراف بأخطائها. وقد استغربت هذا أيضاً ، إذ كنت أظن أن الأفضل من الصراحة فى الاعتراف بالخطأ عدم ارتكاب الخطأ أصلاً.

وعندما توفيت الدكتورة لطيفة الزيات ، لفت نظرى أيضاً حجم الثناء الذى عبر عنه الكثيرون، ليس فقط فيما يتعلق بشخصيتها أو التزامها الوطنى ولكن أيضاً فيما يتعلق بأدبها، وعلى الأخص روايتها الأولى «الباب المفتوح»، التى صدرت فى أوائل الستينات، ثم أعادت نشرها هيئة الكتاب فى ١٩٨٩، وأخرجت فى فيلم سينمائى. وكنت أعرف من تجربتى الشخصية ما يؤيد كل هذا الثناء على شخصية الدكتورة لطيفة، كما ذكرت، وعلى التزامها

الوطنى. أما مكانتها كأديبة فلم يكم لدى دليل واضح من القليل الذى قرأته لها، ومن ثم تشوقت إلى قراءة رواية الباب المفتوح بعد كل ما كيل لها من مديح، وعلى الأخص بعد أن أصدرت نخبة ممتازة من النقاد الأدبيين فى مصر قرارها بعد وفاتها مباشرة بمنح هذه الرواية جائزة نجيب محفوظ بالاشتراك مع رواية «البلدة الأخرى» لإبراهيم عبدالمجيد، وهى الجائزة التى انشأتها الجامعة الأمريكية بالقاهرة لروايات عربية، حيث يمنح صاحب الجائزة مبلغا ماليا رمزيا وتقوم الجامعة بتمويل ترجمة الرواية إلي الإنجليزية كما تقوم بنشرها. وكانت الدكتورة لطيفة والاستاذ إبراهيم عبدالمجيد هما أول من حصل على هذه الجائزة . تشوقت إذن إلى أن أقرأ رواية «الباب المفتوح» فقرأتها ، وأصارح القارئ بأننى، على الرغم مما بالرواية من مزايا متعددة، شعرت بأن ما كنت أخشاه قد ظهرت صحته، وهو أن شخصية الدكتورة لطيفة المحبوبة، وتقدير الكثيرين لها لالتزامها السياسى وانتمائها الأيديولوجى، قد طغى على النقد الموضوعى للرواية كعمل أدبى، كما حدث للأسف فى أكثر من حالة فى ميدان الكتابة الأدبية فى مصر، فأصدروا حكماً على هذه الرواية يتميز بالأفراط فى المجاملة، فى حين أن التقدير غير المتميز للرواية لابد أن يكشف عن نقاط ضعف ليس من المصلحة إخفاؤها.

أقول هذا رغم أنى قرأت الرواية بشغف، ولم أشعر بالملل إلا فى أجزاء قليلة منها، ومع ذلك فقد وجدت الرواية تعانى من بعض نقاط الضعف التى لا يستهان بها.

فالمحور الذى تدور عليه القصة يمكن وصفه بأنه خفيف الوزن. فهى باختصار قصة فتاة تبحث عن الحب فتصادف بعض المعجبين بها، المتفاوتين فى مدى إخلاصهم وحبهم الحقيقى لها، وفى قوة شعورهم الوطنى وفى درجة ثقتهم بأنفسهم وصدقهم. فيخيب أملها بشدة فى أحدهم، وتخضع لفترة ما لتأثير شخص آخر منهم، وذلك قبل أن تقرر فى النهاية ألا تهب نفسها إلا لأفضلهم، الذي يتصادف أيضاً أن يكون أكثرهم صدقا فى حبه لها وأكثرهم وطنية فى نفس الوقت.

هذه هى القصة باختصار كما قرأتها، ولهذا السبب أصفها بأنها خفيفة الوزن، فهى لا تعالج مشكلة عويصة من الزاوية الاجتماعية أو الاخلاقية أو الفلسفية. المشكلة واضحة وحلها واضح واحتمال الاختلاف حولها لا يكاد أن يكون له وجود. ليس من المستساغ إذن أن تصور القصة كما حاول كثير من النقاد المتحمسين لها، وكأنها انتصار رائع للحرية أو لحرية المرأة بالذات واستقلالها.. الخ أو أنها رائدة ريادة باهرة فى هذا المجال،

صحيح أن الفتاة تتصدى احيانا لإرادة والدها الدكتاتور المتسلط، والذى يميز تمييزا صارخا ومعيبا للغاية فى معاملته بين الذكر والأنثى ، ولكن شخصية الأب فى الرواية شخصية كريهة ومنفرة، والوقوف ضدها لا يحتاج إلى شجاعة نادرة ولا إلى بطولة غير عادية أو ذكاء خاص.

بل إن ليلى «بطلة القصة» لم تتصد له إلا قليلاً، ونادراً ما جابهته مجابهة صريحة، بل وخضعت لإرادته فى أمر مهم جداً، عندما قبلت عرض الزواج من أستاذ الجامعة الذى تكرهه. ليس فى الأمر إذن بطولة غير عادية، كما أن الصراع نفسه صراع قديم، والانتصار فيه لا يعتبر تجديداً أو ريادة، فالأمر لا يزيد على إصرار البنت على الزواج ممن تحب، وهو أمر قديم يرجع إلى أيام عنتر وعبلة ، ويقبله أى عاقل عبر مختلف العصور والأمم.

أما ربط القصة الشخصية بتاريخ القضة الوطنية فى مصر فهو ربط سطحى لدرجة بعيدة، ويمتلئ بالعبارات المفرطة فى عاطفيتها بل والانشائية أحيانا، مما يجعل القارئ أميل إلى القفز فوق هذه الأجزاء من السرد بدلا من التعاطف والتجاوب معها.

الرواية لا بأس بها، فأنت تتم قراءتها دون عناء، وحوارها فى معظمه ذكى وخفيف الروح، ولكنها كما حاولت أن أبين، ليست

رواية عظيـمـة بأى حـال من الأحـوال، ولا يمكن أن توضع فى مصـاف الروايات المـتـازة حـقـا فى أدبنا العربى الحـديث، بل ولا حتى فى مـصـاف بعض روايات الجيل الأصـغـر سنا بكثـيـر من الدكتورة لطيفة الزيات. ولا أشك فى أن جزءاً كثيراً من الثناء الذى حظيت به الرواية يعود إلى مودّة خاصة يشعر بها لفيف مؤثر من ناقدينا الأدبيين ، يحـبون الدكتورة لطيفة حبا شديداً، ولهم نفس انتمائها الأيديولوجى، وهو أمر كان يجدر بهم فى رأيى أن يحولوا بينه وبين ما يصدرونه من أحكام أدبية.

(١٠)
سمير غريب على الصقار

– ١ –

عندما نشر الأستاذ فهمي هويدى مقالا يشكو فيه من كتاب نشرته هيئة حكومية، هى الهيئة العامة للكتاب، إذ وجده يحتوى على عبارات تتكلم عن القرآن الكريم وبعض المقدسات الدينية ببذاءة وبطريقة خالية تماما من الأدب، لم أكن أتصور أن يكون رد الفعل لهذا المقال بهذه الشدة. لقد وجدت موقف الاستاذ هويدى طبيعيا ومفهوما تماما. رجل مثل ملايين من المسلمين، يغضبه ويؤلمه أن يجد معتقداته تعامل هذه المعاملة، فيجد من واجبه أن يحتج، ولا يدور بخلده أدنى شك فى أن واحدا من واجبات الدولة . أى دولة، أن تحميه وتحمى أمثاله من مثل هذا الاعتداء . إذ لماذا قامت الدولة أصلا إن لم يكن لهذا؟ فالكلمة الجارحة قد تكون أشد إيذاء من الرصاصة، وحرية الفرد فى الكتابة لابد أن يكون لها حدود مثلها مثل حرية الفرد فى إطلاق الرصاص على الناس.

ولايمكن لعاقل قط أن يذهب إلى حد الظن بأن هناك، فى أى زمان ومكان، شئ أسمه الحرية المطلقة. حتى فى شريعة الغاب: الذى يخرج على ما تعتبره الجماعة مقدسا توقفه الجماعة عند حده، والمفروض أنه فى المجتمع المتمدين تقوم الدولة بمهمة التأديب اللازم لمن يؤذى الشعور العام.

فماذا فعل المثقفون المصريون؟ انهالوا على فهمى هويدى سباً وتشنيعاً، وكأنه هو الذى ارتكب الجرم الأصلى. اتهموه بأنه يستعدى الدولة على المثقفين، وبأنه يقيم من نفسه سلطة للتفتيش فى الضمائر، وأنه يعتدى على حق الفرد فى التعبير عن نفسه بدون قيود ويهدد حرية الإبداع.. الخ . واشترك فى هذا الصراخ والعويل كل من كنا نتوقع منهم ذلك، ممن نصبوا أنفسهم حماة وحراساً لحرية ما يسمونه بالإبداع، وهو شىء تنطوى تحته، فيما يظهر، أى محاولة لكاتب، سواء كان صاحب موهبة أو خاليا من أى أثر لها، مادم يتطاول على الدين.

ومن هؤلاء المثقفين المدافعين عن الإبداع، من قال إنه لم يقرأ الرواية موضوع الحديث ولكنه لا يشك مع ذلك فى حق الكاتب فى كذا وكذا، إلى آخر هذه الأسطوانة المعروفة عن حق الإنسان فى التعبير عن نفسه بدون أى قيد أو شرط.

وقد لاحظت فى السنوات الأخيرة أن معظم هؤلاء المثقفين

الذين يهبون للدفاع عن «حرية الإبداع»، مهما كانت ضحالة العمل «المبتدع» وسخافته، يجتمع فيهم عدد من الصفات. فمعظمهم يحظى برضا الدولة ويحتل مراكز رسمية مجزية للغاية من الناحية المادية، فمنهم من يحتل مناصب رسمية عالية فى أجهزة الثقافة، وكثير منهم ضيوف ثابتون فى أجهزة الإعلام الرسمية، يطلب رأيهم باستمرار فى أى موضوع ثقافى أو حتى سياسى، فى التليفزيون وغيره، وهم أيضاً مدعوون دائمون لمقابلة الرئيس فى معرض الكتاب، ويسمح لهم بالحق دون غيرهم فى توجيه الأسئلة للرئيس، أسئلة كثيراً ما يبدو أنها معدة سلفا وجرت إجازتها قبل توجيهها.

طبعاً إن كل هذا ليس بذاته دليلا على أنهم على خطأ فى هذه القضية بالذات، ولكنه شئ يثير الشك على الأقل فى أنهم غير مخلصين تماما فى هذا الموقف. ذلك أن الذى يتحمس لهذه الدرجة لحرية التعبير لابد أن يلاحظ ما تفعله الدولة فى تقييد هذه الحرية. فإذا قبل عن طيب خاطر ما تفرضه الدولة من قيود شديدة على هذه الحرية، وثار ثورة عارمة على محاولة كاتب فرد أن يقيد حرية كاتب تجاوز الحدود فى استخدام هذه الحرية، فلابد أن يكون للمرء الشك فى أن الموقف ليس طاهراً مائة بالمائة.

من هؤلاء الثائرين على الاستاذ فهمى هويدى أيضاً، كتاب

يساريون عرفوا طوال تاريخهم بالانتصار للاشتراكية، بل ولنوع معين من الاشتراكية له موقف معروف من قضية حرية التعبير، فيضع لها قيودا عنيفة ولا يقبل بأية حال الفصل بين حق التعبير ونوع الكلام الذى يعبر عنه . فيربطون الحرية بالموضوع، ويسمحون بالحرية إذا كان الكلام فى صالح «الشعب» ولا يسمحون بها إذا كانت ضد مصلحة «الشعب»، وانفقوا الجزء الأكبر من عمرهم فى تعليم الناس أنه ليس هناك شئ اسمه «حرية مطلقة» بل وسخروا بشدة ممن يقول بهذا، ونعتوه بأنه «لا علمى، ولا تاريخى».... الخ، وميزوا تمييزا صارما بين الحرية فى ظل الرأسمالية والحرية فى ظل الاشتراكية، ودافعوا دفاعاً مستميتا ضد نظرية الفن للفن، وضد حرية الأديب فى أن يقول ما يشاء أيا كان موقفه الطبقى.. إلى آخر ما نعرفه جميعاً. فانقلابهم على هذا النحو للدفاع عن الحرية المطلقة فى التعبير لابد أن يثير هو أيضاً الشك فى إخلاص هؤلاء للحرية.

ومن المؤسف للغاية أن هؤلاء المثقفين يستسهلون جداً الربط بين موقف كموقف فهمى هويدي فى الدفاع عن حق بسيط: وهو حق جمهور المتدينين فى ألا تتعرض عاطفتهم الدينية ومقدساتهم للإهانة، وبين «الإرهاب» و«التطرف» و«الأصولية». وقد كان

المفروض فى أى مثقف يستحق هذا الاسم أن يكون بقدرته التمييز بين هذا وذاك، وألا يكيل الاتهامات جزافاً لرجل يدافع عن دينه، فلا يرى فيه إلا إرهاباً . ها هو ذا رجل يستخدم قلمه لنقد البذاءة الموجهة إلى شئ مقدس لدى الغالبية العظمى من أمته، ويطالب بوقفها عند حدها، خاصة أن الذى قام بنشر هذه البذاءة جهاز من أجهزة الدولة نفسها، فإذا هو يعامل وكأنه رجل يحمل مسدسا يوجهه إلي صدر المثقفين والمبدعين كلهم! فأى نوع من الظلم والخبل هذا؟

★★★

الأمر بلا شك يجلب إلى الذهن على الفور قضية سلمان رشدى، وقيام المثقفين فى الغرب بالدفاع المستميت عنه، مستندين فى موقفهم إلى الحرية المطلقة فى التعبير والإبداع، ويتصدى للدفاع عنه هنا أيضاً من لديه الجرأة لأن يقول إنه لم يقرأ ما كتبه سلمان رشدى ولكنه مع ذلك لا يتردد فى أن يدافع عن حقه فى أن يقول ما يشاء!

وقد قرأت رواية سلمان رشدى أثناء هذه الضجة، وأيا كان الحكم عليها من الناحية الفنية، فقد اذتنى بعض فصول الرواية إيذاء شديداً، ووجدت هذه الفصول غاية فى البذاءة وسوء الأدب، بل أنى أميل إلى الاعتقاد بأن أى شخص محايد ومجرد عن

الغرض، سواء كان مسلما أو غير مسلم، لابد أن يستهجن هذا الأسلوب فى الكلام عن نبى الإسلام وزوجاته، بل وعن أى شخص كان.

طبعاً كانت فتوى الإمام الخمينى بقتل سلمان رشدى خطأ شنيعا، فهذا بالفعل هو الإرهاب الذى يتعين رفضه رفضا تاما، ولكن كيف لا يستطيع مثقفو الغرب أن يميزوا بين هذا الإرهاب وبين رفض الاعتداء على حق الجمهور المسلم فى بريطانيا التى نشر فيها الكتاب، وخارج بريطانيا، فى أن يعامل نبيهم ومقدساتهم بالاحترام الواجب لأى نبى وأى مقدسات؟

فلما كتب فهمى هويدى ما كتبه عن رواية «الصقار» هذه، لكاتب جديد علىّ على الأقل، أحضرت الكتاب وقرأته. فإذا بى يصيبنى الذهول لسببين: الأول كمية البذاءة التى يتضمنها الكتاب، وليس فقط في الكلام عن الدين، بل وفى وصف المواقف الجنسية وصفا لا يخدم أى غرض غير الإثارة، وكأنك بصدد مجموعة من الصور المتضمنة مناظر لرجل وامرأة يمارسان العملية الجنسية ويبيعها لك فى الخفاء رجل واقف على الرصيف، أو فيلم من ذلك النوع من الأفلام المنتجة لهذا الغرض وحده . والسبب الثانى أن الكتاب، فضلا عن لغته العربية البالغة الركاكة، خال من أى شئ

يمكن أن نسميه موهبة أو فنا، ناهيك عن الكلمة المحببة للمثقفين المصريين هذه الأيام وهى «الإبداع» . والكتاب لا يحتوى على شئ يمكن أن نسميه بالقصة لأنه ليس به سطر واحد يشوقك أن تقرأ السطر الذى يليه. لا عجب إذن فى أن المؤلف لجأ إلي حيلة التطاول علي الدين وإلى وصف المناظر الجنسية كأمل وحيد فى أن يقف إلى جانبه بعض المثقفين المصريين ويسمونه مبدعاً.

لقد كتب فى الدفاع عنه أحد الكتاب وهاجم فهمى هويدي بحجة أن هويدى لا يستطيع التمييز بين مهمة كاتب القصة وغيره من الكتاب إذ كان عليه أن يتبين أن الشخصية التى تسئ إلي الدين فى هذه القصة رسمها الكاتب كشخصية «سلبية» ومن ثم كان على هويدى التمييز بين موقف هذه الشخصية السلبية وموقف الكاتب نفسه. وأنا لدى شكوك منذ زمن طويل حول الحدود التى يمكن فيها أن يبرر كاتب عمله، من الناحية الأخلاقية، بأن ما يقوله ضد الأخلاق إنما يأتى على لسان شخصية يدينها العمل الفنى إذا أخذ ككل. فهذا الدفاع فى رأيي ليس دائماً جائزا وإنما يجب أن يكون له حدود، إذ قد يكون أثر الشخصية «السلبية» على القارئ من القوة بحيث يجبّ أثر أى موقف إيجابى لغيرها من الشخصيات. وقد أعجبنى موقف محمد المويلحى فى هذا الصدد

في كتاب «عيسى بن هشام» إذ يقول «من تأمل قليلاً وجد أن الشرح والاسهاب فى خفايا الرذائل التى يندر حدوثها ويقل وقوعها كان من الأسباب فى انتشارها.. وقد سئل الشارع الحكيم اليونانى عن سبب إغفاله عقوبة القاتل لأبيه فى شريعته فقال «ما كنت لأتصور أن يونانيا يقدم على قتل أبيه» فكان قوله هذا أنفى لوقوع هذه الجريمة من ذكره أشد العقوبة عليها . وأما اكتساب صاحب الفضيلة من كشف الرذيلة ، فإنه لا يقوم بمقدار الضرر الذى يلحق بأهل الشر منها».

ولكن ما حاجتنا إلى هذا النقاش النظرى فى الحالة التى نحن بصددها الآن؟ ذلك أنى عندما قرأت كتاب «الصقار» وتذكرت ما قيل فى الدفاع عنه من كلام عن «الشخصية السلبية»، ضحكت بصوت عال، وكان لضحكى أسباب منها أن الشخصية التى تسمى «سلبية»، ليست سلبية بل «منحلة» ، ولكن الأهم من ذلك أن الدفاع المذكور يتطلب وجود شخصية إيجابية تقف ضد الشخصية السلبية ، ولكن هذه «الشخصية الايجابية» أو هذا الموقف الإيجابى، لم أجد له أى أثر على هذا الكتاب / القصة.

إذا كان الأمر كذلك فعلاً، فعلام كل هذه الضجة؟ وإذا كان الكتاب بهذه الضحالة وقلة الأهمية، فلماذا نضيع وقتنا فى الكلام

عنه سواء بنقده أو الدفاع عنه؟ ألم يكن من الأجدر إهماله؟ أليس هناك خطر فى أن يؤدى الهجوم عليه إلى زيادة توزيعه واعطائه من الشهرة ما لا يستحق؟ لا أعتقد ذلك. فالكتاب أصدرته هيئة حكومية ويحمل فى مقدمته أسماء مستشارين للتحرير بعضهم من ذوى الشهرة، ومن الواجب أن يتحمل هؤلاء وتتحمل الهيئة المسئولية عن نشر هذا الكتاب، ويجب أن يلفت نظرهم إلى ما ارتكبوا من خطأ فى السماح لكتاب كهذا بالصدور. ولكن الأهم من ذلك أن القضية كلها مجرد مثال واحد لظاهرة أجدها غاية فى الأهمية والخطورة، وهى أن قطاعاً عريضا من المثقفين المصريين دأب على الدفاع عن أعمال غثة، فكريا وفنياً، تهين المقدسات الدينية، وتجرح الشعور العام، وذلك باسم حرية الإبداع وحرية التعبير وحقوق الإنسان، وهم يحاولون إيهام الناس بأن الدفاع عن المقدسات والتصدى لمثل هذا الاعتداء يتضمن بالضرورة إرهابا وتقييدا للحريات. هذا الموقف من جانب قطاع عريض من المثقفين المصريين أجده مستهجنا لأكثر من سبب:

الأول: أنه يتضمن إرهابا وتطرفا لا يقل فى عدوانيته عن الإرهاب المنسوب لأعدائه. فالذين يتخذون هذا الموقف يبدون نفس ما يبديه الإرهابيون الحقيقيون من عجز عن التمييز بين الأشياء،

ويرفضون التمييز بين الموقف المعتدل، والموقف المتطرف، مادام يقف ضدهم، ويستعدون الدولة ضد معارضيهم، وكثيرا ما يلجأون إلى تأييد ودعم مادي ومعنوى من الأجانب النين يفرحون فرحا شديداً ويرحبون كل الترحيب بتقديم هذا التأييد وهذا الدعم، لأنهم هم أيضاً لا يريدون التمييز بين التطرف والاعتدال لأسباب لا تخفى على أحد.

وثانيا: إن هذا الموقف الذى يسمح بالتطاول على الدين باسم حرية الفكر والإبداع، كثيرا ما ينم عن موقف ذليل فيه استهانة بالنفس واستعذاب المرء للسخرية من تراثه والتنكر لأصله وجذوره، استجداء لرضا الأجنبى عنه، بينما يتمسك هذا الأجنبى بتراثه هو وأصله وجذوره ، عقلانية كانت أو غير عقلانية ، لمجرد أنها جزء من نفسه ، ولا يسمح لأحد بأن يتطاول عليها.

وثالثا: إن هذا الموقف كثيرا ما ينطوى على ظلم فادح وخطأ جسيم فى تقييم كتابنا ومثقفينا. فيعطى لبعض الكتب ولبعض المؤلفين أهمية وتقديرا مبالغ فيهما جداً، لمجرد أنهم تجرأوا على الدين ويدعون إلي التجديد، أيا كان نوع هذا التجديد، ويهمل غيرهم ممن قد يكونون أكثر موهبة أو أكبر قدرة على البحث العلمى، لمجرد أنهم ينتصرون للتقاليد أو للقديم بصرف النظر عما هو هذا القديم.

الدكتور صبرى حافظ رجل دمث الخلق رقيق الحاشية، وهو أيضا حاصل على الدكتوراه فى النقد الأدبى، ويقوم الآن بتدريسه فى جامعة كبيرة هى جامعة لندن. كل هذا صحيح، ولكن هذا لايجعله بالضرورة ذواقة يعتد برأيه فى تقييم الأعمال الأدبية. ولا أظن أنى بحاجة لتقديم الحجج للتدليل على أن هذا شىء وذاك شىء آخر . فالنقد الأدبى والفنى فى رأيى ورأى الكثيرين يحتوى على عنصر إبداعى أو فطرى له شبه بما يتوفر للأديب أو الفنان نفسه، أما الدكتوراه فى أى شىء على الاطلاق فلا تتطلب هذا العنصر، ومن ثم فمن الممكن أن يحصل امرؤ على الدكتوراه فى النقد الأدبى دون أن يكون ذواقة جيدا للأدب. وقد صادفت فى حياتى عددا لا يستهان به ممن ينطبق عليهم هذا القول ، حصلوا على الدكتوراه فى الأدب ويقومون بتدريسه فى جامعات كبيرة دون أن يقدموا لنا ما يدل على توفر هذا العنصر الفطرى أو الإبداعى فيهم.

ولا يصح أن يقال ردا على ذلك أن الذوق أمر شخصى وليس هناك شخص أفضل ذوقا من غيره، وأن كل الأذواق سواء. إذ لو صح هذا لما وجد على الاطلاق شىء اسمه النقد الأدبى أو الفنى،

فنحن نفترض بحق أن هناك من الناس من تتوفر لهم من القدرة على تذوق وفهم الأعمال الأدبية وما يؤهلهم لمساعدة غيرهم على تذوق أفضل وفهم أعمق لهذه الأعمال.

أقول هذا بمناسبة مقال نشره الدكتور صبرى حافظ فى مجلة «المصور» (٩٧/٤/١١) يدافع فيه عن روايه «الصقار» ، تلك الرواية التى أصبحت شهيرة بسبب تجرؤ كاتبها على الدين واستخدامه ألفاظا بذيئة فى الكلام عن القرآن الكريم لا أحب ذكرها فى هذا المقال أو فى مقال آخر، وانتقدها أحد الكتاب فى جريدة الأهرام وكاتب آخر فى جريدة الأهالى ، وانتقدتها أنا فى جريدة الدستور فهبّ يدافع عنها كل من رأى فى ذلك اعتداء على حرية التعبير. وهاهو ذا الدكتور صبرى حافظ ينضم الى زمرة المدافعين عن الرواية ولكن بحجة جديدة هذه المرة، وهى انه ليس من حق المتخصصين فى الأدب نقد الأعمال الأدبية، أو على حد تعبيره ليس هذا من حق «صحفى لا دراية له بأساليب قراءة النصوص الأدبية، ولا معرفة لديه باستراتيجيات توليد المعنى فيها». ذلك أن العمل الروائى فى نظر الدكتور صبرى حافظ «عمل فنى ينهض على الجدل المستمر بين جزئياته المنتقاة بعناية من كم هائل من المادة المبذولة للكاتب، وعلى الأطراف الصانعة لشبكة

العلاقات السردية التى تتخلق عبرها مسيرة الحديث وتتبلور بها مصائر الشخصيات » .

وأنا سأغض الطرف مؤقتا عن مغزى استخدام هذه الكلمات الكبيرة دون داع «استراتيجية توليد المعنى - العمل ينهض- الجدل المستمر بين جزئياته - المادة المبذولة - الاطراف الصانعة - العلاقات السردية - تتخلق عبرها - مسيرة الحدث - مصائر الشخصيات » ، والتى تملأ المقال من أوله لآخره. وأود الآن أن أبين أن هذه الحجة رديئة للغاية، لأكثر من سبب.

فها هو شخص يرفض ، فيما يظهر أن يكون هناك كهنوت فى الدين (إذ هو يسخر من ينتقد الرواية «بدعوى المحافظة على الفضيلة»)، ولكنه يرى فيما يظهر أيضا ، ضرورة وجود كهنوت فى النقد الأدبى.

فلكى يصبح للمرء حق ممارسة النقد الأدبى يجب أن يكون قد حصل على دكتوراه فى النقد من جامعة معترف بشهاداتها ، وربما يجب أيضا أن يكون أستاذا للأدب فى جامعة لندن ، ولا يهم بعد ذلك ما إذا كان قد شهد له الناس بأنه ذواقة جيد للأدب أم لا . ولست بحاجة إلى تذكير الدكتور صبرى حافظ أن أعظم نقاد الأدب فى العالم لم يحصلوا على شهادة جامعية فى الأدب، ولم

يدرسوا مناهج النقد الأدبى دراسة نظرية ، ولم يجتازوا امتحانا فى «استراتيجيات توليد المعنى» أيا كان معنى هذه العبارة.

كل هذا أوضح من أن يحتاج إلى بيان، والرواية التى يدافع عنها د. صبرى حافظ أتفه من أن تستحق أن يعاد ذكرها. ولكن ما العمل وأعضاء هذا الفريق الذى يريد أن يدافع عن أى شىء باسم حرية الرأى لا يريدون الكف عن هذا الهراء، ولا يريدون أن يميزوا بين حرية الرأى وحرية السب والقذف؟

إنهم لا يريدون مثلا التمييز بين رواية «الصقار» هذه وبين عمل فنى حقيقى، مثل رواية الطيب صالح الرائعة « موسم الهجرة إلى الشمال»، وذلك الفصل البديع فيها الذى يتضمن حوارا به بعض الاشارات الى العلاقة الجنسية، ولكنها اشارات لا يمكن أن يرى فيها ذواقة جيد للأدب إلا أدبا رفيعا، وكتابة إنسانية من الطراز الأول، ومن ثم لا يجوز أن يتعرض له بشأنها أحد. بنفس المنطق لا يجوز فى رأيى التعرض لكتب نصر حامد أبوزيد بالمنع، لانها تتضمن آراء لا سبابا، ومن ثم فإنها كتب تناقش ولا تمنع . مثل هذا لا يجوز منعه، ولكن اذا سبك شخص وأنت سائر فى الطريق ووصفك باقبح العبارات فهذا ليس « اختلافا فى الرأى» ، لكنه وقاحة يتعين منعها .

ولكنى أدعو القارىء إلى قراءة هذا المقال الذى كتبه د.صبرى حافظ لانه مثال جيد لظاهرة منتشرة للاسف، وهى استخدام الألفاظ الكبيرة التي توهم بالعمق وسعة العلم لاخفاء ضآلة المحصول.

خذ مثلا الفقرة الآتية من مقال د. صبرى : «يتكون الجزء الأول من الرواية «وقفه صقر» من سبعة فصول يبدأ أولها بالكلمات نفسها التى يبدأ بها سابعها » ثم يقتطف العبارات الآتية من الرواية:

«الطريقة العادية نفسها التى يمكن أن يصبح بها أحد، أى أحد، وحيدا فى حجرته العلوية، تماما كموت الآخرين، لا يموتون هكذا مرة واحدة، ولا يتركون لنا أشياءهم الحقيرة إلا لأنها ليست مهمة فى الموت» (ص ٩ و ص ٣٥) .

هل تجد أيها القارىء الكريم أى جمال أو عمق، بل أى معنى، فى هذه العبارات؟ لا أظن ذلك. أما د. صبرى حافظ فيجد فيها مايلى:

«محاولة واضحة لبلورة بيئية ترددية وتكرارية، يتذبذب يها السرد بين عوالم متنافرة ولكنها متضافرة بطريقتها 'فريدة » .

هذه العبارة نموذج صغير لما ورد فى مقالة د. صبرى ، فكلها يسير على هذا المنوال - فليدلنى أحد إذن على موضع الذوق الأدبى الرفيع فيها الذى يبرر مناداة كاتبها بمنع أى غير متخصص فى الأدب من الكتابة عن هذه الرواية أو غيرها!

★★★

من الطريف أيضا طريقة معاملة د. صبرى حافظ والمنتمين لمدرسته لأى عمل روائى يريدون الانتصار له، مهما كان حظه من الموهبة الحقيقية ، إذ يقول د. صبرى : «إن دلالة أى جزئية من العمل الروائى لا تتحقق إلا من خلال علاقاتها مع بقية الجزئيات، وموقعها على خريطة هذه الشبكة المعقدة من الأحداث والعلاقات والشخصيات والرموز ، ومن هنا فإن اقتطاع أى جزئية من سياقها، ووضعها ضمن مقالة مثلا ، يولد معنى لا علاقة له فى أغلب الأحيان بالمعنى المقصود داخل النص الروائى.. فمعنى كل جزئية من جزئيات العمل الروائى مشروط بسياقها من ناحية، وبموقعها من شفرات التعبير الروائى فى العمل كله من ناحية أخرى».

عن أى شىء يتحدث د. صبرى ؟ عن قصة أم عن كتاب مقدس؟ هل أى قصة كتبها شخص هب أو دب يصح أن تعامل هذه المعاملة وأن تعطى كل هذا الاحترام وكأنها عمل مقدس لايجوز حذف جملة، أو عبارة فيه أو حتى اقتطافها من سياقها، دون أن تحل بنا اللعنة؟ ما كل هذه القدسية التى يضفيها هذا النوع من النقاد على كتّاب وفنانين لا يستحق الواحد منهم وصف الفنان بأكثر مما تستحقه راقصات شارع الهرم ؟ وأين الكهنوت الدينى من هذا الكهنوت؟

إنى بصراحة أجد من الصعب أن أقرر أيهما أسوأ من الآخر.

- ٣ -

منذ نحو ثلاثين عاما، طلب منى المرحوم الدكتور عبدالحكيم الرفاعى، الاقتصادى العتيد، وكان وقتها عضوا فى المجمع اللغوى، أن أعد تعريفات لبعض المصطلحات الاقتصادية لتعرض على المجمع لإقرارها. قمت بهذا العمل مسرورا، وسمح لى أن أحضر جلسة المجمع التى تناقش فيها هذه المصطلحات التى قمت بتعريفها ، على أن أغادر الجلسة فورا بعد أن تنتهى مناقشة هذه المصطلحات وقبل أن تنتقل المناقشة الى غيرها. كان أحد هذه

المصطلحات هو «الانتاج» ، وقد عرفته تعريفا كان شائعا بين الاقتصاديين وقتها وهو «خلق منفعة أو زيادتها» . وما أن قرأت هذا التعريف بصوت عال حتى احتج احد أعضاء المجلس (ولا أذكر الآن من هو) قائلا: أن هذا التعريف غير جائز، لأن الخلق من صفات الله تعالى وحده.

اعترف بأنني وقتها وجدت في هذا الرأى تعنتا وتزمتا لا لزوم لهما، وتمسكا بالشكليات دون داع . فقد بدا لى حينئذ أن المهم هو نقل المعنى الصحيح بأى تعبير مناسب، وبدا لى أن خلق المنفعة تعبير مناسب عن عملية الانتاج ، ولا حاجة بنا هنا الى إقحام المقدسات فى الموضوع.

ظل هذا رأيى فترة طويلة، على الرغم من أنى كنت استثقل دائما وصف شخص ما بأنه «خلاق» أو «مبدع» إذ أنى كنت دائما أعتبر هذا من قبيل الغرور، أو الثناء الزائد عن الحد، بصرف النظر عن موضوع الدين بتاتا . ولا أظن أنني استخدمت أيًا من هذين اللفظين فى أى وقت من الأوقات لوصف أى عمل أو شخص، ولهذا السبب بالضبط . كما كنت ألاحظ أن بعض الموهوبين الحقيقيين من كتابنا وفنانينا، ممن يتسمون ايضا

بفضيلة التواضع الحقيقى لا المصطنع، مثل نجيب محفوظ مثلا، أو فاتن حمامة ، لا يستخدمون مثل هذه الالفاظ أبداً ، ورجحت أن يكون السبب وراء هذا هو نفس السبب الذى ذكرته حالا ، أى كراهية هذه الدرجة من الغرور أو الثناء .

ثم لاحظت فى السنوات الأخيرة ظاهرة بدت لى غريبة ومؤسفة، وهى ميل كثير من الكتاب عندنا، ممن عرف عنهم الدأب على الانتصار لحرية التعبير وحماية الأدب والفنانين من محاولة أى شخص فرض الوصاية عليهم، ميلهم الى استخدام ألفاظ من نوع «الخلق» و«الابداع»، فى وصف الأدباء والفنانين بكثرة مزعجة، بل ويستخدمونها أحيانا حتى عندما يكون الكاتب أو صاحب العمل الفنى أبعد ما يكون عن الموهبة. وبدا وكأن مجرد محاولة كتابة قصة او رواية مهما كانت رديئة تؤهلك لحمل هذا اللقب الممتاز «خالق» أو «مبدع» . لا يهمهم الا ان يكون الشكل العام هو شكل القصة أو الرواية ولا يهم بعد ذلك ما إذا كانت المحاولة تسفر فى النهاية عن قصة حقيقية أم لا، رواية حقيقية ام مجموعة من الجمل المتراصة التى قد تبلغ فى سخافتها وركاكتها أى مبلغ.

قلت لنفسى عندما شاهدت ذلك «والله إن عضو المجمع الموقر كان على حق. فما أحسن أن نحصن هذا اللفظ الجميل: الخلق أو الابداع، ونحميه من السطو والنصب، وماذا هناك أفضل لذلك من أن نصر على ننسب هذا العمل النادر جدا والجليل حقا إلا الله تعالى؟ أى نعتبره من صفات الكمال، لكي نتجنب أن ينسب الى غير مستحقيه ؟

ولكن الإغراء بعكس ذلك إغراء قوى بالطبع . فهناك كثيرون ممن لهم مصلحة فى أن يشيع استخدام وصف الخلق والابداع، حتى ينالهم شيء منه حتى لو كانت صلتهم بالفن والموهبة صلة واهية للغاية، أو حتى يزيدون شرفا على شرف، إن كانوا من بين من يتمعون بدرجة أو أخرى من هذه القدرة الفنية. وقد أخذ هذا الفريق بشقيه ، المتمتعون بالموهبة وغير المتمعين بها، يمارسون علينا في الآونة الأخيرة نوعا من الكهنوت المحض ، مما أستثقل مذاقه استثقالا شديدا، حيث يخاطبوننا بتعال وتكبر لا تخطئهما العين، ويكلموننا باحتقار واضح، طالبين منا أن نكفأ ايدينا عن هذه الأعمال الفنية العظيمة وأعمال الابداع الباهرة، وأن ننصرف لحالنا ونترك هؤلاء المبدعين العظام يستمتعون بالهدوء اللازم لعملية الخلق.

من الأمثلة الأخيرة على هذا مقال قصير كتبه أديب كبير (أقدر أعماله الروائية تقديرا عظيما) ، ألقى فيها علينا، نحن المتطاولين على الفنانين والمبدعين، درسا قاسيا، يعلمنا فيه كيف يجب أن تكون طريقة مخاطبة هؤلاء المبدعين العظام، ووبخنا بشدة لاننا لازلنا لا نعرف تلك الحقيقة المعروفة من قديم الزمن والتى أصبحت «بديهيات فرغ منها العالم قبل آلاف الأعوام»، وهى أن للكاتب أو الفنان أن يجرى على لسان شخصياته أى كلام، مهما كنا نعتبره بذيئا، مادامت الشخصية التى قام بخلقها يمكن أن تنطق بهذا الكلام، أو على حد قوله إن «الكاتب مطالب بأن يجرى على لسان شخصيته ما يتحتم أن تقوله الشخصية، لا ما نحب أن نسمعه منها ... إن كان شريرا أو فاسقا فلن تجرى على لسانه أقوال الاتقياء والفضلاء. لهذا فقد شهد المسرح اليونانى تصوير الزوج الخائن والأم القاتلة والحاكم الطاغية والكافر الذى يجدف فى حق الآلهة، وكل الشخصيات الشريرة التى يمكن أن نتخيلها. فالفن لا يحمى الفضيلة بمداراة الشر واخفائه، بل بكشفه وزيادة وعينا به » .

وسوف أصارح الأستاذ الكبير بأنى منذ زمن ليس بالقصير بدأت أشك بشدة فى سلامة هذا الموقف الذى يعبر عنه، على الرغم

من أنه يعتبره من «البديهات التى فرغ منها العالم قبل آلاف الأعوام » إذ صادفت فى السنوات الماضية مثالا بعد آخر من الأفلام والقصص والروايات والمسلسلات التليفزيونية والأعمال الفنية بوجه عام ، ما جعلني اعتبر أن هذا الموقف الذى يدافع عنه قد تعوزه الحكمة ويتطلب إعادة النظر.

رأيت مثلا من الأفلام وحلقات المسلسلات التليفزيونية، الأمريكية بوجه خاص، مما ينسب أيضا إلى الفن، ما جعلنى ألعن اليوم الذى اخترع التليفزيون فيه. فلمجرد أن الفيلم أو المسلسل ينتهى بالقبض على المجرم يتم تمرير الفيلم على أنه ضد الجريمة، مع أن المشاهد يقضى معه الساعة بعد الأخرى لا يرى فيها الا أعمالا فى غاية السفالة، ويتعود خلاله على مناظر الدم والقسوة مما لابد أن يترك أثره فى النهاية على المشاهد، أيا كانت النهاية «الفاضلة» التى ينتهى بها الفيلم . إن أثر أفلام العنف على الصغار والكبار لايمكن ان يكون مجهولا لدى الكاتب الكبير حتى ولو كانت شخصية المجرم أو السافل مرسومة بدقة ومهارة عظيمتين ، بل ربما بسبب ذلك ، ولهذا فهو موضوع يقض مضجع المهتمين بصحة المجتمع الغربى ولم يفرغوا منه بعد.

وقل مثل ذلك عن أفلام الجنس التى تتبارى وتتنافس فيما بينها على كمية العرى والشذوذ الجنسى التى تحتويها، بحيث يكاد المرء يقطع بأن الشذوذ الجنسى أصبح الآن مقررا على مخرجى الافلام، وأن مدى النجاح فى تسويقه يتوقف على ما إذا كان يحتوى شيئا من هذا أو لا يحتويه . وزاد بشدة عدد الأفلام التى يجب أن تصنف على أنها لا تستهدف إلا الإثارة ومع ذلك تضاف إليها فى آخر دقيقة نهاية فاضلة حتى يتم تمرير الفيلم على انه فيلم خلاق ومبدع . ماهى الفلسفة الكامنة وراء التساهل مع مثل هذه الأعمال الفنية؟

هناك فى الواقع ثلاث فلسفات لا فلسفة واحدة وراء هذا الموقف الذى يدافع عنه كاتب المقال، وكلها محل نظر وتستحق المناقشة:

الأولى : هى الاعتقاد «بحق الناس في أن تعرف» . حق الانسان فى أن يعرف كل شىء : فمادام الشر أو الشذوذ موجودا فى الواقع فلابد من التعبير عنه، ومادام جسم الإنسان هو في حقيقته عار «تحت ما يغطيه ملابس» فلابد أن يراه الجميع على حقيقته ! وأنا أرى أن هذا الاعتقاد قد وصل فى الحضارة الحديثة إلى مدى أبعد بكثير من المرغوب فيه . أنه نفس الاعتقاد الذى

تمسكت به أحقر صحف بريطانيا، التى لا تستهدف الا الربح، لتبرير نشر صور هذه الأميرة أو تلك، عندما كانت الأميرة تظن أنها فى خلوة وفى مأمن من أعين الناس، وهى ما تتمسك به وسائل الإعلام عندما يذيعون اسرار الناس بلا موجب ودون أى هدف عام، اشباعا لأحقر الرغبات لدى الجمهور فى ان يخوضوا فى سيرة الناس، حتى يشعروا ، حقا أو باطلا ، بانهم ليسوا أفضل منهم . وهى نفس الفلسفة التى تجعل (C.N.N) وأمثالها تصدع رءوس الناس بتفاصيل جريمة هنا أو هناك او حدث تافه يتعرض له شخص تافه ولكنه مشهور (وهو مشهور فقط بأنه مشهور) . وهى نفس الفلسفة التى جعلت وسائل الاعلام الامريكية تشغل الشعب الامريكى المسكين شهرا بعد بتفاصيل محاكمة رجل لا هو بالفنان العظيم ولا بالسياسى الخطر وانما هو رجل عادى جدا اتهم بقتل زوجته وعشيقها، والزوجة والعشيق لا يزيدان طبعا فى الأهمية عنه، وذلك تطبيقا لمبدأ حق الناس فى أن تعرف.

لا أيها الصديق العزيز . ليس من حق الناس أن تعرف كل شىء، ولا من المرغوب فيه أن يعرف الناس كل شىء. ليس من حق الناس أن يكشف عن كل مخبوء ، وليس من المرغوب فيه أن يرفع الغطاء عن كل جسد . فهذا فهم قاصر جدا ومضر جدا لمعنى

الحرية . نعم من المفيد أن يعرف الشر، ولكن فى بعض الأحيان دون غيرها. وبعض الشر وليس كله، وهناك ألف طريقة وطريقة لعرض الشر وتصويره والتعرف عليه، بعضها نافع وبعضها ضار جدا ، كما يعرف أى أب أو أم قررا الا يعرضا ابنهما او ابنتهما لتجربة تدخين السيجارة أو الحشيش . والقول بهذا لا يعنى بالضرورة الاستنجاد بالدولة لحمايتنا من مثل هذا ، وانما قد يعنى ذلك الاستنجاد بالأسرة أو بالنقاد أو بالمثقفين .

والفلسفة الثانية التى لابد أنها أثرت فى تفكير كاتب المقال وفريقه، تقوم على هذا التعظيم المبالغ فيه «للتكنيك» على حساب المضمون . فالمهم، او هكذا يقال، ليس هو ما تعبر عنه بل كيف تعبر عنه. بل إن كثيرين من المنتصرين لحرية الفن لا يثيرون فى الحقيقة موضوع الفضيلة والرذيلة ، الخير والشر، إلا مضطرين . إذ أن المهم عندهم هو كيف تم تصوير هذا او ذاك، وليس ما اذا كانت النهاية فى صالح هذا أو ذاك. إذ يلاحظ أن النهاية الفاضلة المزعومة للعمل الذى يدافعون عنه، كثيرا ما تكون من قبيل ذر الرماد فى الاعين، أى لم تكن ضرورية على الاطلاق للعمل الفنى وليست جزءا من نسيجه. بل إن هذه النهاية الفاضلة المزعومة كثيرا ما تكون غامضة غموضا تجعل المرء فى حيرة من أمره،

لايدري ما اذا كان الكاتب أو الفنان يقصد أن يقول هذا المعنى أو أن يقول عكسه ، ولا يبقى واضحا وضوح الشمس الا ما تضمنه سياق العمل من وصف للبذاءه أو الشر أو الاجرام أو الدم.

هذا التقديس للتكنيك ، أو للشكل على حساب المضمون، هو نتيجة فلسفة قديمة أخذت تنمو بالتدريج كجزء أساسى من الحضارة الغربية الحديثة منذ ماكيافيللى على الاقل . إذ أن رسالة ماكيافيللى الحقيقية، ليست هى ان الغاية تبرر الوسيلة بل أن الوسيلة تبرر الغاية! أى لا يهم ما تفعل ، أخلاقيا كان أم غير أخلاقى ، المهم هو كيف تفعله . المهم أن تؤدى العمل بمهارة ، مهما كان هذا العمل سافلا.

هذه الفلسفة الرديئة هى التى انتهت بنا إلى ما يسود الفن الحديث من تقديس للتكنيك على حساب الرسالة التى يتضمنها العمل، وهى التى سمحت لهذا الفريق من التنويريين العظام فى بلادنا ، بأن يدافعوا عن كل شىء ، وأى شىء، مهما كانت سخافته، باسم الخلق والابداع . وهو نفسه ما جعلهم يدافعون منذ سنوات قليلة عن فيلم سىء المضمون جدا، يشتم المصريين فى الحقيقة، ويروج للتطبيع مع إسرائيل ، لمجرد أنهم رأوا فى الفيلم

ألوانا ومناظر باهرة وأن المخرج أخرج هذه الفكرة السيئة إخراجا خلابا!

هناك فلسفة ثالثة وراء هذا الموقف الذى نشكك فى صحته وتتلخص فى موقف من الفن هو أشبه بالتقديس . إن الكلام عن الفن والفنانين يكاد الآن ، من فرط ما يقترن به من خشوع ورهبة، يتحول الى موقف شبيه جدا بالموقف الدينى. فالعمل الفنى ينظر اليه على انه نتيجة حالة غامضة من الالهام، تستعصى على التفسير، تؤدى الى تدفق الابداع والخلق على نحو لا سيطرة للفنان عليه ، كأننا بالضبط بصدد معجزة دينية لا تفسير لها ولايجب حتى أن نطمح الى العثور على تفسير لها! المسألة إذن قد تمخضت عن تقليل من شأن الظاهرة الدينية لكى تحل محلها العملية الفنية. ولاشك أن النصب عن طريق ادعاء التدين والتقوى حالة شائعة ومعروفة عبر التاريخ، ولكن فلنلتفت ايضا إلى أن النصب عن طريق ادعاء الموهبة الفنية ووجود علاقة خاصة بين الشخص المدعى و بين آلهة الفن، حالة شائعة بدورها. مع أن الموهبة الفنية الحقيقية كالتدين الحقيقى ، أمر ابسط من هذا بكثير، ولا يستحق كل هذا التفاخر والاستعلاء . شخص له قدرة مثلا على أن يروى قصة بطريقة مشوقة، أو على الاحتفاظ فى

ذاكرته بتفاصيل حية للأشخاص أو الوجوه، أو الأحداث التى تمر به ، مع القدرة على إعادة وصفها دون أن يكون لدى هذا الشخص بالضرورة قدرات عقلية خارقة ، أو ذكاء باهر أو حكمة بالغة، ناهيك عن أن يكون بالضرورة ذا خلق رفيع.

إن هذه الفلسفة وتلك هي ما سمح للكاتب الكبير بأن يقول : «لماذا إذن نهاجم الآن كتابا أجروا على لسان الأشرار ما هو شر، بل ونحاكم ممثلين لانهم أجادوا تصوير الشر؟! أى تراجع عن العقل والمنطق والتاريخ (والفضيلة أيضا) ذلك الذى نعيشه اليوم؟».

وأنا أقول للكاتب الكبير إنك تخطىء إذ تعتقد أن مسيرة التاريخ هى دائما إلى الأفضل، وأن أى تراجع هو بالضرورة ضد العقل والمنطق. بل إنى لا أشك فى أن التراجع فى هذه القضية بالذات، هو شيء حكيم للغاية.

(١١)

رشدى سعيد
رحلة عمر
د. يحيى الجمل : قصة حياة عادية

نشرت دار الهلال خلال العام ٢٠٠٠ كتابين فى السيرة الذاتية لا يفصل بين ظهورهما إلاّ شهور قليلة، احدهما بعنوان، قصة حياة عادية ، للدكتور يحيى الجمل (كتاب الهلال، يوليو ٢٠٠٠) والثانى بعنوان، رحلة عمر : ثروات مصر بين عبد الناصر والسادات، (دار الهلال ، ٢٠٠٠) . والكتابان متقاربان فى الحجم، والمؤلفان متقاربان في الشهرة، على الأقل فى مصر والعالم العربى، يعرفهما المثقفون المصريون جيدا، والمهتمون بالشئون المصرية من المثقفين العرب ، وإن كان ثانيهما (رشدى سعيد) له من القراء في خارج العالم العربى، اكثر مما للآخر ، بحكم ماألفه من كتب ومقالات بالانجليزية عن جيولوجية مصر وعن نهر النيل .

لا يسع قارىء الكتابين إلا أن يلاحظ ايضا ان كلا من المؤلفين يحمل درجة لا يستهان بها من الاعتزاز بانجازاته، إذ لولا ذلك ما

جلس كل منهما لكتابة سيرته الذاتية ، فضلا عن أن العبارات التى تنم عن هذا الاعتزاز كثيرة فى صفحات الكتابين .

فيما عدا هذه الأشياء البسيطة لا يكاد أن يكون ثمة شبه بين الكتابين أو بين المؤلفين. والواقع أن ما بين الكتابين والمؤلفين من فوارق شاسعة، فضلا عن صدور السيرتين في الوقت نفسه، هو ما جعل لدى ميلا لم أستطع مقاومته للمقارنة. يبدأ القارىء فى ملاحظة هذه الفوارق من أول صفحة ويستمر الى اخر صفحة ، بل ويشعر به القارىء حتى ابتداء من رؤيته لغلاف كل من الكتابين ، إذا تأمل هذين الغلافين جيدا .

فالدكتور يحيى الجمل يسمى كتابه ، «قصة حياة عادية » وهو عنوان يوحى برأى معين للمؤلف فى سيرته الذاتية لا يتماشى تماما مع ما يرد فى داخل الكتاب من اعتزاز بإنجازاته وجوانب تفوقه. وصورة المؤلف المنشورة على الغلاف صورة يشع منها الذكاء ولكنه ذكاء يختلط بدرجة لا يستهان بها من الدهاء تتضح من ان الابتسامة التى ترتسم على الوجه ليست ابتسامة كاملة، بل هى نصف ابتسامة، أما الدكتور رشدى سعيد فيعطى كتابه عنوانا أبسط «رحلة عمر : ثروات مصر بين عبدالناصر والسادات» وهو بالضبط ما تجده داخل الكتاب ، كما يحمل الغلاف صورة

بديعة له تعكس حبا غامرا للحياة ، ورضا تاما عن النفس، تجد لهما صدى أيضا في كل صفحة من صفحات الكتاب .

والكتابان ، على تقاربهما في الحجم ، يغطيان فترتين متفاوتتين كثيرا في الطول . فكتاب يحيى الجمل ينتهي بحصول المؤلف على الدكتوراه في ١٩٦٢، وهو في نحو الثلاثين من العمر، بينما لا ينتهي كتاب رشدي سعيد إلاّ بانتهاء القرن ، عندما بلغ الثمانين من عمره . ومن الواضح من نهاية كتاب يحيي الجمل أن المؤلف ينوي كتابة جزء آخر على الأقل ، إذ ينهيه بقوله : « وبدأ مرحلة جديدة في حياته» . والأرجح انه سوف يشجعه على هذا كثرة ما كتب من ثناء على الكتاب في بعض الصحف والمجلات السيارة، بل ومن جانب بعض الكتاب المرموقين . وقد كان هذا الاعتبار الأخير سببا آخر حفزني على كتابة هذا النقد ، عسى أن يجد المؤلف فيه من الملاحظات ماقد يؤدي به إلى اتخاذ درجة اكبر من الحيطة وهو يكتب الأجزاء التالية .

مما يشعر به القارىء أيضا أن د. يحيي الجمل يكتب قصة حياته وهو يأمل في أن يقدم لنا في هذا الكتاب عملا أدبيا، أما د. رشدي سعيد فإن من الواضح ان كتابة عمل ادبي لم تخطر له على بال ، وأنه لم يرد من كتابته إلا أن يروي ما حدث له، على امل

أن يتضمن بعض الحقائق المهمة عن السياسة المصرية والمجتمع المصرى التى عرفها خلال حياته ولمسها بيده ، ويشفق من أن يطويها النسيان ، فتغيب إلى الأبد عن الأجيال اللاحقة من المصريين . ليس لدى رشدى سعيد اذن أى رغبة فى أن يعرض علينا مقدرة أدبية من أى نوع ، فهو يستخدم لغة مباشرة وصريحة ، ويروى قصته بلسانه، انا فعلت وانا قلت ، بينما يجتهد يحيى الجمل خاصة فى الفصول الأولى ، فى تجميل أسلوبه واختيار عباراته ، وهو لا يشير إلى نفسه بلفظ أنا (ربما أيضا من باب التواضع)، بل بلفظ الفتى مرة او صاحبنا مرة أخرى . المدهش ان النتيجة كانت عكسية تماما (على الأقل فيما يبدو لى). فبينما كاد ان يبلغ اثر كتاب رشدى سعيد فى نفسى ما يتركه فى النفس العمل الأدبى ، مثلما وجدت مثلا لدى قراءة وصفه لشخصية انور السادات وتصرفاته ، أو وصفه لمعاناته الشخصية هو وزوجته بسبب معاملة السادات له ، وبسب انفضاض الناس عنه خوفا من غضب السادات، أو وصفه لما حدث للواحات الخارجة ولموارد مصر بصفة عامة وما تعرضت له من إهمال وذبول عندما وقعت فى أيدى اشخاص ضعيفى الإحساس بالمسئولية، بينما تأثرت تأثرا عميقا بكل هذا، لم ينجح أسلوب يحيى الجمل الأكثر لمعانا فى أن يترك فى نفسى اثرا مشابها . مما

أكد لى مرة أخرى أن لمعان الأسلوب وبريقه لا يكفيان ، وأن اللغة فى حد ذاتها لا تصنع أدبا جميلا ، وإن كانت اللغة الركيكة تخرّبه.

★★★

لا يجوز أن يطلب احد من كاتب السيرة الذاتية ان يقول كل الحقيقة ، ففى حياة كل منا احداث ومواقف ومشاعر لابد من أن يخجل منها ويشعر بالندم عليها ومن حقه أن يخفيها . ولكن من المؤكد أيضا أن من حقنا على كاتب السيرة الذاتية ألا يقول لنا «أنصاف حقائق» ..

وأقصد بأنصاف الحقائق تلك الأقوال التى لا تناقض الحقيقة ولكنها قد توحى للقارىء بعكس الحقيقة . وقد صادفت أثناء قراءتى لكتاب. د. يحيى الجمل بضع مواضع مما قد ينطبق عليه هذا الوصف ، حتى فيما يتعلق بأمور لم يكن هناك أى بأس ولاثمة ما ينقص قدر الكاتب لو قال لنا ماالذى حدث بالضبط. من ذلك مثلا ما قاله عن التقدير أو الدرجة التى حصل عليها عند تخرجه فى كلية الحقوق. فمن الواضح انه لم يكن راضيا عن هذه الدرجة، وهى على أى حال أمر تافه كان من الأجدر الا يشغل باله به ، بعد أن حقق كل هذا النجاح فى حياته العملية، ولكنه بدلا من ان يقول

لنا ما هى تلك الدرجة التى حصل عليها واصابه الحزن بسببها، يمتنع عن ذكرها ثم يحاول أن يفسرها تفسيرا لا أجده مقنعا تماما. فهو يقول : «يبدو أن اللجنة قد أخطأت خطأ ماديا إذ رصدت درجة صاحبنا لزميل لم يحصل قط فى حياته الجامعية على درجة امتياز فى أى علم من العلوم.. » وقد يظن القارىء أن هذا الخطأ المادى يمكن تصحيحه بقليل من الجهد مما لا يعجز عنه رجل له تصميم وعناد د. يحيى الجمل ، ولكنه يقول إنه لم يكن إلى إصلاح هذا الخطأ من سبيل، ويذكر بعد ذلك مباشرة ما يقصد منه الإيحاء للقارىء بأن سبب استحالة تصحيح هذا الخطأ هو أن النتيجة اعلنت يوم ٢٣ يوليو ، وهو نفس اليوم الذى قامت فيه الثورة وتوفى فيه عميد الكلية ، مما يفهم منه أنه فى هذه الظروف لم يكن من الممكن أن يحصل الطالب يحيى الجمل على الدرجة التى يستحقها .

على العكس من ذلك ، لا يجد رشدى سعيد غضاضة فى أن يقول لنا: إنه فى السنة الأولى من المدرسة الثانوية كانت نتيجة آخر العام «سيئة للغاية، فقد رسبت فى كل المواد بما فى ذلك مادة الرسم ، ومازلت اذكر حتى اليوم صورة شهادتى وهى مليئة بالدوائر الحمراء التى لفت درجاتى فى كل المواد واضطررت لإعادة السنة .

« إلا أن هذا الرسوب كان بدء التحدى فقد عايرنى الأشقاء والاقارب ونبهونى إلا أني لو رسبت مرة أخرى للحق بى شقيقى الاصغر كمال الذى كان يصغرنى بسنتين وناجحا على طول الخط. وهكذا افقت من التوهان الذى عشت خلاله ذلك العام ..» .

يربط د. رشدى سعيد فى سيرته الذاتية ربطا وثيقا بين حياته الخاصة والتطور السياسى فى مصر، فهما متداخلان تداخلا قويا، كما يدل على ذلك عنوان الكتاب. هذا الترابط والتداخل يبدأ من أول صفحة فى الكتاب ويستمر إلى آخره . فبمجرد ان يذكر فى مقدمة الكتاب انه ولد فى القاهرة فى سنة ١٩٢٠ يتعرض للمناخ السياسى والاجتماعي الذى ساد مصر فى اعقاب ثورة ١٩١٩ . وهو فى خاتمة الكتاب التى تحمل عنوان «العيش فى الغربة» يجد من المهم ان يصف حال المصريين المهاجرين إلى أمريكا ومدى تعلقهم بمصر واهتمامهم بشئونها وشعورهم بأنهم «فى مأزق كبير لأن سياسة وطنهم الجديد تجاه منطقة الشرق الأوسط تتناقض ومصلحة وطنهم الأم، وهم عاجزون عن تغيير هذه السياسة والتأثير فيها » .

د. رشدى سعيد لا يخفى تحيزه لجمال عبد الناصر ومشاعره السلبية نحو السادات ، ويذكر فى مدح الأول ونقد الثانى أسبابا تتعلق بالسياسة العامة اكثر مما تتعلق بحياته الشخصية . ولكن

لاتظهر السياسة فى كتاب يحيى الجمل على هذا النحو، فالكتاب يبدأ بداية شخصية بحتة ويستمر كذلك حتى صفحة ٦٥ ، عندما يأتى ذكر علاقة اخيه سعيد بحركة الاخوان المسلمين ، وتردد بعض شبابها المتحمسين لهذه الحركة على أخيه، «وكان الفتى (أى يحيى الجمل) يسمع ذلك كله ويعجب به وينفعل معه ولكنه لم يفكر فى الانخراط فى الجمعية رغم أنه تردد أحيانا على بعض شعبها، ورغم أنه لم يكن بعيدا نفسيا عما تنادى به، ولكن الفتى كان قد اتخذ طريقا آخر من طرق العمل العام » (ص ٦٧) إنه لا يوضح لنا ما هو هذا الطريق الآخر ، ولكن القارىء يكتشفه بالتدريج مع استمراره فى القراءة .

فعندما كان طالبا فى السنة الثالثة بكلية الحقوق كان هناك مجموعة من شباب الحزب الوطني تحالفت مع الاخوان المسلمين وتريد أن تخوض معركة انتخابية داخل الجامعة ضد الوفد. وكان هناك «غزل متبادل» بين التيارين السياسيين، تيار الحزب الوطنى وتيار الاخوان المسلمين . وكان بعض شباب الحزب الوطني يؤيد هذا التقارب وبعضه يرفضه. اما صاحبنا فإنه «هو والعدد الاكبر من شباب الحزب الوطنى كانوا يرون ان هذه هى الفرصة الوحيدة للبقاء والاستمرار والوجود الفاعل فى الحياة السياسية» (ص٩٠).

ثم حدث فى السنة التالية ان بدأت حركة الفدائيين ضد القوات الانجليزية المرابضة على طول قناة السويس، وأخذ بعض شباب الحزب الوطنى فى إعداد كتيبة خاصة به، وعن هذا يقول د . يحيى الجمل « ورغم أن صاحبنا كان قريبا القرب كله من الحركة الوطنية الا أن اهتمامه كان موزعا بين الحركة وكتائب الفدائيين من جهة، ودراسته من جهة أخرى، التى كان حريصا على الا تتأثر وهو فى السنة النهائية، وبين قلبه الذى لم يفتأ ينبض بين الحين والحين متعطشا دائما الى الحب وإلى الأحلام الرومانسية». وعندما اشتدت حركة الفدائيين ووقعت أحداث التل الكبير التى استشهد فيها عدد من الفدائيين، لم يكن صاحبنا يهدأ ليلا أو نهارا ، وكان ممزقا بين رغبته فى الحفاظ على تفوقه العلمى من ناحية ، واندفاعه للقيام بدور ولو محدود فى الحركة الطلابية ، وفى الكفاح ضد قوات الاحتلال من ناحية أخرى .

فى السنوات العشر التالية لقيام ثورة ١٩٥٢ ، وحتى انتهاء الكتاب بحصوله على الدكتوراه فى القانون من جامعة القاهرة، لايحتوى الكتاب أى إشارة إلى موضوع سياسى، إذ يبدو ان يحيى الجمل انصرف فى هذه الفترة من الاهتمام بالسياسة إلى اهتمامات أخرى، أهمها العلم والحب. ويبدو أن رشدى سعيد

خلال هذه السنوات العشر قد انشغل بدوره عن السياسة بالعلم والحب. فبعد حصوله على الدكتوراه من جامعة هارفارد في ١٩٥٠، تزوج في ١٩٥٣ من زميلته المصرية وداد سعيد، التى كانت قد جاءت الى هارفارد لتستمع الى محاضرات احد أساتذة الفلسفة ، ثم عاد رشدى سعيد الى كلية العلوم مدرسا بقسم الجيولوجيا ، ثم انشغل بتعريب محاضراته في الجيولوجيا التى كان يلقيها حتى ١٩٥٥ بالانجليزية ، فأعاد كتابتها بالعربية تحت الحاح وزير التعليم فى ذلك الوقت كمال الدين حسين ، الذى كان يؤمن بضرورة تعريب تدريس العلوم . فكانت هذه أول محاولة لتعريب الجيولوجيا في مصر . ثم انشغل رشدى سعيد بكتابة كتاب جيولوجية مصر الذى اصبح مرجعا مهما فى هذا العلم وترجم إلى عدة لغات .

يبدو أن انشغال كل من كاتبي السيرة الذاتية عن السياسة بأمور أخرى فى السنوات العشر التالية لثورة ١٩٥٢ ، كان أمرا طبيعيا ومفهوما . فقد كان الاثنان فى بداية حياتهما العملية وفى مقتبل الشباب، فمن الطبيعى ان ينشغلا بترسيخ اقدامها في الحياة الاكاديمية من ناحية، وبالحب من ناحية اخرى . ولكن يبدو أن هناك سببا اخر يتعلق بطبيعة الحياة السياسية فى مصر فى

ذلك الوقت (٥٢ - ٦٢) إذ كانت هذه الفترة فترة صراع بين قائدي الثورة من الضباط وبين الإنجليز من ناحية ، وبين الضباط بعضهم البعض من ناحية أخرى . وقد أبدت الثورة في تلك الفترة قلة صبر إزاء كل الأحزاب السياسية التى كان يحيى الجمل يتعاطف مع بعضها، وكذلك قلة صبر إزاء أساتذة الجامعة من ذوى الاتجاهات اليسارية، التى كان يتعاطف معها رشدى سعيد.

وإنما بدأ نشاط رشدى سعيد السياسى فى منتصف الستينات عندما اختير واحدا من الأعضاء المعينين بمجلس الشعب فى ١٩٦٤. ويتضمن كتابه فصلا مهما عن تجربته كعضو فى مجلس الشعب طوال السنوات العشرين التالية (٦٤ - ١٩٧٣)، ويرسم فيه صورة قاتمة للغاية ، ولكنها للاسف صادقة تماما فى رأيى ، للحياة البرلمانية فى مصر خلال الجزء الأخير من حياة عبد الناصر والنصف الأول من حكم السادات . وهو يلاحظ بحق ايضا ان دور البرلمان لم يختلف اختلافا مهما فى إحدى الحقبتين عن الأخرى . ففى كلا الحقبتين لم يكن للبرلمان دور يذكر لامن حيث التشريع ولا من حيث الرقابة على السلطة التنفيذية. ففى التشريع كان دور البرلمان مجرد الموافقة علي ماتعرضه عليه الحكومة من قوانين . وفى الرقابة لم يتجاوز دور البرلمان نقد وزارات الخدمات

دون أن يكون له حق المساس بوزارات ومؤسسات الخارجية والجيش والرئاسة . ولم يحدث ابدا أن سمح للبرلمان بأن يدين وزيرا او مسئولا او أن يتسبب حتى فى اخراجه فضلا عن دفعه للاستقالة او تعريضه للإقالة .

كما يرسم هذا الفصل صورة قاتمة أيضا لتصاعد قوة التيار السلفي في السبعينات ، ولتدهور صورة الاقباط فى أذهان المسلمين ، وصورة المسلمين فى اذهان الاقباط، وهو ما اتيح له رؤيته عندما عين فى لجنة تقصى الحقائق فى ١٩٧٢ ، فى أعقاب الأحداث الطائفية التى حدثت بمدنية الخانكة فى تلك السنة . إنه يصف صورة الأقباط عند المسلمين كما لمسها من عدة لقاءات قام بها كعضو فى هذه اللجنة (التى كان يرأسها الدكتور جمال العطيفى) ، مع عناصر مختلفة من الشعب من سوهاج وحتى الاسكندرية ، فهو يقول إن صورة الاقباط عند المسلمين كما لمسها هى انهم « أثرياء، كنائسهم واديرتهم مليئة بالذهب، وهم بخلاء يديرون الاقتصاد المصرى من تحت ستار ، عددهم كبير فى الوظائف ، وهم متعصبون ولديهم خطط بعيدة المدى لتنصير مصر وبناء كنائس فى كل مكان فيها .. وهم يدخلون كليات الطب والصيدلة والتربية للاستيلاء على مهن التطبيب وبيع الدواء

والتعليم. ولا تختلف كثيرا صورة المسلمين عند الاقباط ، وإن كان الكلام هنا يتزايد عن الاضطهاد الذى يتعرضون له، والخطط التى تعد لافقارهم وإذلالهم، ومنعهم من ممارسة شعائرهم الدينية او الحصول على الوظائف» (ص ١٣٤) .

ولا أظن أن هذه الصورة او تلك ، مع كل ما تعكسها من مرارة ، تبعدان كثيرا عن الصحة ، خاصة أنه يضيف التحفظ الآتي:

«إن الصورة التى رسمها فى السطور السابقة عن (الآخر) الدينى هى الصورة التى خرجنا بها من مقابلاتنا مع من كانت لهم علاقة بالفتنة ، أو ممن كانوا يعيشون فى بؤر التوتر الطائفى، وهى فى الأغلب غير الصورة التى يرى بها المصريون عامة (الآخر) الدينى . فمعظم الناس ممن لم يتعرض للمدرسة أو الجامعة التى وقعت فى قبضة المتطرفين الدينيين، أو انضم لهم ، أو استمع لدروسهم ، يحمل تراثا عريقا من التسامح وقبول الآخر واحترام الأديان السماوية ، وأماكن عبادتها والقائمين عليها . وقد قصدت من تسجيل ما سمعته فى ميدان العلاقات الطائفية تنبيه المسئولين عن التربية والتعليم والقائمين على مؤسسات المجتمع المدنى، لمواجهة هذا الموقف الجديد قبل ان يستفحل ، خاصة أني لاحظت

ان الكثير من التوجسات التي ذكرتها والتي تبدو سخيفة وبلا اساس ، كان لها صدى وصل حتى إلى آذان صانع القرار نفسه».

ويفرد للدكتور رشدي سعيد فصلا طويلا لفترة رئاسته لمؤسسة التعدين والابحاث الجيولوجية لمدة عشر سنوات ٦٨-١٩٧٧ ، وهي تجربة فذّة تعكس من ناحية إرادة هذا الرجل الصلبة وحبه للاصلاح وتصميمه عليه ، ومن ناحية اخرى تعكس ظروفا سياسية مرة في فترة كانت من أحلك فترات التطور الاقتصادي والسياسي المصري في القرن العشرين .

ولكن القصة التي يرويها د. رشدي سعيد عن هذه التجربة هي أيضا قصة محزنة للغاية . فها هو رجل جاد ونشيط ونزيه وطموح ومحب لبلده ، يتسلم مسئولية قطاع مهم للاقتصاد القومي ، وهي مسئولية هوجدير بها بحكم هذه الصفات ، وبحكم خبرته العلمية ودراسته، وهو يتولى هذه المسئولية في ظروف اقتصادية وسياسة بالغة الصعوبة ، فالهيئة التي عهد إليه بإدراتها تدير هيئة للابحاث الجيولوجية وتشرف على تسع شركات للتعدين معظمها كان في حالة يرثى لها عندما تسلمها في أعقاب حرب ١٩٦٧ ، « فقد أدى احتلال اسرائيل لسيناء إلى أن تفقد الجزء الاكبر من مناجمها

التى كانت تقع فيها ، وإلى أن تجبر أكثر من ثلاثين الف عامل ممن كان يعملون (بهذه المناجم) على العودة الى مصر..

كان الجو كئيباً حقا : مؤسسة انهارت معظم مقوماتها المادية، وعاملون فى حالة اكتئاب ، وشكوى مستمرة ، دون أن يجدوا احدا ليهتم بإمورهم او يستمع إليهم .

كانت هناك ارامل المفقودين فى الحرب واللواتى قطعت عنهم المرتبات ، ولم تحل مشكلة معاشاتهن، وكان هناك مديرو المصانع الذين كانوا يعتمدون على الخامات التى تصلهم من سيناء والذين جاءوا الىّ يستغيثون من أن مصانعهم قد توقفت ، وكان هناك آلاف الموظفين الذين لم يرقوا لسنوات طوال وكان لكل منهم شكوى ووراء كل واحد مأساة ، كما كان هناك آلاف العمال المؤقتين الذين عينوا على مكافآت يعيشون وهم خائفون من الفصل . ولم يكن لهيئة الأبحاث الجيولوجية هيكل تنظيمى او حتى سجل بأسماء العاملين طبقا لتخصصاتهم . وفوق كل ذلك كانت المخازن مكدسة دون اى نظام فى صناديق لم تكن قد فتحت ومكومة فى منطقة خلاء.. وكانت الخرائط والكتب والملفات والعدد فى كل مكان فوق الأسطح وفى الطرقات والأحواش .. الخ ..» .

بدأ رشدى سعيد فى إصلاح كل هذا ووضع مشروعات جديدة لتطوير المناجم القائمة وتحديث وسائل استغلالها ، واستغلال مناجم جديدة ، ودراسة ربطها بطريق جديد يصل إلى ميناء الحمراوية ، الذى يقع شمال مدينة القصير، وتطويره لكى يصبح صالحا لاستقبال السفن ذات الغاطس الكبير . وقام بدراسة إمكانيات حقل جديد من الفوسفات فى ابو طرطور يقع بين الواحات الخارجة والداخلة فأسفرت عن امكانية بناء منجم هائل ينقل صناعة التعدين إلى مستوى العصر وينقل العمران إلى قلب الصحراء (ص ١٠٢) .

كل هذه الامال اصيبت بضربة قاصمة فى اوائل السبعينات، وأخذت اثارها فى التفاقم حتى اضطرت رشدى سعيد إلى تقديم استقالته فى سنة ١٩٧٧ الي وزير الصناعة ، فقبلها فى الحال وبعودة البريد ، وحتى قبل ان يرفعها الى رئيس الوزراء كما كانت تقضى القوانين (ص ١١٩) .

ذلك أنه « توافد على وزارة الصناعة فى هذه الفترة وزراء كانوا يتخذون القرارات الخاصة بشئون الثروة المعدنية دون الرجوع إلينا او إلى أى شخص من المختصين بشئونها . ومن الوزراء من كان لا يعرف شيئا من شيء فى شئونها .

« إلا أنهم كانوا يعملون وفقا لجدول اعمال خاص أُملي عليهم من الأجهزة ومن اصحاب المصالح الخاصة الذين ارتفع نجمهم في سبعينات القرن العشرين .

« وجاء من هؤلاء وزير قام وفي سرية تامة، بنقل تبعية مشروع فوسفات ابو طرطور من إشراف الهيئة التي أرأسها إلي الجهاز التنفيذى لمجمع الحديد والصلب الذى لم يكن فيه واحد يعرف شيئا عن التعدين .

« واتخذ هذا الوزير ذلك القرار دون إبلاغنا ، وعلى الرغم من قرار مجلس ادارة الهيئة المختصة بضرورة بقاء المشروع تحت اشرافها حتى تتم دراسة خاماته وجدواه ، بل وحتى يتقرر انسب موقع لاستخراج الخام الذى كان يوجد على طول الهضبة الممتدة بين الواحتين الخارجة والداخلة .

« وفي ظني أن هذا الوزير قد جيء به تحت ضغط رجال المقاولات الذين كانوا يدبرون للبدء في تنفيذ اعمال المشروع الانشائية والتى كنت ارفض القيام بها قبل الانتهاء من دراستنا للمشروع ومعرفة جدواه .. ومما يؤكد ظني هذا أن المقاولين كانوا اكبر المستفيدين من نقل المشروع، والذى ما كاد يخرج من اشرافنا حتى ارتفعت على أرضه المباني الشاهقة ، وبديء في مد

خطوط الكهرباء والسكك الحديدية وشق الطرق ولما يكن له دراسة للجدوى، كما أنهم كانوا اول من التقط الوزير بعد خروجه من الوزارة وعينوه فى خدمتهم.. « وفى خلال هذه السنوات الاثنين والعشرين حتى سنة ١٩٩٦ انفق ما يزيد على سبعة مليارات من الجنيهات بعثرت على المقاولين وبيوت الخبرة الأجنبية التى جيء بها من كل اركان الأرض وانتهت باغلاقه » (ص ١١٠ - ١١١) .

لم تتح للدكتور يحيى الجمل هذه الدرجة من الاقتراب من العمل السياسى، على الاقل حتى ١٩٦٢ التى ينتهى عندها كتابه. نحن نعرف انه اعتلى منصب الوزارة فى منتصف السبعينات ، ومن ثم فنحن ننتظر منه فى الجزء التالى من سيرته الذاتية ان يزودنا بحصيلة خبرته فى هذا المجال، ونرجو أن يقص هذه التجربة بنفس الدرجة من الصراحة التى اتسمت بها رواية د. رشدى سعيد لتجربته .

لا يكثر رشدى سعيد فى الكلام عن النساء فى حياته ، فهن لايظهرن فى الكتاب إلا لماما ويختفين بسرعة. إنه يهدى الكتاب الى بضعة اشخاص من بينهم شقيقته وداد وزوجها قائلا إنهما : « أضافا الكثير من البهجة والأمل إلى حياتى» وهو تعبير يمثل طريقة التعبير فى الكتاب بأكمله ، بسيط ولكنه رقيق ، ومن ثم فهو

مؤثر. وهو يذكر أمه فى فقرة قصيرة نعرف منها أنها كانت من أسرة أكثر ثراء بكثير من أسرة أبيه مما سمح لها بارسال البنات الى مدرسة الامريكان بالازبكية التى تخرجت منها امه فى ١٨٩٩. « ولم يكن بالدفعة التى تخرجت فيها امى غير عشرين فتاة يمثلن كل او معظم فتيات مصر اللواتى اتيحت لهن فرصة الذهاب الى المدرسة ، وكانت معظم الفتيات من الأرمن والشوام ، ولم يكن من المصريات الخالصات غير ثلاث» ويذكر اخته إنعام التى أفادت من النهضة التعليمية التى أعقبت حصول مصر على الاستقلال فى ١٩٢٢ ، فقد اختيرت أخته ضمن بعثة حكومية من ست عشرة فتاة من خريجات المدرسة السنية بالقاهرة اوفدتهن الحكومة المصرية إلى انجلترا ، والتحقت هذه الأخت بمعهد للفن التشكيلى لتتعلم الرسم . وعندما عادت بعد سبع سنوات كان لها تأثير كبير فى حياة الاسرة، فقد « تغير بيتنا تحت تأثيرها ، فأعادت تنظيم غرفه وأضافت عليها لمسة جمالية وملأتها بالرسوم واللوحات ، التى كانت قد رسمتها بنفسها واقتنتها ، وبالتماثيل التى صبتها أو نحتتها خلال دراستها بالبعثة .

« كما قامت بتغيير الطريقة التى نتناول بها طعامنا الذى اصبحت له ساعات محددة، نتناوله ونحن جلوس فى نظام . وبعد

أن نرتب المائدة ، ونضع الشوكة والسكين فى المكان الذى ينبغى ان توضعا فيه ، ودون أن يسبق واحد منا الآخر فى الطعام . وأصبح لنا نحن صغار العائلة ميعاد مبكر للنوم...» .

كما قامت هذه الاخت بإلحاق اخيها رشدى سعيد بقسم الصبيان بجمعية الشبان المسيحية بالقاهرة . ويقول إن التحاقه بهذه الجمعية كان من أهم ما أثر فى تكوينه إذ كان قسم الصبيان تحت رعاية مربٍ كبير (يعقوب فام) ، صاحب افكار رائدة فى التربية طبقها فى هذا القسم ، فكان الأولاد الذين تتراوح سنهم بين العاشرة والسادسة عشرة « ينتظمون فى فرق كانت تسمى أندية ، كل منها يدير أموره بنفسه، ينتخب من بين أعضائه رئيسا وأمينا عاما ، ويقرر برامجه الرياضية والثقافية والترفيهية، ويدخل فى مسابقات مع غيره من الأندية . وشملت هذه البرامج بالإضافة إلى الرياضة البدنية ، مسابقات القراءة والمناظرات العامة والرحلات والتمثيل والهوايات على اختلافها، والاستماع إلى الموسيقى العالمية والزيارات المنظمة للمتاحف العامة....» (ص ٣٦-٣٧) .

ثم يصف تعرّفه بوداد التى أصبحت زوجته بقوله «وحدث فى أيام دراستى بجامعة هارفارد أحد أهم وأسعد الأحداث التى

غيرت حياتى وجعلتها اكثر إشراقا، فقد تقابلت خلالها بوداد الفتاة المصرية التى حملتها الأقدار لتجيء لعام واحد استقطعته من بعثتها ... وأعجبت بهذه الفتاة المصرية وبادلتنى الإعجاب والحب وتعاهدنا على الزواج بعد عودتنا إلى مصر وقد تم ذلك بالفعل فى سنة ١٩٥٣ » ولا يأتى ذكر الزوجة بعد ذلك كثيرا فى الكتاب، ولكنك تشعر من المرات القليلة التي يذكرها فيها أنها دائما معه، وكأنهما قد أصبحا شخصا واحداً.

أما عن النساء فى حياة الدكتور يحيي الجمل فإنه يذكر عن أمه أنها كانت لا تقرأ ولا تكتب ، ولكنها كانت حادة الذكاء قوية الشكيمة ، «وكانت أقرب إلى القسوة على نفسها وعلى أولادها لاتكاد تترك خطأ صغيرا دون أن تعنف مرتكبه من الأولاد أو من الغير أشد التعنيف . وكانت متحفظة فى عواطفها لا تكاد تعبر عنها أو تبديها..» وذلك بعكس أبيه الذى كان « الحنان مجسما فى رجل . كان رجلا طيبا بكل ما تعنيه هذه الكلمة عند المصرى العادى من أمور منها الإيجابى ومنها السلبى عند هواة تحليل الألفاظ » ولا يخفى الكاتب أنه كان يحس بتعاطف أكثر مع أبيه وبتقدير أكبر لأمه . يذكر أيضا حبه الأول وهو فى الثانية عشرة

من عمره، وهو لايزال فى القرية ، وكان بينه وبين محبوبته قرابة ، ثم ضربه أخوها عندما علم بهذا الحب، ولكن سرعان ما أصيبت بالحمي وماتت فلم يطل الحب الأول كثيراً .

تظهر النساء مرة أخرى أثناء دراسته فى كلية الحقوق، عندما رشح نفسه فى انتخابات اتحاد الطلبة عن طلاب السنة الثالثة، ونجح فعلا فى هذه الأنتخابات. وهو يقول : إن أحد أسباب فوزه الاستعانة بفتيات الدفعة اللاتى كن «رغم قلة عددهن أنذاك يلعبن دورا مؤثراً فى الأغلبية الصامتة. كان عدد الطالبات لا يزيد كثيرا على عشر طالبات، ولكن هؤلاء الطالبات العشر كن محط أنظار طلبة الدفعة كلهاوالتى كانت تزيد قليلا على خمسمائة طالب... وقد تعاهدت الطالبات على مساعدته والدعاية له وسط أبناء الدفعة» . «وهو يشير بوجه خاص إلى مساعدة « تلك الفتاة الأخرى التى كان أبوها وكيلا لمحكمة النقض » (ص ٩٢-٩٣) .

أما أقوى علاقة يشير إليها بينه وبين امراة، فهى تلك التى نشأت بينه، عندما كان فى الخامسة والعشرين، وبين امرأة أمريكية تكبره بعشر سنوات، أثناء عمله فى ليبيا، وكانت تقيم هى وزوجها الأمريكى فى طرابلس. بينما يعمل هو فى فزان ، فكان يلتقى بها كلما ذهب إلى طرابلس . وهو يصفها بأنها كانت

«شعنونة» وقليلة الحظ من الجمال وإن كانت «مثقفة وحادة الذكاء» (ص ٢٢٥) ويصف علاقته بها بأنها كانت « رحلة وعرة وإن كانت قصيرة . وتكررت اللقاءات ، وأحس أن براكين الشباب المكبوتة قد تفجرت فجأة فى أعماقه. وعاش تجربة لم يعرفها من قبل وغرق فى تجربته تلك حتى أذنيه» «ص٢٤٨» .

الكتاب لا يتكلم عن زواجه وأسرته، فهو ينتهى فى ١٩٦٢ والمؤلف لم يتجاوز الثانية والثلاثين من العمر، وإن كان الكتاب يحتوى على إشارة سريعة ربما كانت هى المقدمة لما حدث بعد هذا من زواج. ففى أثناء عمله فى ليبيا قرر فجأة أن يعود إلى القاهرة فى رحلة سريعة لا يذكر سببها.

وفعلا لم تتجاوز الرحلة أربعة أيام «وكان يريد فى هذه الأيام القليلة أن يرى كل الأصدقاء وأن يرى كل الأماكن ولكنه أدرك أنه ليس إلى ذلك من سبيل، وعندما استيقظ فى الصباح وجد نفسه يتجه إلى المكتب الذى عمل فيه لمدة أسبوع قبل تعيينه فى النيابة العامة والذى يعمل فيه الآن أثنان من أعز أصدقائه».

كان هذا المكتب، مكتب مزراحى باشا وصفوت باشا، من أكبر مكاتب المحاماة فى مصر فى ذلك الوقت ويتولى قضايا بعض من أكبر الشركات والبنوك الأجنبية العاملة فى مصر . وأثناء حديثه

فى المكتب مع زميليه القديمين «إذا بفتاة صغيرة تدلف إلى حجرة والدها «صفوت باشا» لكى تصحبه إلى حيث تنتظرهم الأم فى السيارة لكى يذهبوا إلى منزلهم فى المعادى» ويصف يحيى الجمل هذه الفتاة التى كان يفكر فى التقدم لخطبتها بقوله: «إن الفتاة ناضجة ويبدو أنها على قدر من الحياء والخفر وبها ملاحة حقا، إنها ليست بيضاء وهو يحب البشرة البيضاء، ولكن البشرة لا أهمية لها. المهم هو «الجوهر» ولكن ما يدريه بالجوهر، إنه لايعرف عنها شيئا» (ص٢٣٦).

★★★

كان لابد أن يصادف كل من المؤلفين خلال حياته العامة، بعض الشخصيات المهمة التى لعبت دوراً ملموسا فى تاريخ مصر السياسى أو الفكرى أو العلمى، مما يظفر بأعجاب الكاتب أو سخطه.

أما الدكتور رشدى سعيد فيحظى بإعجابه الشديد من بين العلماء المصريين د. محمد عبد الفتاح القصاص، وإليه يهدى رشدى سعيد كتابه «بالإضافة إلى اخته وداد وزوجها وصديق أخر يصفه بأنه «صديق العمر».

وهو يتكلم أيضا بمودة واحترام بالغين عن المرحوم د. جمال العطيفى، القانونى الكبير ووزير الاعلام فى عصر السادات الذى

فقد منصبه لأنه فيما يروى صدق الزعم بأن نظام السادات يمكن أن يسمح بجرعة كبيرة من الحرية فى التعبير عن الرأى ، ورشدى سعيد يحمل ذكريات عطرة لأستاذه وعميد كليته د. على مشرفة . أما من المفكرين المصريين فيعبر رشدى سعيد عن تقديره الخاص لسلامة موسى .

يعبر الدكتور يحيى الجمل بدوره عن اعجابه وامتنانه لبعض العظماء الذين التقى بهم فى حياته. من هؤلاء عباس العقاد، الذى حضر يحيى الجمل بعض الجلسات فى صالونه الشهير ولكنه لايذكر لنا شيئا عن طبيعة المناقشات التى استمع اليها أو عن شخصية العقاد، وإنما يكتفى بالقول بأن صالون العقاد «كان فرصة رائعة للتعرف والقرب من عدد من القيادات الفكرية التى لم يكن يحلم أن يلتقى بها وهو فى تلك المرحلة من العمر » (ص٧٨)

وممن يحتفظ لهم د. الجمل بعاطفة خاصة من أساتذته فى كلية الحقوق الشيخ الجليل عبد الوهاب خلاف، وهو يذكر له قوة منطقه واستنارته وشدة ثقته بنفسه وتيسيره لمادة صعبة «أصول الفقه» حتى تصبح فى مستوى فهم الطلاب، واستطراده أثناء المحاضرة إلى مناقشة موضوعات خارج المادة التى يدرسها، وتتعلق بالحياة العامة. ويذكر له أيضا أنه كان يركب وسائل

المواصلات العامة بينما كان كثير من الأساتذة يركبون سياراتهم الخاصة. كما يذكر له رأيه فى الربا، إذ لم يجد الشيخ خلاف غضاضة فى أن يتقاضى البنك فائدة من المقترضين، وكثير منهم من الأغنياء «مثل عبود باشا» الذين يحققون أرباحا طائلة واستثمار ما يقترضون، وأن يعطى البنك جزءاً من هذه الفائدة لمن أودعوا أموالهم فى البنك وقد لا يكونوا من الأغنياء، وقال : إن هذا لا يمكن أن يعتبر من قبيل الربا الذى حرّمه الاسلام. ولكن د.يحيى الجمل يذكر أيضا ما رواه عن الشيخ خلاف أحد الحاضرين فى صالون العقاد إذ قال هذا الراوى مستنكرا أنه رأى الشيخ خلاف وهو يسير فى الطريق إلى منزله وفى يده حزمة من الفجل أو الجرجير، فانبرى الأستاذ العقاد يدافع عن الشيخ وقال : إنه لا يرى عيبا فى أن الشيخ «أراد أن يأكل جرجيرا فاشترى جرجيرا» (ص ١٠٥) .

يذكر الكاتب أيضا بإجلال وتبجيل الدكتور حامد سلطان أستاذ القانون الدولى الذى قبل أن يشرف على رسالته للدكتوراه فى موضوع «الاعتراف بالدولة» . ويبدو أن امتنانه للأستاذ المشرف كان كبيرا لدرجة أنه عندما أعلن عن حصوله على الدكتوراه «اختلط الفرح بالدموع وأمسك يد أستاذه حامد

سلطان، رحمه الله يريد أن يقبلها فمنعه من ذلك بشدة ومودة فى آن معاً » (ص ٣٠٨) .

أما الشخصيات التى حظيت بالسخط الشديد من جانب د. رشدى سعيد فأهمها شخصية أنور السادات، الذى وجد فيه أكثر من سبب لإثارة حنقه ونفوره. يقول عنه «على الرغم من أن الرئيس «السادات» كان فى العلن كثير الكلام عن الشعب المعلم صانع الحضارة التى يعود تاريخها إلى سبعة آلاف سنة، إلا أنه كان فى الخفاء غير مؤمن بقدرات هذا الشعب، مفتونا بالأجنبى...» ويقول أيضا عنه «لم يكن للرئيس السادات خلال حياته كلها أية صلة بأى عمل منتج، ويبدو أن الرئيس عبد الناصر عرف عنه هذا القصور فلم يوله أى وزارة تنفيذية، ولم تكن لأى من الأعمال التى تولاها قبل أن يصبح رئيسا للجمهورية أية علاقة بالإنتاج» (ص١٨٦).

ويقول رشدى سعيد «روى لى أحد رجال الإعلام الأمريكيين بأن هنرى كيسنجر كان يتعمد إلقاء كلمات المديح عن حكمة الرئيس ورؤيته الأستراتيچية فى البرامج التليفزيونية ، فى الوقت الذى كان يعرف أن الرئيس يشاهد فيه التليفزيون . وقد فعلت هذه الهالة الأعلانية فعلها ، وعادت للرئيس الثقة . وأخذ يعاير الصحفيين المصريين بأنهم لم يكتشفوا عبقريته كما فعل زملاؤهم من الأفرنج» (ص ١٨٨) .

لا تجد مثل هذا النقد اللاذع لأى شخصية عامة فى كتاب د. يحيى الجمل.

★★★

لا يسع من يقرأ كتاب د. يحيى الجمل إلا أن يلاحظ أنه شديد التقدير لمظاهر العظمة والأبهة والرخاء، سواء تعلقت بالسلوك الإنسانى أو بالأشياء المادية البحتة. والظاهر أن هذا التقدير قد بدأ معه مبكرا جدا، فهو يذكر مثلا أنه وهو لا يزال طالبا فى المدرسة الابتدائية، دخل المستشفى لمرض ألم به ووضع «فى حجرة فيها سريران فقط»، ولكنه عندما بدأ يقترب من الشفاء وسمح له أن يتحرك قليلا فى المستشفى «لاحظ أن العنبر الذى كان فيه توجد به حجرة ليس بها إلا سرير واحد. وكان معنى قبول أحد المرضى فى تلك الحجرة أنه صاحب حظوة ومكان كبير . وحرص الفتى أن يعرف من يحتل هذه الحجرة وحده» (ص٤٧) . ويقول أيضا : إنه عندما دخل المدرسة الثانوية «ذهب مع والده إلى محلات (عمر أفندى) ليشترى تلك البدلة ذات اللون الكحلى التى كان كل من يراها من أقارب الفتى يثنى عليها وعليه ثناء مستطابا. وكان الفتى يسر لذلك سروراً شديدا. ومازال حتى يومنا هذا يحب عندما يلبس شيئا جديداً أن يسمع رضا عنه

أو ثناء ممن حـوله» (ص٥٠ – ٥١). وهو يصف نفسـه وهو فى سنوات دراسته الثانوية بأنه كان من علاماته المميزة ذلك الطربوش الذى يلبسه دائما والذى يزيحه إلى الخلف قليلا على جبهته ويميل به قليلا نحو اليمين. وكانت رقبته أيضا وهو يسير ، فيها انحناءة يسيرة، وكلها من علامات الاهتمام بالذات والدوران حولها. وكان والد صديقه.. يقول دائما من باب المزاح إنه يأسى لرقبة الفتى من تلك الانحناءة التى لابد أن دوامـهـا يسـبب له ألما، ولكن الفـتى يتحمله راضيا لأن ذلك يظهره بالمظهر الذى يريده لنفسه من أنفه واعتداد واعتزاز» (ص٧٥).

بعد ذلك بسنوات، وأثناء تحضيره للدكتوراه، ذهب مرة لزيارة الدكتور حامد سلطان فى بيته، لمناقشة ما كتبه من فصول الرسالة، ويصف د. الجمل هذه الزيارة على النحو التالى:

«أخذته رجفة خفيفة، ما يظن أنه رأى فى حياته مسكنا مثل هذا المسكن فى تنسيقه وجماله. كل شيء فيه مرتب وكل شيء فيه جميل.. والحيطان تغطيها لوحات جميلة أصلية، والأرض يكسوها أنواع من السجاد الايرانى الأصيل.. ومازال منذ يومه ذاك إلى اليوم يحب اللوحات ويسعى لاقتنائها ما استطاع إلى ذلك من سبيل، ومازال تعلقه بالسجاد الايرانى واضحاً. وزواره يدركون

ذلك منذ أن يطأوا عتبات البيت ، وهو لا يخفى سعادته عندما يبدون تعليقا جميلا على البيت» (ص٢٩٤).

لا يجد قاريء كتاب د. رشدى سعيد مثل هذا الاحتفال بمظاهر الثراء والأبهة، بل إن من الطريف حقا أن نلاحظ هذا الفارق الصارخ فى هذا الصدد بين الكتابين. إن صاحب «قصة حياة عادية» ، مفتون بظواهر الأشياء وما يبدو منها على السطح، سواء تعلق بجمال الملبس أو فخامة الأثاث أو جلال المنصب أو لون بشرة من يحب، بينما نجد صاحب «رحلة عمر: ثروات مصر بين عبدالناصر والسادات» دائم الغوص إلى ما تحت السطح، بحثا عن حقيقة الشيء وجوهره. الأول يدرس القانون ويختار موضوعا للدكتوراه لا يتعلق بحقيقة العلاقات بين الناس أو بين الدول بل «بالاعتراف بالدولة»، أما الثانى فيدرس الجيولوجيا ويقضى بقية حياته مكتشفا لمنجم لم يكن معروفا، أو منقبا عن معدن مدفون فى باطن الأرض.

كان لابد أن ينعكس هذا الفارق بين الانشغال بظواهر الأمور والانشغال ببواطنها، فى افتتان صاحب «حياة عادية» بعلية القوم ممن بيدهم الحل والعقد والتعيين والنقل والندب والاعارة والترقية، بينما لا يذكرهم صاحب «رحلة عمر» إلا بصدد قضية تتعلق

بإصلاح البلد أو تخريبها. ولابد أن يلفت نظر القارئ في كتاب رشدى سعيد أنه عندما ينشر في إحدى الصفحات صورة التقطت لأعضاء قسم الجيولوجيا بكلية العلوم في سنة ١٩٣٩، يذكر تحتها أسماء من ظهروا في الصورة من الأساتذة المصريين والأجانب، ولكنه يذكر أيضا اسم «عم عفيفى فراش القسم»، وكذلك اسم «محمد القاضى» الفراش الآخر الواقف في الصف الأعلى. وهو لايجد غضاضة في أن يكتب وصفا مطولا ومؤثرا للغاية «لعم على»، خادمه المخلص، بمناسبة وفاته في ١٩٧٨ فيقول عنه:

«واجهتنى أنا وعائلتى أزمة كبيرة بفقدان «عم على» الذى كان يقوم بخدمتنا منذ أكثر من عشرين سنة، إثر حادث بالطريق صدمته فيه سيارة وهو عائد إلى منزله.. كان عم على رحمه الله «على جاد عيسى» أحد أعمدة منزلنا، على الرغم من أنه كان في وظيفة السفرجى، فقد كنا نعتمد عليه في إدارة شئون منزلنا، وكان يشرف على نظافته وترتيب حديقته وشراء حاجاته وإعداد طعامه وإسال بريده وتسلمه وإيداع وسحب الشيكات والنقدية من البنوك، كما كان يحافظ على أولادى عندما كنا نضطر للخروج من المنزل ونتركهم وحيدين فيه.. وكانت أمانته فائقة ومواعيده مضبوطة يستطيع الواحد أن يضبط ساعته عليه .. كنت أنا ووداد

والأولاد نتركه وراءنا طيلة النهار وحيدا فى الفيلا التى أصبحت معروفة بأسمه بين سكان المنطقة. وكان عم على طويل القامة أسمر اللون وسيم الشكل حسن الهندام، قفطانه الأبيض يكاد يقطر بياضا.. وكان بينى وبينه صداقة ومحبة كبيرة، وكنت أقضى الوقت الطويل فى الحديث معه، فقد كان على وعى سياسى يفوق وعى الكثيرين ممن كان علىّ أن أتعامل معهم، وكان يتابع الأخبار عن طريق الراديو. وارتفع قدرى عنده عندما سمع فى إحدى نشرات أخباره عن مقابلاتى مع عبدالناصر. وكان عم على شديد التدين لا يترك فرضا، وله احترام كبير للأديان السماوية وأماكن عبادتها والقائمين عليها، كما كان شديد الاحترام والحب لامرأته.. كان بعض زملائه ينعون عليه عمله عند الأقباط، ولكنه كان يصدهم ويأتينى شاكيا وهو فى حزن شديد على ما آل إليه فهم الدين على أيدى هؤلاء الجهال.. كان عم على رجلا نبيلا، كلمته واحدة لا يعرف اللف والدوران، يحترم عمله ومواعيده والتزاماته، وصادقا مع نفسه ومع غيره، وحاملا لتراث عريق من الحضارة لم تفسده مدرسة أو تطلعات لم يكن بالامكان تحقيقها، وقد وجدنا تعويضه صعبا» (ص١٧٢ - ١٧٣).

(١٢)
ثروت أباظة
شــىء من الخـــوف

للمصريين مزايا كثيرة ولكن بهم أيضا عيوب لا يجب إنكارها. نحن شعب صبور، قانع إلى ما يقرب أحيانا من الزهد، خفيف الظل، له موقف بالغ التحضر من الحياة والموت، وفى معاملة الغرباء والضعفاء، متسامح سريع الصفح، ولديه القدرة على الترتيب الصحيح للأولويات، وينفر من المبالغة فى الاهتمام بالصغائر وتوافه الأمور، وهو أكثر تقديرا للخلق الكريم منه للقوة أو المال.

كل هذا صحيح. ولكن المصرى أيضا قد يزيد صبره عن الحد المقبول، فيقبل أكثر مما يجوز قبوله، وهو مجامل إلى حد الإفراط، وكثيرا ما يفضل السكوت على الجهر بالحق طلبا للسلامة أو كرها للعنف، وهو قليل الثقة بقدرته على تغيير الأمور وإصلاح ما فسد، يسرع إلى التسليم باستحالة الإصلاح وإلى الاعتقاد بأن الأمور ستظل على الأرجح على ماهى عليه مهما بذل من جهد. قانع

أحيانا إلى درجة فقدان الهمة، متسامح أحيانا إلى درجة تجافى الشجاعة.

لابد أن هذا كله، الحسن منه والقبيح، كان له أثر فى كثير من الظواهر الاجتماعية فى مصر وفى تشكيل بعض ملامح التاريخ المصرى . من هذه الظواهر والملامح مثلا رسوخ ظاهرة «الطبقية» فى المجتمع المصرى، وأقصد بها استعداد المصريين، بدرجة تفوق ما يمكن أن يلاحظ فى غيرهم، لقبول انقسامهم إلى طبقات، وكأنه انقسام طبيعى وسنة من سنن الكون . ومنها أيضا موقف المصريين بصفة عامة من السلطة، أى سلطة، وفى أى ميدان من الميادين، سياسية كانت أو إدارية أو ثقافية . فصاحب السلطة فى مصر مرهوب ومطاع، حتى ولو لم تتجاوز سلطته التوقيع على تجديد رخصة سيارة ، يتودد إليه ويخطب وده ولو لمجرد تفادى شره. فإذا كان صاحب السلطة هو أيضا من المنتمين إلى الطبقات العليا من البشوات والبكوات، تضاعفت الرهبة وزادت الجهود المبذولة للتودد إليه والتقرب منه، أو على الأقل قوى الاستعداد لغض البصر عن أخطائه والسكوت عن نقائصه.

طافت بذهنى هذه الخواطر عندما شرعت أبحث عن تفسير لهذه الظاهرة المدهشة فى التاريخ الحديث للثقافة المصرية، ظاهرة

الأستاذ ثروت أباظة، الكاتب والروائى المعروف، والذى رحل عن دنيانا فى ١٨ مارس عام ٢٠٠٢ . ورحت أستعيد مراحل حياته منذ مولده فى سنة ١٩٢٧ وحتى وفاته فى سن الخامسة والسبعين، فى محاولة لفهم كيف تسنى لرجل له هذا القدر المتواضع جدا فى رأيى من الموهبة والاستعداد الفطرى، سواء كأديب أو كرجل سياسة، أن يكون له هذا الحضور القوى فى الحياة الثقافية والصحفية فى مصر لعشرات من السنين، وأن يحتل هذه المناصب المهمة والمؤثرة فى حياتنا الثقافية والسياسية، مرة كرئيس لمجلس إدارة مجلة مهمة، ومرة كمسئول عن الصفحة الأدبية فى أهم جريدة يومية، ومرة كرئيس لاتحاد الكتاب، ومرة كوكيل لمجلس الشورى، فضلا عن احتلاله مساحة مهمة من أهم الجرائد المصرية ، ينشر فيها عمودا أسبوعيا دون انقطاع لأكثر من عشرين عاما، وتردد اسمه دون انقطاع فى الصحف والمجلات والإذاعة والتليفزيون لأكثر من ثلاثين عاما، إما ككاتب مقال أو قصة أو رواية مسلسلة أو سيرة ذاتية ، أو مدل بحديث سياسى أو مؤلف مسلسل تليفزيونى أو فيلم سينمائى، أو كمشارك دائم فى لقاء رئيس الجمهورية السنوى بالأدباء والكتّاب فى افتتاح معرض القاهرة للكتاب . وهو فى هذه اللقاءات دائما

يجلس فى الصف الأول، ودائما يطلب الكلمة ، ودائما يسمح له بالكلام. وهو نادرا ما أن يذكر اسمه فى الصحف والمجلات وسائر وسائل الإعلام إلاَّ مقرونا بوصف الكاتب الكبير، كما يشار إلى مقاله الأسبوعى فى الجريدة القومية اليومية، فى الصفحة الأولى، تنبيها للقراء بوجود المقال فى الداخل. وهو فضلا عن هذا كله قد حصد كل الجوائز التكريمية المهمة التى يمكن أن يحصل عليها كاتب فى مصر، جائزة الدولة التشجيعية فى سنة ١٩٥٨ ، وهى أول سنة تمنح فيها هذه الجائزة، ثم جائزة الدولة التقديرية فى سنة ١٩٨٣ . وعندما أنشئت جائزة مبارك فى سنة ١٩٩٩، لتكون أعلى جائزة فى مصر على الإطلاق يمكن أن تعطى لكاتب أو عالم أو أديب، ذكر اسم ثروت أباظة من بين أوائل المرشحين لها، إلى جانب اسم الأستاذ نجيب محفوظ الحائز على جائزة نوبل، وظل هذا الترشيح يتكرر ذكره حتى أعلن ثروت أباظة أنه سوف يتنازل عن هذا الترشيح لأنه لا يحب أن يدخل فى منافسة مع نجيب محفوظ ، وكان معنى هذا بالطبع إمكانية المقارنة بين القيمة الأدبية لهذين الكاتبين.

★★★

لم يكن غريبا إذن أن يحظى خبر وفاة الأستاذ ثروت أباظة باهتمام كبير من وسائل الإعلام المصرية، ولكنى لا أخفى

استغرابى أن شارك فى الكتابة عنه بعد وفاته هذا العدد الكبير من الكتّاب ، الكبار والصغار، المشهورين والمغمورين. لقد حرص كثيرون من هؤلاء على الإشارة إلى «اختلافهم معه فى الكثير من مواقفه»، وكأنهم يحاولون التخفيف من وقع ما سوف يكتبون فى الإشادة به، ولكنهم جميعا لابد أن شعروا بنوع أو بآخر من الواجب يقتضى منهم المشاركة فى رثائه والتعبير عن حزنهم لفقده.

إذن فقد «ملأ الرجل الدنيا وشغل الناس»، ولكن لابد أن يكون معنى هذه العبارة هنا مختلفا جدا عن المعنى الذى قصده من قال هذه العبارة لأول مرة فى رثاء الشاعر العظيم المتنبى. نعم لقد ملأ ثروت أباظة الدنيا وشغل الناس، ولكن المدهش هو أن يكون كل هذا الأثر لرجل له هذا القدر المحدود جدا من الموهبة. الأمر إذن «ظاهرة» بكل معانى الكلمة، وهى تستحق التفكير والمناقشة ولايجوز أن يصرف النظر عنها وكأنها من طبيعة الأمور. والحقيقة أنى أميل إلى الاعتقاد بأن من الصعب جدا أن نتصور أن يحدث مثلما حدث لثروت أباظة فى أى بلد آخر غير مصر، سواء كان بلدا غربيا أو عربيا. فأنا لا أتصور حدوث مثله فى بلد كانجلترا أو فرنسا، كما لا أتصور أيضا حدوثه فى بلد كالعراق أو السودان.

الظاهرة فى رأيي مصرية مائة فى المائة، ولها علاقة وثيقة بما بدأت الحديث به عن بعض طبائع المصريين، وهو ما سأحاول الآن أن أبينه.

★★★

بدأت حياة ثروت أباظة بكذبه صغيرة بيضاء ارتكبها والده الأستاذ إبراهيم دسوقى أباظة باشا. إذ يروى لنا أن والده سجل تاريخ ميلاده على أنه ١٥ يوليو سنة ١٩٢٧ بينما الحقيقة أنه ولد فى ٢٨ يونيو من نفس السنة، وكان ذلك فى القاهرة، ولكن والده انتظر حتى عاد إلى بلدته غزالة بمركز الزقازيق فسجل تاريخ ميلاده متأخراً ١٧ يوما.

فيما عدا هذا الفارق البسيط بين تاريخ الميلاد الفعلى والتاريخ المسجل ، كان الطفل ثروت فى كل ناحية من النواحى طفلا عاديا، لم تبدر منه أى علامة من علامات النجابة المبكرة، بل كان كثيرا ما يصيبه التعثر فى دراسته. ولكن من المؤكد أنه كان لهذا الابن صفتان تميز بهما عن أقرانه منذ الصغر. الصفة الأولى تتعلق بعزمه المبكر جدا على أن يكون كاتبا. قد يكون لهذه الفكرة علاقة بكون عمه عزيز أباظة باشا شاعرا مشهورا، أو بأن أباه (على حد تعبير الدكتور عبدالعزيز شرف فى دراسة كتبها عن ثروت أباظة

فى التـقـديم لبـعض رواياته) «كـان يرعى بمـاله وجـاهـه الأدباء والشـعـراء». هـذه الصـفـة (أى العـزم من الصـغـر على أن يصـبح أديبا) لا يمكن أن يثور عليها أى اعتراض بالطبع لولا أن مفهوم الأديب والكاتب عند الشـاب الصـغـيـر ثروت أباظة كان مـفـهـومـا بدائيـا للغاية ، وخاطئـا إلى أبعـد مـدى. ذلك أنـه كان يعتـقـد أن الأديب هو الشـخص الذى يكتب بلغة عربيـة سليمة فلا يخطىء فى تطبيق قـواعـد النحـو والصـرف، فـيـرفـع الفـاعل دائمـا وينصب المفعول، ويحفظ بعض أبيات الشعر ويستخدمها لدعم وتأييد بعض المعانى التى عبر عنها (على طريقة: أو كما قال الشـاعر)، ويعرف مـعانى بعض الكلمات العربيـة الصـعبـة أو غيـر المألوفة التى لا يعرفـهـا معظم القراء ويحـتاجون (أو قد يحـتاج هـو نفسـه) لمعرفة معانيها إلى الكشف عنها فى القواميس.

ليس هذا فى حد ذاته أمرا غريبا أو غير مـألوف، فكثيرون من الأولاد فى سن الصـبا والمراهقة يتصـورون الأمر على هـذا النحو الذى لا يميـز بين الأديب الموهوب ومـدرس اللغـة العـربيـة، أو بين القـصـة أو الروايـة الناجـحـة وبين مـوضـوع الإنشـاء النمـوذجى والمرصع بكلمات غير مفهومة بتاتا، والذي كان يطلب منا بعض المدرسين أن نحفظه عن ظهر قلب «للتقوية» فى الإنشاء، وكنا نتندر

به أيحانا ونسخر منه، حتى فى تلك السن، إذ كنا ندرك بفطرتنا الخطأ الذى ينطوى عليه بسبب افتقاده لأى تلقائية وبعده عن التعبير الصادق عن الواقع. كنا مع ذلك كثيرا ما نقدم على كتابة مثل هذه الموضوعات الإنشائية، إما مسايرة لمدرسى اللغة العربية، أو استسهالا للأمر، أو لعجزنا عن أن نفعل أى شىء أفضل من هذا. لم يكن هذا مدهشا فى حد ذاته، وإنما المدهش هو أن هذا الشاب الصغير ثروت أباظة ظل ثابتا عند هذا الاعتقاد منذ أيام صباه الأولى وحتى نهاية حياته، مما يظهر حتى فى عناوين رواياته ومقالاته، إذ يظهر فيها تفضيله للمظهر الفخم والعبارات الرنانة، حتى لو خلت من المعنى، على التعبير البسيط الذى ينفذ إلى القلب مباشرة بصدقه وواقعيته. هاهى على سبيل المثال عناوين بعض رواياته: «هارب من الأيام»، «ثم تشرق الشمس»، «لقاء هناك»، «شىء من الخوف»، «أمواج ولا شاطىء»، «جذور فى الهواء»، «خيوط السماء»، «أحلام فى الظهيرة»، «النهر لا يحترق».. إلخ. كما أن له مسرحيتين إحداهما بعنوان «الحياة لنا»، والأخرى بعنوان يصعب تصديقه هو «حياة الحياة». وأما مجموعات قصصه القصيرة فهاهى عناوين بعضها: «الأيام الخضراء»، «ذكريات بعيدة»، «لأنه يحبها»، «السباحة فى الرمال»، «وبقى شىء». وأما

سيرته الذاتية فهي بعنوان «نكريات لا مذكرات» ويصفها بأنها «سيرة شبه ذاتية». والله أعلم بما هو الفرق بين الذكريات والمذكرات، وبين السيرة الذاتية والسيرة شبه الذاتية.

★★★

هذه هي الصفة الأولى التى اتسم بها الكاتب ثروت أباظة منذ نعومة أظفاره، أما الصفة الأخرى فهى درجة عالية جدا من العناد والإصرار والمثابرة والاستعداد للإلحاح على الآخرين حتى يحصل منهم على ما يريد، مع ثقة لا يخامرها أى شك بجدارته واستحقاقه لما يطلب. هذه الصفة أيضا يمكن أن تكون فى ظروف معينة صفة مرغوبة ومطلوبة ولا غبار عليها، وذلك إذا اقترنت برغبات مشروعة وميول صحية مما يعود بالنفع على الآخرين. ولكن من المؤكد أنها تصبح ثقيلة ومكروهة إذا اقترنت برغبات غير مشروعة وغير مبررة أو بطموحات صغيرة أو بالغة الأنانية.

هكذا كان الأمر للأسف مع ثروت أباظة : عناد وإصرار ومثابرة وإلحاح للحصول على اعتراف الناس به كأديب كبير وروائى موهوب وكاتب صحفى قدير ، وهو فى الحقيقة غير مؤهل بمقتضى استعداداته الفطرية لأى شيء من هذا. وأقول إن الأمر كان مؤسفا لأن النتيجة كانت كما نرى. رجل ذو موهبة محدودة

للغاية يصبح له هذا الوجود الدائم والقوى فى الحياة الثقافية المصرية لعدة عشرات من السنين، فيملأ الدنيا بالفعل ويشغل الناس، بينما كان الأوجب أن يملأ الدنيا أدباء أكبر منه قدرة وأن ينشغل الناس بأشياء أخرى غير ما يكتب وينشر.

ولكن من المؤكد أن هذا الذى حدث لم يكن فقط نتيجة لخطأ ارتكبه ثروت أباظة، فكلنا للأسف مسئولون عما حدث، بما فى ذلك بعض من أكبر كتابنا وأدبائنا ومفكرينا طراً، من طه حسين إلى نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم. وكان الخطأ فى هذه المرة ناتجا عن بعض تلك الصفات العتيدة فى المصريين والتى ذكرتها فى أول هذا المقال: استعداد مدهش للصبر وتحمل المكاره، وعزوف عن مواجهة الأمر المعوج والتصدى له ووقفه عند حده، وتسامح أكبر من اللازم مع المخطىء، واستعداد للمجاملة حتى عندما تكون المجاملة مكروهة أو بالغة الضرر، بل ويزيد هذا الاستعداد المدهش للصبر والتسامح والمجاملة عندما يكون الشخص المطلوب مجاملته أو الصبر عليه منتميا إلى شريحة من الشرائح الاجتماعية العليا، وعضوا من أعضاء الطبقة الممتازة. فهنا يتضافر هذا الاستعداد الطبيعى لدى المصريين للصبر والمجاملة مع استعدادهم الطبيعى أيضا لقبول هذا الترتيب الطبقي للناس وكأنه من طبيعة الأمور

وسنن الكون، وعندما يتضافر هذان الاستعدادان لا يصبح هناك مجال للدهشة عندما يستمر تمتع كاتب مثل ثروت أباظة بما تمتع به من حظوة وامتيازات على مر العصور، في عصر الملكية وعصر الثورة على السواء، وأيا كان شكل الحكم أو طبيعة النظام السياسي، وطوال فترة تزيد على نصف قرن.

★★★

بدأ الأمر مبكرا للغاية، فقد كان الشاب أو الصبي ثروت متعجلا للغاية لإثبات وجوده، وكان انتماؤه لأسرة كبيرة وثرية وذات نفوذ سياسي واجتماعي ملحوظ، واعتلاء أبيه منصب الوزارة عدة مرات في حكومات الأقلية التى كان كثيرا ما يلجأ إليها الملك عندما يضيق ذرعا بحكومة الوفد، من العوامل الملائمة للغاية لأن يظفر الشاب الصغير بما يريد.

شرع الكاتب الصغير فى منتصف الأربعينيات، يقدم مقالاته لمجلتي «الثقافة» و«الرسالة»، أهم المجلات الثقافية في مصر فى عصر ماقبل الثورة، فنشرت له المجلتان بعضها. ولا يبدو هذا غريبا الآن، كما أنه لم يكن غريبا وقتها ، إذ لا يبدو أن هناك ضررا من نشر مقالة لشاب صغير لم يبلغ العشرين من عمره يلخص فيها رواية جديدة لنجيب محفوظ، كتلك المقالة التى نشرتها

له مجلة «الرسالة» فى سنة ١٩٤٦ عن رواية «القاهرة الجديدة»، مهما كان حظ المقالة ضئيلا من القيمة الأدبية، وذلك على سبيل التشجيع، وعلى أمل أن يساعده هذا النشر على التحسن والتقدم وتحصيل المزيد من الثقافة.

ولكن يبدو أن درجة التقدم التي حققها ثروت أباظة فى الأعوام العشرة التالية لم تكن كبيرة، فروايته «الهارب من الأيام» التى نشرها فى سنة ١٩٥٦، لا تدل على أى نضج فنى أو فكرى. لقد حصلت هذه الرواية على جائزة الدولة التشجيعية فى أول عام تمنح فيه هذه الجائزة سنة ١٩٥٨ ، وهو ما لا أستطيع تفسيره إلا بما عرفناه عن ثروت أباظة بعد ذلك من عناد وجرأة ومثابرة ، وهى صفات كان لابد أن تأتى بثمارها بحصوله على الجائزة . والجائزة على أى حال «تشجيعية» مما يمكن أن تستخدمه لجنة منح الجائزة كتبرير لمنحها لمثل هذه القصة.

الأمر الأكثر مدعاة للدهشة، وإن كنت استطيع أن أتصور أسبابه، هو قبول الدكتور طه حسين كتابة المقدمة لهذه القصة وأن يصفها فى هذه المقدمة بأنها «ممتعة». إن الذى يقرأ هذه المقدمة اليوم لابد أن يتصور مدى العناء الذى لقيه طه حسين وهو يجلس مضطراً لكتابتها. فهو يذكر شعوره الحقيقى إزاء القصة فى جملة،

ثم يشعر بضرورة إطرائها على نحو أو آخر، ثم يؤنبه ضميره على ما فعل فيعبر مرة أخرى عن حقيقة مشاعره وهكذا.

لنقرأ مثلا العبارات التالية من مقدمة طه حسين لرواية «هارب من الأيام»: «أعترف بأن عنوان هذه القصة وقع من نفسى موقع الغرابة، فليس الهرب من الأيام شيئا يتاح للأحياء مهما يفعلوا، إلا أن يفرضوا على أنفسهم الموت. وأكبر الظن أن هذا العنوان إنما راق المؤلف لأن فيه شيئين ، الغرابة والغموض، يروعانه هو أولا، ويروعان كثيرا من قرائه بعد ذلك، وإن كان شيء منهما لم يرعنى ، ولو أنى أطعت العنوان لانصرفت عن قراءة القصة، ولحرمت نفسى متعة قيمة حقا». هكذا يبدأ طه حسين مقدمته، ثم يضيف بعد قليل: «وما أظن الواقعيين بين كتابنا من الشباب يرضون عن هذه القصة كل الرضى، فهى لا تصور الواقع كما يصورونه، وكما يجب أن يصوره غيرهم من الذين يعرضون لكتابة القصة خاصة، أو للإنشاء الأدبى بوجه عام».

واضح أن طه حسين يستصعب الكتابة عن القصة ولا يدرى ماذا يقول دون أن يغضب مؤلفها، ومن ثم يشرع فى تلخيص القصة بالتفصيل دون مبرر، ثم يقول بعد أن ينتهى من ذلك :

«كل هذا ابتكره خيال الكاتب الشاب وليس عليه بذلك بأس، فمن حق الكاتب أن يستجيب لخياله، حتى حين ينأى به عن الواقع

شيئا، ولكن ليس للكاتب أن ينسى أن قصته تنشر على الناس فيقرأها منهم الراشدون والقاصرون، ويقرأها منهم العقلاء والأغرار.. ولست أدرى من أين اشتق خيال الكاتب هذه الصورة، صورة العصبة الآثمة التى تتخذ الإثم وسيلة إلى البر وتتخذ البر نفسه وسيلة إلى الإثم.. ولا يغضب الكاتب، فقد كنت أحب له أن نجد صيغة أخرى غير الأخذ من الأغنياء والرد على الفقراء».

ثم يخشى طه حسين أن يكون قد اشتد على المؤلف، فيبحث عن شيء جيد ليقوله عن القصة فلا يجد إلا الثناء على اللغة العربية التي يستخدمها الكاتب فيقول:

«وأنا بعد هذا معجب بمنهج الكاتب فى قصته، ومذهبه فى هذه الكتابة باللغة الفصيحة النقية التى لا تشق على قاريء مهما يكن حظه من الثقافة».

★★★

كان ثروت أباظة قد بلغ الثلاثين عندما حصل على جائزة الدولة التشجيعية على رواية «هارب من الأيام» ولكن يبدو أن الجائزة لم يكن لها هذا الأثر المرجو منها، فالظاهر أنه خلال الأعوام التسعة التالية (٥٨ – ١٩٦٧) كان يشعر بشيء من الإحباط، قليل الإنتاج وقليل النشر، فلم يتردد اسمه فى وسائل

الإعلام. وقد كتب ثروت أباظة كلاما مدهشا حقا عن هذه الحقبة من حياته، عندما نشر سلسلة من المقالات عن سيرته الذاتية فى جريدة «الأهرام» ، وإن كان قد سماها هذه التسمية الغريبة أيضا وهى «سيرة شبه ذاتية». قال الأستاذ ثروت إنه قضى الفترة المنقضية ما بين تخرجه فى كلية الحقوق فى سنة ١٩٥٠ وبين أوائل السبعينيات بلا وظيفة وكان يقضى معظم وقته خلالها فى البيت:

«أربعة وعشرون عاما من عمرى قضيتها بلا وظيفة، واضطررت فى أثنائها إلى بيع معظم ما تركه أبى لى من أرض حتى أواجه الحياة الضرورية».وهو يفسر هذا التبطل عن العمل خلال هذه الفترة الطويلة، تفسيرا لا يقل غرابة، وهو أن والده رفض أن يرجو حافظ باشا عفيفى فى أن يجد وظيفة لابنه بعد تخرجه رغم استعطاف الابن له. ثم يضيف إن هذه البطالة كان لها بعض المنغصات، فهو يقول: «ولعل بقائى هذا فى البيت كان السبب المباشر لكثرة الشجار بينى وبين زوجتى.. وربما كانت سننا المبكرة سببا آخر فى التمسك بتوافه الأمور وصغيرها وتضخيم الأخطاء والمبالغة فى تقويمها.. وقد استمرت هذه الحالة من الشجار حتى علت بنا السن وبلغنا الأربعين تقريبا».

ولكن الدكتور عبدالعزيز شرف الذى كتب دراسة عن ثروت أباظة ونشرها كمقدمة لمجلد يضم أربعا من رواياته، يذكر واقعة أخرى تسببت فى انقضاء هذه المدة دون عمل، فيقول الدكتور شرف: «ذهب مرة إلى عبدالملك حمزة رئيس مجلس إدارة شركة الملح والصودا، وكان صديقا لوالده، يعرض عليه أن يعمل محاميا للشركة، فماطله حتى ظهرت روايته الأولى (ابن عمار) وعندئذ قال له عبدالملك حمزة (لن أعينك لأنك عبقرى. ولا يمكن أن أدفن عبقريتك فى الوظيفة).. وضاع بين كبرياء أبيه وعبقريته ما يقرب من الثلاثين عاما بلا وظيفة».

ولكن فضلا عن عدم الاشتغال بعمل ما خارج البيت، كانت هذه الفترة (٥٨ - ١٩٦٧) فترة مجدبة أيضا فى حياة ثروت أباظة الأدبية، إذ لا تظهر قائمة أعماله أى عمل منشور له فيما بين رواية «هارب من الأيام» (١٩٥٨) وقصة «شىء من الخوف» (١٩٦٧).

وهى حقيقة لا تخلو بدورها من غرابة بالنظر إلى أن هذه الحقبة كانت من أخصب الحقب فى تاريخ الحياة الثقافية فى مصر. ففى نفس هذه السنوات لمعت أسماء نجيب محفوظ بعد نشره ثلاثيته الشهرية، ويوسف إدريس بقصصه، ونعمان عاشور وسعد الدين وهبة والفريد فرج بمسرحياتهم، وأحمد بهاء الدين

وصلاح جاهين وصلاح عبدالصبور وأحمد عبدالمعطى حجازى بمدارسهم الجديدة فى الصحافة والشعر.. إلخ.

كانت هذه الفترة أيضا هى أوج ازدهار «الناصرية» بمشروعاتها الإنمائية وبرامجها لإعادة توزيع الدخل وجرأتها وطموحاتها السياسية فى مصر والعالم العربى، وقد تلقى هذه الحقيقة الأخيرة الضوء على السبب الأساسى لجذب حياة ثروت أباظة الأدبية فى هذه الفترة. فثروت أباظة لم يكن، على الأرجح، على نفس الموجة من المشاعر والتعاطف التى كان عليها الناس فيما بين ١٩٥٨ و١٩٦٧، ولا كان النظام الناصرى بدوره ينظر بعين العطف لرجل كثروت أباظة، سواء من حيث موقع أسرته قبل الثورة، أو من حيث أهميته ككاتب وأديب. لم يكن هناك مفر أمام النظام من إفساح المجال لرجل مثل توفيق الحكيم، كلما أراد الكتابة والنشر، إذ ليس من الممكن تجاهل موهبة كموهبة الحكيم مهما كان قليل التعاطف مع النظام ورئيسه، أما ثروت أباظة فلم يكن من الصعب على النظام تجاهله.

ولكن يبدو أن وقوع كارثة سنة ١٩٦٧، كان سببا فى عودة النشاط إلى ثروت أباظة فى الكتاب والنشر. فإذا بهذا الكاتب الذى ظل مختفيا عن الساحة نحو عشرة أعوام، ينشر فى سنة

١٩٦٧ قصة اسمها «شيء من الخوف»، أصبحت تعتبر بعد ذلك أهم ما كتبه ثروت أباظة ، ويشير إليها الكثيرون على أنها أفضل أعماله، كما أن كثيرين لا يشيرون إلى غيرها.

والقصة بدورها غريبة من أكثر من ناحية. ربما لم يكن اسمها نفسه غريبا من ثروت أباظة في ضوء ما ذكرناه من قبل عن طريقته في اختيار أسماء قصصه (فلماذا «شيء» من الخوف وليس مجرد الخوف)؟.

ولكن أغرب ما يتعلق بقصة «شيء من الخوف» هو بلا شك ما حظيت به من شهرة. فهاهي ذي مرة أخرى قصة من النوع الذي يكتبه شاب صغير في مقتبل العمر ، يعرف قواعد النحو والصرف وبعض الكلمات غير المألوفة من اللغة العربية، وكلمات ينقب الكاتب عنها حتى يجدها ويستخدمها للتعبير عن مشاعر ومواقف لا صلة لها بالواقع ولا بمشاعر الكاتب الحقيقية، ومن ثم لا يمكن أن تثير مشاعر القاريء أو تشوقه إلى قراءة المزيد.

أما الشيء الطريف في أمر هذه الرواية، وإن كان بدوره مؤسفا، فهو ما أحيطت به الرواية من ادعاءات الشجاعة والبطولة فلقد تكرر كثيرا، أثناء حياة المؤلف وبعد وفاته، القول بأن ثروت أباظة في هذه الرواية قال رأيه بشجاعة في جمال عبدالناصر

وثورة يوليو، أثناء حياة عبدالناصر نفسه، مما يضفى على ثروت أباظة صفات لم أعثر على أى دليل عليها فى أى فترة أخرى من فترات حياته، إذ لم أصادف قط أى ذكر لأى موقف أو تصريح صدور من ثروت أباظة، خلال حياة أى رئيس من الرؤساء الثلاثة، عبدالناصر أو السادات أو حسنى مبارك، ينطوى على نقد أو اعتراض أو احتجاج على موقف سياسى أو شخصى لهذا الرئيس أو ذاك، باستثناء هذه الإشارة المتكررة إلى رواية «شىء من الخوف». لهذا كان لابد أن يكون استغرابى شديداً عندما رحت أبحث عن أى مغزى سياسي لهذه الرواية، أو أى شبه بين أحداثها وبين أحداث ثورة يوليو، أو بين أى شخصية من شخصياتها وشخصية عبدالناصر أو أى رجل من رجاله، بل وأى شىء فى الرواية على الإطلاق يوحى بأن كاتبها كان يفكر فى السياسة أثناء كتابتها، فلم أجد أى شىء من هذا . القصة لا علاقة لها من قريب أو بعيد بالسياسة، والشخصية التى يقال إنها ترمز لشخصية جمال عبدالناصر، وهى شخصية عتريس، هى شخصية رجل يهوى الإجرام لسبب غير واضح وغير مفهوم، ويعتدى على الناس ويخيفهم بلا مقدمات ولا بيان لأى دوافع مقبولة أو غير مقبولة، ومن ثم فهى شخصية يصعب حتى وصفها بأنها شخصية كريهة،

إذ أنها شخصية لا وجود لها ولا حتى على الورق، بل ولا حتى فى خيال الكاتب، وإنما هى نتيجة لرص الكلمات بعضها بجوار بعض، مع الادعاء بأن هذه الكلمات المرصوصة تشكل قصة أو رواية. هذا هو أقصى ما يمكن للمرء أن يقوله عن هذه «الرواية»، ولهذا فإن وصفها بأنها «سياسية» أو القول بأن فى كتابتها «شجاعة» أمر غير جائز أو مقبول. ولابد أن الذين يقولون هذا إما لم يقرأوا الرواية ، أو دفعتهم إلى قوله اعتبارات أخرى ترجع إما إلى علاقتهم الشخصية بكاتبها، أو اتفاقهم معه فى كراهية عبدالناصر، أو مجرد تكرار لما سبق لآخرين قوله.

★★★

أما قصة ثروت أباظة نفسه بعد وفاة عبدالناصر فهى قصة مألوفة تماما ولا غرابة فيها . فقد أفسح السادات له مجالا واسعا، كما أفسح لكثيرين غيره من غير الموهوبين من الكتّاب، للكتابة والنشر واحتلال بعض المناصب المهمة فى الحياة الثقافية، لمجرد أنهم بدوا مستعدين للمشاركة مع السادات فى تشويه صورة عبدالناصر وانتقاد سياسات الستينيات التى كانت وظيفة السادات الأساسية التراجع عنها شيئا فشيئا، سواء فيما يتعلق بالتأميمات وإعادة توزيع الدخل وتدخل الدولة الصارم فى الحياة الاقتصادية،

أو بالسياسة الخارجية أو العربية، أو بالموقف من إسرائيل، فى كل هذه الأمور أبدى ثروت أباظة استعداده التام لمؤازرة السلطة والسير فى ركابها منذ وفاة عبدالناصر وحتى وفاة ثروت أباظة نفسه ، مع استعداده التام لكتابة مقال كل حين وآخر، ينضح بالتكلف وملىء بالمبالغات السقيمة ، فى مدح الشخص الجالس على قمة السلطة. وهكذا كانت مقالات ثروت أباظة الأسبوعية، طوال العشرين عاما الماضية لا يخرج موضوعها عن واحد من خمسة موضوعات: إما مدح الجالس على قمة السلطة، أو شتم وسب الجماعات الإسلامية المتطرفة منذ أن أصبح هذا جزءا أساسيا من خطاب السلطة، أو ذم جمال عبدالناصر بمناسبة وبغير مناسبة، أو التعبير عن إيمانه العميق بالله وتدينه وورعه، بأسلوب يعتمد على الكليشيهات المألوفة ، أو نشر خطاب أتاه من أحد القراء الذين لم يسمع بهم أحد يثنى فيه ثناء عاطرا على ثروت أباظة نفسه ولا يتورع الأستاذ ثروت عن إيراد عبارات الثناء بنصها كما جاءت بالخطاب، مهما كان غلوها وفقدها للمصداقية، وذلك بعد مقدمة قصيرة أحيانا يذكر فيها الأستاذ ثروت أباظة كم يكره بطبيعته الكلام عن نفسه أو التفاخر بها ولكن من حق القراء وكاتب الخطاب عليه أن ينشر الخطاب كما هو، فإذا بالقارىء يقرأ عبارات من نوع العبارات الآتية:

«أخي ياثروت العظيم السيد الحسيب النسيب الشريف.. عرفتك وأنت بعد طالبا في كلية الحقوق، وفي هذه السن المبكرة، كاتبا متقنا مبدعا مرموقا، فكر عميق وإلهام رباني من طراز خاص».

وللمرء أن يعجب من أن هذا الكاتب الكبير ذا الصفحة الثابتة في أهم صحيفة مصرية لم يجد فيما يحدث حوله في مصر أو العالم موضوعا يستفزه للكتابة غير هذه الموضوعات الخمسة، ولم تخطر بباله فكرة أو عاطفة جديدة تصرفه ولو لفترة قصيرة عن التفكير في مساوئ عبدالناصر من ناحية وفي مزاياه هو الشخصية، أي مزايا ثروت أباظة نفسه وأياديه البيضاء على الثقافة المصرية، من ناحية أخرى.

هكذا كان على قراء أهم صحيفة يومية في مصر أن يتحملوا أسبوعا بعد أسبوع لمدة تقرب من عشرين عاما، تطالعهم فيها مقالاته، وأن يتذكروا المرة بعد المرة، سواء قرأوا هذه المقالات أو لم يقرأوها، أنهم مغلوبون على أمرهم، لا أثر لرأيهم أو لمدى حبهم أو كرههم لكاتب أو آخر، في تحديد ما ينشر وما لا ينشر. فالذي يحدد هذا أمور خارجة تماما عن إرادتهم، ويساهم هذا في ترسيخ شعورهم بالإحباط واليأس من تغيّر أحوال الثقافة والسياسة إلى الأفضل.

كان المثقفون المصريون كثيرا ما يتندرون كلما جاء ذكر الرجل ومقالاته ورواياته. وكثيرا ما يعبر واحد منهم للآخر عن استغرابه إذا عرف أنه قرأ مقالا جديدا لثروت أباظة، بقوله «هل لديك حقا صبر على هذا»؟ فيقدم الآخر اعتذاره وتبريراته . ولكن كان يحدث من حين لآخر ما يقلب التندر هما ثقيلا، وضيقا وسخطا، عندما يصدر من الأستاذ ثروت أباظة عمل يصل فيه إلى منتهى الافتئات على الحقيقة أو منتهى الظلم لبعض من أفضل المصريين. كأن يكتب مثلا مقالا في مجلة «الإذاعة والتليفزيون» فى فبراير سنة ١٩٧٦، بعد أن عينه الرئيس السادات رئيسا لها، بعنوان «وفى أى شىء صدق»؟، إنهال فيه بالهجوم على جمال عبدالناصر بلهجة كانت أشد حتى مما يمكن أن يرضى عنه السادات، أو لعل السادات رأى أن المقال، وإن كان يصادف هواه، قد يسىء إليه شخصيا أكثر مما يسىء إلى سمعة عبدالناصر، فاضطر إلى عزل ثروت أباظة من رئاسة المجلة.

ثم حدث أيضا مثل هذا الاستياء من جانب المثقفين المصريين عندما رفع ثروت أباظة قضية سب وقذف ضد صحفى شاب وموهوب هو الأستاذ جمال فهمى، بسبب مقال نشره فى صحيفة معارضة، ردا على مقال لثروت وجه فيه أقذع ألفاظ السباب

للناصريين. ولكن ثروت أباظة لم يقبل أن يوجه إليه أحد عبارات لاتزيد في قسوتها وحدتها عما دأب هو على استخدامه، ولم يضرب الصفح عن عبارات نشرت ضده في صحيفة معارضة ولاتسمح لها الحكومة بالانتشار إلاّ في أضيق الحدود، ردا على عبارات ينشرها هو بانتظام في أوسع صحف الحكومة انتشارا.

لم يضرب الصفح عن هذا ورفع قضية السب والقذف وكسبها، وترتب على ذلك سجن هذا الصحفي الموهوب لمدة ستة أشهر. وخلال هذه الفترة أتيحت لثروت أباظة فرصة بعد أخرى، أثناء توالي عرض القضية على المحكمة بعد إيداع الصحفي في السجن، للنظر في مد مدة حبسه أو إطلاق سراحه، لأن يتنازل عن القضية وينتهي الأمر ويطلق سراح الرجل، ولكنه أصر على الرفض. ونشرت بعض المجلات أن الأستاذ نجيب محفوظ قد تدخل شخصيا لدى ثروت أباظة في محاولة لإقناعه بالتنازل عن القضية فلم يفعل. والأرجح أن الأستاذ ثروت قد استمد دعما قويا في هذا العناد والإصرار، من بعض رجال السلطة الذين كانت لديهم بلا شك رغبة قوية في الانتقام من هذا الصحفي الشاب الذي دأب على التعبير عما يجول بأذهان المصريين في أمر ثروت أباظة وغيره من الأمور، وبأسلوب شديد الجاذبية والفاعلية، ورأوا

فى وضعه فى السجن لبضعة شهور طريقة لتأديبه وإسكاته. وهكذا دفع الكاتب الصحفى جمال فهمى ثمنا غاليا للجرح الذى أصاب كرامة الأستاذ ثروت أباظة، وأصيب كرامة المثقفين والصحفيين المصريين بجرح أبعد غورا وأشد إيلاما زاد من ترسيخ شعورهم بالإحباط واليأس من حالة الثقافة والسياسة المصرية.

★★★

هذه إذن خلاصة الدور الذى لعبه ثروت أباظة فى الحياة الثقافية والسياسة فى مصر خلال فترة تزيد على نصف قرن.

فماذا كان حديث الكتّاب والأدباء والصحفيين المصريين عنه بعد وفاته؟.

إن أول ما يلفت النظر فى أحاديث وتعليقات الكتّاب والأدباء عن ثروت أباظة بمجرد وفاته هو كثرة هذه الأحاديث والتعليقات، واشتراك كتّاب من مختلف المشارب فى الكتابة عنه، وهو ما يسهل تفسيره بأن ثروت أباظة، كما سبق أن أشرت «ملأ الدنيا وشغل الناس» خلال حياته، إذ كان دائم الحضور وكثير الكتابة ومتعدد المناصب. يلفت النظر أيضا ما أظهرته السلطة ورجال الحكم فى تشييع الجنازة وتقديم العزاء من أكبر مظاهر التكريم والتبجيل،

سواء إذا نظرنا إلى مناصب المشتركين فى العزاء وتشييع الجنازة أو إلى ما صدر من كبار السلطة عن الفقيد من عبارات الثناء والتقدير. ولم يكن هذا أيضا غريبا بالنظر إلى ما أظهره الأستاذ ثروت أباظة طوال الثلاثين عاما الماضية من ولاء للسلطة وتأييد لسياساتها فى مختلف المجالات.

لم يكن غريبا أيضا أن تصدر فى رثائه عبارات صادقة من كثيرين من معارضى السياسة الناصرية وممن يحملون عداء قديما لسبب أو لآخر لجمال عبدالناصر لم يمحه مرور الأيام. وقد قال هؤلاء الكثير فى الثناء على ثروت أباظة كإشارتهم إلى صلابته فى الدفاع عن الحق وشجاعته، وإلى ثباته على المبدأ مهما تغيرت الظروف والأحوال. وهى صفات يمكن أن تقبل عن طيب خاطر مع بعض التحفظات البسيطة. من هذه التحفظات أن تحديد ماهو الحق وما هو الباطل لابد أن يختلف الرأى حوله، خاصة فى القضايا السياسية. ومنها أن من الممكن أن يكون امرؤ أكثر شجاعة فى مواجهة بعض الناس منه فى مواجهة غيرهم، وقد أبدى ثروت أباظة شجاعة بلا شك فى مواجهة نقاده من المتعاطفين مع السياسات الناصرية بعد وفاة عبدالناصر ، أكثر مما أبدى من شجاعة إزاء عبدالناصر نفسه أثناء حياته.

أم الثبات على المبدأ فهو وصف ينطبق قطعا على الأستاذ ثروت أباظة، منذ نعومة أظفاره وحتى وفاته، ولكن هذه الصفة التى كثيرا ما تكون صفة محببة قد تصبح فى بعض الأحوال مثيرة للتبرم، ليس فقط إذا اختلف الرأى حول هذا «المبدأ» الذى يثبت عليه المرء، ولكن أيضا إذا تمادى هذا الثبات على المبدأ إلى درجة أن يصبح عنادا ، أو ضيقا فى الأفق، أو عجزا عن رؤية الأمور من أكثر من وجهة واحدة من النظر، كما قد يصبح هذا «الثبات على المبدأ» مثيرا للملل إذا تكرر التعبير عنه بنفس الطريقة وعلى نفس الوتيرة لمدة تزيد على الثلاثين عاما.

ولكنى قرأت ، بالإضافة إلى هذا كله، لبعض الكتّاب الأثيرين لدىّ، كلاما طيبا للغاية فى الثناء على الأستاذ ثروت أباظة فى الأيام القليلة التالية لوفاته. قرأت مثلا لشاعر موهوب وفى نفس الوقت أديب بارع ومعلق حصيف على الأحداث السياسية، لم اختلف قط مع أى شىء قرأته له، كلاما مؤثرا عن الأستاذ ثروت، وصفه فيه بأنه كان له «قلب طفل»، وبأنه «كان متعطشا دائما إلى فتح صفحة جديدة من الود الإنسانى الخالص بينه وبين أى إنسان أيا ما كانت درجة العداوة السابقة بينهما» ، كما قرأت للأستاذ نجيب محفوظ كلاما رقيقا للغايه فى رثاء ؟ وت ؟ اخلة فقال إن خبر

وفاته «نزل عليه كالصاعقة» وأنه وثروت «لم نختلف أو نتشاحن أو نتشاجر يوما وكنا مثالا للأخوة».

ووصفه الأستاذ نجيب أيضا بأنه «كان أولا صديقا عزيزا ثم كان أديبا كبيرا كما كان أيضا فارسا نبيلا».

مثل هذه العبارات الأخيرة هى التى دفعتنى إلى التوقف للتفكير فى دور الأستاذ ثروت أباظة فى الثقافة والسياسة المصرية، بل لعلها هى التى دفعتنى إلى كتابة هذا الفصل أصلا. إذ لم يكن من السهل علىّ بالمرة أن أجد تفسيرا لما قاله أديب عظيم كنجيب محفوظ عن أدب ثروت أباظة، كما لم أستطع بسهولة التوفيق بين ما قاله الشاعر الكبير عن استعداد ثروت أباظة «لفتح صفحة جديدة من الود الإنسانى الخالص بينه وبين أى إنسان أيا ما كانت درجة العداوة السابقة بينهما» وبين موقف ثروت أباظة من ذلك الصحفى الموهوب فأدى إلى سجن هذا الشاب ستة أشهر.

مثل هذا القول أو ذاك هو ما لم أفهمه بسهولة، وجعلنى أفكر فى أحوال المصريين بوجه عام، أوجه القوة فيهم وأوجه الضعف، مما يجعلهم يظهرون كل هذه الحكمة أحيانا، وهذا الترتيب الصحيح للأولويات، وفى أحيان أخرى يبدون وكأن صبرهم قد زاد على الحد المعقول، فيقبلون أكثر بكثير مما يجوز قبوله، ويظهرون استعدادا للمجاملة إلى حد الإفراط، وكثيرا ما يفضلون السكوت عن الجهر بالحق، طلبا للسلامة أو كرها للعنف.

(١٣)
على مختار :
علوم أم مذاهب ؟

كنت دائما ، ولا أزال ، أعتقد أن الموقف الفكرى الذى يتخذه المرء ، يتحدد إلى حد كبير بمزاجه الشخصى وميوله الدفينة ، وأننا نبالغ فى الظن بأن الموقف الفكرى والعقائدى لشخص ما هو فى الأساس نتيجة تفكير عقلانى بارد ، ومقارعة الحجة بالحجة ، ومقارنة موضوعية رصينة بين ما للرأى وما عليه ، بل هو على الأرجح ، وفى التحليل الأخير ، نتاج المزاج والأهواء والميول الشخصية . ليس معنى هذا أن المرء منا ليس قابلاً ، أبداً ، لتغيير رأيه وموقفه بناء على اقتناع بما لم يكن مقتنعا به ، أو مواجهته لحجج جديدة ، أو اطلاعه على أدلة لم يكن على دراية بها ، فكلنا يغير رأيه أحيانا ويقتنع برأى جديد . ولكن هذا لا ينفى ، فيما أرى ، أن مجمل عقيدة المرء وموقفه الفكرى بوجه عام واتجاه تفكيره وولائه ، تتأثر إلى حد كبير ، وربما فى المقام الأول ، بهذا الذى نسميه بالمزاج أو الميل الطبيعى .

هناك إذن فى رأيى ، فى التكوين النفسى للمرء ، ما يدفعه إلى أن يكون أقرب إلى قبول الرأسمالية أو الاشتراكية ، الديمقراطية أو الدكتاتورية ، إلى التعاطف مع الفقراء أو تجاهلهم ، تفضيل المصلحة العامة أو الخاصة ، الحماس للقومية أو الولاء الضيق للأسرة أو القبيلة .. الخ . ومن الدروس التى تعلمتها فى حياتى أن من أصعب الأمور أن تحوّل «رأسماليا» بطبعه إلى اشتراكى ، أو «اشتراكيا» بطبعه إلى رأسمالى ، أو أن نجعل من شخص غير متعاطف مع الفقراء بطبعه ، متعاطفا معهم ، أو من شخص ذى ولاء ضيق جدا ، إلى شخص ذى ولاء أوسع واهتمامات بمصالح أرحب وأشمل . قد تنجح فى حث إمرئ على القيام بعمل معين لم يكن ليقوم بمثله من قبل ، أو فى إثنائه عن عمل دأب على القيام به، ولكن هذا شيء وتغيير أفكاره الأساسية وموضوع ولائه شيء آخر .

★★★

وقد عرفت الدكتور على مختار منذ وقت طويل جدا ، إذ كنت فى الثانية عشرة من عمرى عندما عرفته ، واستمرت صداقتنا إلى يوم وفاته ، عندما كان كلانا فى الثانية والخمسين . أى أن معرفتى به وصداقتى له قد استمرت أربعين عاما ، تفرقت بنا

السبل أثناءها بالطبع ، لفترات تقصر أو تطول ، كأن يدخل هو كلية الطب وأنا أدخل الحقوق ، أو أسافر إلى الخارج ويبقى فى مصر ، ولكن من المدهش أن صلتى به لم تنقطع قط حتى أثناء ذلك كله ، فمع وجودنا فى كليتين مختلفتين كان يجمعنا أحيانا النشاط السياسى ، وعندما نوجد فى بلدين مختلفين كنا دائما على اتصال ، يعرف كل منا ما ألم بفكر صاحبه وأحواله من أدق التطورات .

وقد كنت دائما ، منذ بداية معرفتى به ، وحتى الآن أعتبره ذا «مزاج» فريد بين الناس ، وقد جعله هذا «المزاج» الفريد ، من أحب الناس إلىّ ، حتى عندما تختلف آراؤنا ومواقفنا ، وقد كان هذا الاختلاف نادراً . فهو يجمع جمعاً نادرا بين العقلانية والعاطفية . كان بالفعل عقلانيا لدرجة يتوهم معها من لا يعرفه جيدا أنه ـارم قليل الشفقة ، ومع ذلك فقد كان يظهر لمن يعرفه معرفة دة ، درجة من التعاطف والحساسية لمشاعر الآخرين يندر وجود مثلهما . كانت هذه الحساسية والتعاطف يدفعانه إلى التضحية بالمال والوقت والجهد لمساعدة من يحتاج إلى مساعدة ، ولكن كانت عقلانيته وصرامته تمنعانه منعاً باتا من أية عاطفة مصطنعة، ومن إضاعة أى جهد أو وقت أو مال فيما لا طائل من ورائه . كان

تعاطفه وحساسيته هما اللذان دفعا به إلى هذا العمل الدوب ، بمجرد أن جاوز سن الصبا، لإتخاذ مواقف سياسية تناصر الفقراء وتلتزم بما فيه مصلحتهم ، ولكن كانت عقلانيته هى التى تدفعه إلى تفضيل العمل من أجلهم على مجرد الكلام عنهم ، وهى التى جعلته يمقت الإنشائية فى التعبير ، والكتاب أو الكلام الخاليين من المضمون . كما أن هذه العقلانية هى التى منعته من أن يعطي ولاءه بلا تحفظ لأى مذهب فكرى بعينه ، ومن أن يغض بصره عن الثغرات المنطقية أو التناقضات التى يقع فيها هذا المذهب الذى قد يميل إليه بقلبه .

ربما لهذا السبب كان من الصعب تسمية المذهب الفكرى الذى ينتمى إليه على مختار . فمع أن الفكر السياسى كان شاغله الأساسى وهمه ، فإن من الصعب أن تقول إنه كان ينتمى كلية إلى هذا المذهب الفكرى أو ذاك ، فقد كان عقله أكثر تيقظا من ألا يرى النقص القائم فى المذاهب الفكرية المطروحة ، وإن كانت رغبته العارمة فى أن يقوم بالعمل الواجب والضرورى قد جعلته يسير مع هذه الصفوف أو تلك ، إذا كانت هى أقرب الصفوف إلى تحقيق الهدف الذى يرنو إليه قلبه .

★★★

هكذا كان على مختار بالنسبة إلىّ : عقل بالغ التيقظ ، وقلب شديد الحساسية . لا عجب إذن أن درس الطب ومارس الرسم والنحت ، عمل بالسياسة وشغف بالحياة ، اشترك برصانة شديدة فى أشد المناقشات الفكرية تعقيدا وضحك ضحكا مدويا ، صادق وناقش أكبر المفكرين والسياسيين فى مصر وسائر البلاد العربية، ولم يأنف من القيام بأبسط وأصغر الأعمال إذا كان ذلك يوفر بعض الراحة لأبنه أو ابنته أو زوجته أو شخصا من المقربين إليه . قد ينصرف من إجتماع سياسى على أعلى مستوى من الأهمية ، قبل أن ينفض هذا الاجتماع ، متى شعر بأنه قد قام بواجبه فيه ، ولا فائدة ترجى من استمرار الجلوس فيه ، ويذهب ليصحب ابنه أو ابنته إلى المدرسة ، أو إلى درس فى الموسيقى ، أو لكى يحصل على دواء نادر لصديق مريض .

★★★

على الرغم من استمرار هموم على مختار الفكرية طوال حياته ، فإنه لم يدون من الصفحات الكمية التى تعكس كثرة قراءاته وتنوعها وعمقها . ذلك أنه كان دائما يفضل العمل السياسى على الكتابة السياسية . ولكنه عندما كتب جاءت كتاباته معبرة تعبيراً مدهشاً عن هذا المزاج الذى وصفته : عقلانية

بالغة القوة ، وحساسية وتعاطفا بالغا الحدة . فلعل القارئ يلاحظ فى كل عمل من الأعمال المنشورة فى المجلد المعنون : (علوم أم مذاهب ، دار على مختار للنشر، القاهرة ١٩٩٠) ، (وكذلك فى المجلد الأول من أعماله والذى يحمل عنوان : حول القومية والعروبة والنهضة ، ١٩٨٨) ثمرة هذا الموقف العقلانى الصارم من ناحية ، والالتزام الاخلاقى والتعاطف مع الفقراء من ناحية أخرى .

فعندما يناقش مثلا «إشكالية العلاقة بين الأيديولوجيا والعلوم الاجتماعية» تجد أن المشكلة الأساسية التى تشغله هى : إلى أى مدى يضحى العلماء بالدقة العلمية من أجل إرضاء تحيزاتهم الأيديولجية ، فالمشكلة هنا أيضا ليست إلا العلاقة أو التضاد بين العقلانية والتعاطف ، الموضوعية والشخصية ، الحياد والتحيز . وهو هنا يكاد يقول إن فك الاشتباك بينهما ، من قبيل المستحيلات، أو يكاد يكون كذلك ، ليس فقط فى العلوم الاجتماعية بل وفى العلوم الطبيعية أيضا ، على عكس ما يظن الكثيرون الذين يميلون إلى الظن بأن العلوم الطبيعية ذات طبيعة متميزة ، من حيث إمكانية التخلص من التحيز الأيديولوجى . فالفرق بين النوعين من العلوم فى رأيه هو فارق فى الدرجة وليس فى الطبيعة،

وكلاهما عاجز عن التخلص تخلصا تاما من الانتقاء والتحكم والتحيز ، التى تنبع كلها من الأهواء أو من الأيديولوجيا . وكأن على مختار هنا يتكلم أيضا عن نفسه ويصف حاله هو : فمهما بلغت محاولته الصادقة للوصول فى العقلانية إلى أبعد درجات الصرامة ، فإنه يعرف جيداً أنه لا يستطيع التخلص من تعاطفه وتحيزه للفقراء ، ومن التزامه الأخلاقى بقضيتهم .

وهو فى بحث «الأيديولوجيا والتنمية» يعزف على نفس الوتر ، ويصل إلى نتائج مماثلة . إن نظريات التنمية المختلفة ، التقدمى منها والرجعى ، المتعاطف منها مع الطبقات المستغِلة أو المستغَلة ، تصدر فى نهاية الأمر عن تحيزات أيديولوجية ، وإن كان هذا لايمنع بالطبع ، ليس فقط من أن يكون بعضها «أنبل» من بعضها الآخر ، بل وأن يكون بعضها أصدق من غيرها . فدرجة التشوّه وتزييف الوعى تتفاوت بالضرورة مع درجة اتفاق تحيزاتك مع متطلبات الواقع وطبيعة المرحلة التاريخية التى تتكلم عنها . ولكنه فى غمار مناقشته لهذه القضية يكون قد شرح بتفصيل ودقة مدهشتين بعضا من أهم نظريات الاشتراكية والتنمية .

وهو إذ يتناول موضوعاً اقتصاديا هو «تقويم واقع اشباع الحاجات الأساسية فى جهود التنمية العربية » ، يورد الأرقام الحاسمة للدلالة على النجاح والفشل هنا وهناك ، ولكنه يدرك

إدراكاً تام الوضوح أن الحاجات الأساسية تتجاوز الاحتياجات المادية ، وأنها تشمل ليس فقط الرفاهية المادية بل «الرفاه والأمن والحرية والهوية» . وهو يدرك أن النجاح فى إشباع الحاجات الإجتماعية للغالبية العظمى من السكان يتطلب قبل كل شيء «تغيرات أساسية فى قوى الإنتاج» ولكنه يدرك أيضا أن هذه التغيرات نفسها لا يمكن تحقيقها «دون عقيدة تقدم تصوراً متكاملا لنهضة شاملة وتستطيع تعبئة أوسع الجماهير صاحبة المصلحة فى الخروج من التخلف» . هنا أيضا يعبر على مختار عن اعتقاده الذى لا يتزعزع بأن الدعامتين الأساسيتين لأية نهضة مرجوة هما «العقلانية والحماسة» ، دون أن يستخدم هذا التعبير أو يقول ذلك صراحة . وهو بهذا فى رأيى ، لا يصدر عن مجرد «رأى» بل عن مزاج وشخصية تميزا بهذا التوازن الرائع بين حب الحقيقة والتعاطف مع الناس .

★★★

من أجمل العبارات التى قرأتها ، والتى أعود إلى تذكرها بين الحين والحين ، هذه العبارة للاقتصادى النمساوى الشهير جوزيف شومبيتر :

«إن إدراك المرء للطبيعة النسبية لما يؤمن به من معتقدات ، واستعداده ، على الرغم من ذلك ، للدفاع عن هذه المعتقدات دون

تردد أو خوف ، هو ما يميز الإنسان المتحضر عن الهمجى» . وإنى أجد هذه العبارة ملائمة تماما للتعليق على مجلد ضم بعض كتابات على مختار ، فكل من عرف على مختار سوف يتفق على أن «التحضر » هو إحدى سماته البارزة ، وأريد أن أضيف الآن أنه كان أيضا ، وعلى الأخص ، «متحضراً» بهذا المعنى الذى وصفه شوبيتر : هذا الجمع الفريد بين إدراك النسبية فى الأشياء (وهو ما يكاد يكون مرادفا للروح العلمية) والحماسة والشجاعة فى التمسك بالرأى والدفاع عنه . وأعتقد أن كل من يقرأ هذا المجلد سوف يجد فيه ما أقصده : فلا الصرامة العلمية قتلت حماسه وعاطفته ، ولا العاطفة أودت بصرامته العلمية .

(١٤)
فرانز جال :
عن الأساس البيولوجى للذكاء

هذه قصة شيقة من تاريخ العلم ، لا تخلو من مغزى للمهتمين بالعلوم الاجتماعية فى وقتنا هذا .

ولكن قبل أن أقصها على القارىء أود أن أذكر له أنى كنت دائما أعتقد أن كثيرا من العلوم الاجتماعية قد ضلت الطريق بمحاولة تحقيق المزيد من الدقة ولو على حساب أهمية الموضوع الذى تبحثه . أصبح البحث عن «الدقة» أكثر أهمية من البحث عن «الفائدة والجدوى» (وهو اتجاه شبيه بما حدث للفن من اهتمام «بالشكل على حساب المضمون») . فكثيرون من المشتغلين بهذه العلوم ينفقون أكثر من اللازم من وقتهم وجهدهم فى سبيل أن تكون نتيجة أبحاثهم أقرب إلى اليقين ، ولو كان الموضوع الذى يبحثون فيه عن اليقين غير مهم بالمرة . تأمل مثلا كم من الوقت والجهد ينفقه عالم الاجتماع فى تصميم وصياغة قائمة

الاستفسارات التى يقوم بتوزيعها على عينة مختارة من الناس ، للحصول على إجاباتهم على عدد من الأسئلة يعتقد أنه عن طريقها يمكن اكتشاف اتجاهات ومواقف هؤلاء الناس من قضية معينة ، ثم يبذل وقته وجهده فى محاولة اكتشاف هذه الاتجاهات وصياغتها الصياغة الدقيقة ، دون أن يلتفت إلى أن السؤال الذى يحاول الإجابة عنه من البداية سؤال تافه ، كلنا يعرف إجابته سلفا ، بالبديهة أو المنطق السليم ، أو الملاحظة اليومية ، من نوع مثلا أن الرجال فى ظروف التضخم وارتفاع أعباء المعيشة يميلون إلى تفضيل الزواج من إمرأة عاملة ، أكثر مما كانوا فى ظروف اقتصادية أقل صعوبة ، أو أن نسبة المتعلمين من الفقراء أقل من نسبة المتعلمين بين الأعلى دخلا ، أو أن أحد أسباب الفقر بين سكان الريف انخفاض ما يحوزه المرء من أرض زراعية ! .. إلخ

لقد صادفت مرة اقتصاديا ينفق الساعات فى جمع الأرقام المتعلقة بانتاجية العمل ، ثم ساعات أخرى أمام الكمبيوتر لكى يكتشف العلاقة بين إنتاجية العامل ومستوى التعليم ، ليصل إلى نتيجة كنا نعرفها سلفا تمام المعرفة ، وهى أنه كلما ارتفع مستوى التعليم زادت إنتاجية العامل ، بشرط طبعا أن يكون التعليم محل البحث هو من النوع الذى من شأنه أن يرفع

إنتاجية العامل ! أى أن القضية كلها التى كان يحاول إثبات صحتها هى من قبيل تحصيل الحاصل ، أى تنطوى مسلماتها على نتائجها !

على أن هذا الغرام والشغف بتحقيق مزيد من الدقة على حساب جدوى وفائدة المضمون قد يذهب أحيانا إلى حد التضحية بالحقيقة نفسها (وليس فقط بالجدوى والفائدة) ، وذلك بأن يفترض العالم الاجتماعى مجموعة من الافتراضات التى تتعارض تعارضا صارخاً مع الواقع والحقيقة ، لمجرد أن هذه الافتراضات تسمح له بقياس بعض الظواهر قياسا دقيقا ، فإذا به يصل فى النهاية إلى نتائج واضحة البطلان ، لأنها مؤسسة على افتراضات باطلة . ومع ذلك لا يعبأ العالم الإجتماعى بذلك مهنئاً نفسه بما حققه من دقة ومهارة فى استخلاص النتائج من المسلمات ! هذا هو ما يعبر عنه ذلك التعبير الطريف الذى يتكلم عن شخص يفضل أن يعبر عن الباطل بدقة على أن يعبر عن الحقيقة بشكل تقريبى !

إن علم الاقتصاد الحديث ملىء بالأمثلة على هذا الميل إلى «التعبير عن الباطل بدقة !» . من ذلك مثلا نظرية المستهلك كلها ، التى تقوم على افتراض أن المستهلك شخص رشيد وعاقل يحسب كل قرار استهلاكى يتخذه بدقة ، نفقاته ومنافعه ، ويحيط علما بكل

المعلومات اللازمة لاتخاذ هذا القرار من أنواع المنتجات المطروحة، إلى صفاتها الحقيقية الظاهرة والدفينة ، إلى مختلف الأسعار التى تباع بها هذه المنتجات فى هذا المكان وذاك ، ويتخذ قراره بناء على كل ذلك من أجل «تعظيم المنفعة» التى تعود عليه من الاستهلاك . وينفق الاقتصادى وقتا طويلا فى محاولة تحديد الخطوات التى يتخذها المستهلك للوصول إلى هذه النتيجة ، وهى تعظيم المنفعة ، ليخبرنا فى النهاية بما يسميه ، «شروط توازن المستهلك» ، مع أننا نعرف جيدا ، من ملاحظتنا لأنفسنا ولتصرفات الأشخاص المحيطين بنا ، أن المستهلك نادرا جدا ما يكون إنساناً رشيداً ونادرا جدا ما يكون محيطا بكل المعلومات اللازمة لاتخاذ قرار رشيد ، ونادرا جدا ما ينجح المستهلك فى تعظيم منفعته من الاستهلاك ، ومن ثم فالدقة التى يصل إليها الاقتصادى هى «دقة» فى التعبير عن الباطل ، بينما كان من الأجدى أن يحاول الاقتصادى أن يصف لنا مختلف العوامل التى تؤثر فى سلوك المستهلك ، وتجعله يتصرف على النحو الذى يتصرف به بالفعل ، رشيدا كان أو غير رشيد ، كتأثره برأى الناس فيه ، أو مدى نجاح الإعلان فى تشكيل نوع استهلاكه، أو أثر الظروف العائلية أو الاجتماعية أو السياسية فى

الاستهلاك.. الخ . صحيح أن النتائج التى سنصل إليها فى هذه الحالة لن تكون دقيقة ، إذ أن معظم هذه العوامل من الصعب قياسها بدقة ، ولكن النتائج فى هذه الحالة ستكون أقرب إلى الحقيقة وإن كانت تقريبية ، وهذا أفضل فى رأيى ، من الوصول إلى الباطل بكل دقة!

★★★

تذكرت هذا عندما قرأت هذه القصة الشيقة عن عالم ألمانى فى الطب والتشريح ، ولكنه أيضا وصل إلى نظرية مثيرة فى علم النفس . امتدت حياته بين النصف الثانى من القرن الثامن عشر والعقود الأولى من القرن التاسع عشر (١٧٥٨ - ١٨٢٨) وهو فرانز جوزيف جال (F.J.Gall) . بدأت قصة اكتشافه المثير فى علم النفس عندما كان صبيا صغيرا ، إذ لاحظ ، بحزن وغيظ شديدين ، أن من أقرانه فى المدرسة من يحصل على درجات عالية جدا فى الامتحانات ، يتفوقون بها عليه ، إذ لا يستطيع هو الحصول على هذه الدرجات ، لمجرد أنهم يتمتعون بذاكرة أقوى بكثير من ذاكرته، فقد كان يجد صعوبه بالغة فى حفظ المعلومات عن ظهر قلب ، مع اعتقاده الراسخ أنه ، فيما عدا ذلك ، أكثر ذكاء منهم بكثير . شغلت هذه الظاهرة تفكيره ، وحاول جاهدا الوصول

إلي تفسير لها : لماذا كان بعض الناس أقدر على الحفظ والتذكر من غيرهم ؟ وتساءل فيما بينه وبين نفسه عما إذا كان لهذا أساس بيولوجي . ثم انتقل إلى مدرسة أخرى ، وواجهته نفس الصعوبة ونفس الظاهرة ، غير أنه لاحظ أن التلاميذ المتفوقين عليه في الحفظ وقوة الذاكرة لهم سمات جسمية معينة من أهمها اتساع العينين وبروزهما ، فإذا به يستخلص من ذلك نتيجة آمن بها إيمانا جازما ، وهى أن الصفات الذهنية والعقلية لها كلها أساس بيولوجى ثابت ثم توصل فيما بعد إلى أنها تتعلق بتكوين المخ وحجم تجويفاته المختلفة ، وأن شخصية الإنسان كلها يمكن تحليلها إلى هذه الصفات، وأن الميول الذهنية والعقلية المختلفة يمكن ردها على هذا النحو إلى شكل المخ ومكوناته . وقضى بقية حياته فى الملاحظة وجمع المعلومات لإثبات صحة نظريته ، ولم تفارقه حتى وفاته ثقته بصحتها ، وراح يلقى المحاضرات العامة لإقناع الناس بها ، فنجح إلى حد كبير فى تكوين قطاع واسع من الرأى العام ، مقتنع برأيه .

★★★

ذهب «جال» بحق إلى أن مفهوم الذكاء الذى نستخدمه بكثرة فى وصف الأشخاص ، هو مفهوم من الغموض والعمومية بدرجة

تفقده أهميته ، وإنما كان يفضل التمييز بين أنواع مختلفة من القدرات العقلية والميول النفسية بحيث يحدد ما يمتلكه كل منا من نسب مختلفة من هذه القدرات الفوارق الذهنية بيننا ، بل والفوارق بين شخصياتنا ، إذ أن هذه الفوارق بين القدرات هى التى تحدد إلى حد كبير اختلافنا فى السلوك ، وقد ميز «جال» بين عدد كبير من هذه القدرات ، يصل عددها إلى نحو ثلاثين ، اعتقد «جال» أن مركزها كلها هو المخ ، فميز بين القدرة اللغوية ، والعددية ، والإحساس بالألوان ، وبالموسيقى ، وبالزمن ، وبالمكان ، والميل إلى النظام ، وحب الاستطلاع والمقارنة ، وسرعة البديهة ، والخيال، وتحصيل المعلومات السطحية ، والقدرة على الابتكار والبناء ، والضمير ، والحزم ، والإيمان ، والحرص على الحصول على رضا الآخرين ، والحذر ، والإعجاب بالنفس ، والميل إلى الهدم، والرغبة الجنسية ، والميل إلى السرية وعدم الإفصاح والمودة ، وحب المرء لأطفاله ، والعدوانية ، والميل إلى الإحسان إلى الآخرين .. إلخ .

على أن الذى جلب له هجوم عدد كبير من العلماء كان هو زعمه بأن لكل من هذه المقومات والميول مكان محدد فى المخ حاول أن يحدد موقعه بالضبط ، فى كتاب بعنوان : «دراسة فلسفية وطبية لطبيعة الصحة والمرض» ، ١٧٩١، فقد كان الاعتقاد

السائد قبل «جال» أن المخ يعمل كوحدة متكاملة ، فلا ينفرد كل جزء منه بوظيفة بعينها ، فجاءت نظرية «جال» بنسبة وظائف مختلفة إلى أجزاء المخ المختلفة ، مثيرة للهجوم عليه بل والسخرية.

ولا يشك علماء النفس اليوم فى أهمية مساهمة «جال» ومن تبعه من العلماء مثل «سبيرزهايم» (Spurzheim) ، أوفى قوة حججهما النظرية ، أوفى احتواء نظريتهما فى عمومها على جزء كبير من الحقيقة ، وإنما يرفضون إصرار «جال» واتباعه على الذهاب بالنظرية إلى أبعد من اللازم ، ويرفضون الكثير من تفاصيلها ، كما يشيرون إلى الضعف الشديد الذى شاب كثيرا من الأدلة التى كان «جال» وأتباعه يقدمونها لإثبات صحة نظريتهم. فإذا وجد «جال» شخصا عرف بالميل إلى السرقة أشار إلى أن دماغه يحمل صفات بعينه هى التى تعكس تضخم ذلك الجزء من المخ الذى اعتبره «جال» مركز الميل إلى الاستحواذ . فإذا قدم له شخص آخر عرف أيضا بالميل إلى السرقة ، ولكن دماغه له الصفات العكسية بالضبط ، قال «جال» إن مركزا آخر من مراكز المخ له آثار مضادة للاستحواذ (كالميل إلى الاحسان ى الآخرين مثلا) قد غلب أو أضعف مركز الاستحواذ !

وهكذا مما يجعل من المستحيل إثبات خطأ النظرية ، وهو ما يعتبر شرطا أساسياً لاعتبار النظرية «علمية» . والأكثر طرافة أن

شكل جمجمة الفيلسوف الفرنسى الشهير «ديكارت» ، عندما جرى فحصه من وجهه نظر «جال» ، تبين أن لها سمات تتعارض تماما مع السمات التى زعم «جال » أنها تميز من يمتلك قدرة كبيرة على التفكير المنطقى ، فلما ووجه أتباع «جال» بالمشكلة ، قالوا : إن قدرة «ديكارت» على التفكير المنطقى قد بولغ فيها كثيرا! .

★★★

ومع كل هذا فلا شك فى أن العلماء اليوم يقبلون الكثير مما قال به «جال» من التمييز بين القدرات والميول المختلفة ، وإمكانية نسبة بعض هذه القدرات والميول إلى مراكز معينة من المخ . ولكن اللافت للنظر أن عالما آخر ، أصغر من «جال» بستة وثلاثين عاما ، هو بيتر فلورانز (P. Flourens) (١٧٩٤ - ١٨٦٧) الذى تمتع بالرضا التام من جانب المؤسسة العلمية فى زمانه ، إذ حاول تقديم البديل لمذهب «جال» ، اتبع منهجا مختلفا جداً . فهو بد من أن يجعل نظرية «جال» أكثر دقة ، ويخلصها من الشوا والأخطاء والمبالغة ، دفع التفكير فى اتجاه مختلف تماماً ، يكون أكثر دقة حقا من طريقة «جال» فى التفكير والبحث ، ولك قد يكون أبعد عن الحقيقة .

فبينما كان «جال» يعتمد أساسا على الملاحظة ، ويصل إلى تعميمات بجرأة وسرعة أكثر من اللازم ، إذا «بفلورانز» يعتمد على

التجارب التى تتوافر فيها شروط التجارب العلمية ، ومن ثم قد تعطينا نتائج أكثر دقة ، ولكنها قد تقودنا أيضا بعيداً عما كنا نبحث عنه . ذلك أن التجارب التى كان يجريها «فلورانز» للتحقق مما إذا كانت هناك مراكز فى المخ الانسانى ذات صلة بقدرات الانسان العقلية ، كانت تجرى على طيور أو حيوانات كالأرانب والكلاب ! ومن ثم فأبحاثه كلها كانت مؤسسة على افتراض يمكن للمرء أن يشك فيه بشدة ، وهو أن مخ الانسان له في الأساس نفس صفات مخ هذه الحيوانات أو الطيور ، فضلا عن أن بعض القدرات الخاصة بالانسان التى تجرأ «جال» وبحث عن مكان لها فى المخ ، كان من المحتم على «فلورانز» استبعادها تماما من بحوثه ، لأنها لا توجد أصلا (أو لا يعرف ما إذا كانت توجد أو لاتوجد) لدى الطيور والحيوانات ، كالتذوق الموسيقى ، والايمان ، والخيال ، والقدرات اللغوية والعددية .. الخ .

كان «فلورانز» وأتباعه يسخرون من «جال» لأنه زعم عن الانسان مالا تؤيده التجارب على الأرانب والكلاب ، ولكن «جال» ، الذى كان يرى التحيزات المسبقة لدى هؤلاء التجريبيين ، كان يسخر بدوره منهم ، مفضلا أن يستخدم فى وصفهم لا وصف العلماء بل وصف «الجزارين» ! ، إذ كانت تجاربهم تتكون من

استئصال أجزاء من أماكن مختلفة من مخ الحيـــوان ومراقبة سلوكه بعد ذلك .

★ ★ ★

القصة تبدو لى شيقة للغاية لأنها تمثل فى رأيى تلك القضية القديمة والجديدة فى البحث العلمى : قضية المفاضلة بين المفاضلة بين الوصول إلى التعبير التقريبى وغير الدقيق عن جزء مهم من الحقيقة ، وبين التعبير الدقيق والأنيق عن حقيقة غير مهمة البتة أو حتى عن عكس الحقيقة تماما . ولكن المؤكد ، على أى حال ، الذى يمكن أن يقرره المرء بالاطمئنان ، أن البديل للتعبير التقريبى وغير الدقيق عن جزء مهم من الحقيقة ، يجب ألا يكون تغيير الموضوع ، أو محاولة البحث عن شيء مختلف تماما ، مهما كان تافها ، لمجرد أن من الممكن التعبير عنه تعبيراً دقيقا ، بل أن نحاول بأناة وصبر أن نزيد فهمنا للحقيقة دقة وشمولا. أما من يفعل غير ذلك، كهؤلاء الذين راحوا يبحثون عن حقيقة الانسان بإجراء التجارب على الأرانب والكلاب ، فهم لا يختلفون كثيراً عما نسب إلى جحا فى نادرته الشهيرة ، إذ فقد قرشا فى مكان مظلم فراح يبحث عنه فى مكان مختلف تماما عن المكان الذى فقده فيه ، فلما سئل عن السبب فى ذلك قال «إن الضوء هنا أفضل ! » .

(١٥)
آن كاسيدى
عن تربيتنا لأطفالنا

من الممكن أن تعرّف الكتاب الجيد بأنه ذلك الكتاب الذى يقول لك ما كنت تعرفه بالفعل ! قد يظن القارىء أن فى هذا القول من الدعابة اكثر مما فيه من الحقيقة ، وأنا أظن العكس ، على الأقل فيما يتعلق ببعض انواع الكتب . إن بعضا من أجمل المقالات التى قرأتها ، هو ما شعرت فيه بأنها «عبرت عما فى نفسى» ، أو أنها قالت بالضبط «ما كنت أريد أن أقوله» ، دون أن أستطيع ذلك حقيقة ، أو هى التى قالته بوضوح بينما كنت أدركه بشكل غامض أو تقريبى . وكذلك فى الكتب، فمن أكثر الكتب تأثيراً فى نفسى تلك التى «وجدت فيها نفسى» ، أو التى أعطتنى الحجج المنطقية أو الأسانيد التاريخية التى تدعم وجهة نظر كنت أتبناها قبل أن أشرع فى قراءة الكتاب .

قد يكون تفسير ذلك أن تغيير المرء لوجهة نظره ليس بالسهولة التى نظنها عادة ، وأن «وجهة النظر» التى يتبناها المرء تنبع من

مصادر لا علاقة قوية بينها وبين الحجج المنطقية والأسانيد التاريخية ، وإنما تأتى هذه الحجج والأسانيد لتدعيم وجهة نظر تبنيناها من قبل ، بناء على دوافع نفسية أو اجتماعية ، أو لتدحض وجهة نظر كرهناها بناء على دوافع مماثلة .

على أية حال ، فإن الكتاب الذى أريد أن أعرضه على القارىء الآن هو من هذا النوع من الكتب ، فرحت به ، عندما وجدته وعرفت موضوعه واتجاهه ، وفرحت به أكثر عندما قرأته إذ وجدته يعبر عما فى نفسى بعبارة بالغة الوضوح والسلاسة ، ويدعم وجهة نظرى بالعديد من الأدلة . وقد حفزنى بقوة إلى أن أشرك القارىء معى فيه أن موضوعه مهم للغاية ، ويشغل جزءاً كبيراً من وقتنا وتفكيرنا ، وهو بالغ التأثير فى مستقبلنا كأفراد ومستقبلنا كأمة ، وله أثر لا يستهان به فى سعادتنا أو شقائنا . فإذا أضفت إلى ذلك أن كثيرين جدا منا ، بل وأعدادا منا تتزايد مع مرور الزمن يميلون إلى اتخاذ موقف من هذه القضية التى يطرحها الكتاب : النقيض بالضبط لما يعتبره هذا الكتاب (وأعتبره أنا) الموقف السليم ، فإن قراءة هذا الكتاب ، أو على الأقل التعرف على أفكاره، يصبح أمراً مهما وحيوياً .

قد يقول القارىء : ألم تقل منذ لحظة أن من الصعب جداً أن تغير قراءة كتاب من موقف سبق للمرء اتخاذه ؟ وردى على ذلك

أنى أشعر شعوراً قوياً بأنه على الرغم من شيوع مسلك مخالف للمسلك الذى يدعو إليه الكتاب، فإن الكثيرين جداً منا قد يشعرون فى قرارة أنفسهم بالشك في سلامة ما يفعلون ، ومن ثم فلدىّ أمل كبير فى أن أعداداً كبيرة منا ، بمجرد أن يسمعوا الرأى الذى يعبر عنه هذا الكتاب ، سرعان ما يهزون رءوسهم قائلين : «أى والله ، كم هذا صحيح ، وكم كنا مخطئين ! بل إننا كنا نحس بذلك ولو بشكل غامض قبل أن نقرأ الكتاب».

الموضوع هو طريقة تعاملنا مع أطفالنا وطريقة تربيتنا لهم. والمؤلفة أم لثلاث بنات ، وكاتبة صحفية ، وكانت تسلك ، هى وزوجها ، فى تربية بناتهما ، ما درجنا نحن عليه جميعا من مسلك واستقر فى أذهاننا أنه المسلك الصحيح . ثم أحست المؤلفة بسبب ما تتمتع به من فطرة سليمة ، أن هناك خطأ جسيما فيما تفعل ، وأن كثيرا من المسلمات التى كانت تقبلها دون نقاش فيما يتعلق بتربية الأطفال ، جدير بأن يطرح على بساط الشك ، إذ قد يكون عكسها بالضبط هو الصحيح . وما أن خطر لها هذا الخاطر ، وأعادت التفكير فى طريقة تربيتها لأطفالها ، وعادت تراقب ما درجت عليه هى وأقرانها من سلوك ، بدأ يتكشف لها ، يوما بعد يوم ، مدى الخطأ الذى تورطنا فيه جميعا .

★ ★ ★

منذ وقت طويل وأنا أشعر بأننا نعيش فى عصر يدلل الأطفال أكثر من اللازم ، ويظهر من الاستعداد للاستجابة لرغباتهم وأهوائهم أكثر بكثير مما هو ضرورى ومفيد ، لنا ولهم ، وأننا نعلق أهمية مبالغ فيها جداً على مدى قدرتنا على تشكيل شخصياتهم والتحكم فى مستقبلهم ، ونستهين أكثر من اللازم بالاستعداد الطبيعى الذى يولد به الطفل . بعبارة أخرى ، نحن نعذب أنفسنا ، نحن الآباء والأمهات ، أكثر بكثير مما نستحق، من أجل تحقيق أشياء شبه مستحيلة ، فيما يتعلق بأطفالنا ، وكثيرا ما نشعر بالذنب لشىء فعلناه معهم ، أو امتنعنا عن فعله ، دون أى مبرر للشعور بالذنب ، ونضحى بجزء كبير جدا من راحتنا بل وسعادتنا وراحة بالنا، من أجل أشياء وهمية تتعلق بأطفالنا . كذلك فإننا نميل إلى المبالغة فيما يحوزونه من قدرات ، وما نعلقه عليهم من آمال ، بل ونتعامل مع أطفالنا وكأنهم كلهم عباقرة المستقبل ، وكأن كلا منهم إما بطل رياضى ، أو موسيقى فذ ، أو عالم جبَّار ، متى أعطيناه الفرصة لذلك ، وهيأنا له (أو لها) الوسائل اللازمة . فى سبيل تحقيق هذه الآمال الكبار، نرهق أنفسنا ارهاقا يفوق الطاقة ونضحى بالنفس والنفيس . ثم إننا لم نعد نصبر ، ولو للحظة واحدة ، على شعور ولو عارض بالألم أو

الملل يصيب طفلا من أطفالنا ، ولا نحتمل أن نرى دمعة واحدة تسيل على وجنته ، أو خيبة أمل صغيرة تصيبه ، أو أن يوجه إليه أحد كلمة عتاب مهما كانت رقيقة . نحن لا نحتمل حرمانه من أى شيء يطلبه أو يخطر بباله ولو انصرف عنه بعد لحظات ، ونحن نحتفل بأعياد ميلاد أطفالنا احتفالات بالغة الأبهة والتكاليف ، وننظر إلى كل شيء من خلالهم : كيف نقضى عطلة العيد ، وأين نذهب فى عطلة نهاية الأسبوع ، وأى فيلم سينمائى أو تليفزيونى نشاهد .. الخ . فإذا رزقنا الله بطفل ثان بعد الطفل الأول ، حرمنا أنفسنا من النوم قلقا على شعور الطفل الأول وكيف نواجهه ، كيف نحميه من أى شعور بالغيرة ؟ فإذا احتاج الطفل الجديد إلى ملابس جديدة ، أحسسنا بضرورة أن نشترى مثلها للطفل الأول خوفا على شعوره. وإذا بكى الطفل الصغير واضطررنا إلى أن نهرع إليه ، خفنا خوفا مستطيرا من أن يجرح هذا شعور الطفل الكبير جرحا قد يبقى معه إلى الأبد .

باختصار نحن آباء وأمهات معذبون ومقهورون ، وسبب عذابنا ومصدر قهرنا ليس إلا أطفالنا ، أو بالأحرى نظرتنا نحن إلى الأطفال . وليس هناك أى مبرر أو موجب لكل هذا العذاب ، وقد آن الأوان أن نحرر أنفسنا من هذا القهر ، هذه هى الرسالة التى يقولها لنا هذا الكتاب الممتع والطريف :

«آباء وأمهات يفكرون أكثر من اللازم».

(Parents Who Think Too Much, Anne Cassidy, A Dell Trade Paperback , New York, 1998) .

فهو كتاب له رسالة تحريرية بمعنى الكلمة ، وإذا اقتنعت بما يقوله لك ، وهو ما أرجوه ، فالأثر الناتج عنه لن يكون أقل من الانعتاق الكامل .

★ ★ ★

عندما أفكر فيما كانت عليه طفولتي أستغرب أشد الاستغراب تلك الطريقة التي أرى من حولي الآن يعاملون بها أطفالهم ، إني لا أكاد أذكر أني حصلت ، وأنا طفل ، على لعبة واحدة كهدية ، ومع ذلك فلم يصبني بسبب ذلك أي شعور بالحرمان . هكذا كان حال الأطفال من حولي . لم تكن هذه الصناعة الهائلة ، صناعة الألعاب ، قد أصبح لها هذا الشأن العظيم في حياتنا كما أصبح لها الآن . ولكن عدم وجود هذه الألعاب لا يعني بالطبع أني لم أكن «ألعب» . فالأطفال لابد أن يلعبوا ، وكان من ألعابي المفضلة ما يدور حول علبة سجائر أبي . ذلك أن أبي كان يدخن سجائر «البستاني» التي كان بداخل علبتها ورقة مفضضة فاخرة ، أو بدت لي فاخرة حينئذ ، كنت أخذها مما يلقيه أبي من علب ،

فأمسكها بكلتى اليدين والصقها بشفتى وأنفخ فيها وأنا أحركها يمينا ويسـاراً ، فينتج عن ذلك أصـوات مـوسـيقية . كذلك فإنى لا أذكـر أن أبى أو أمى كـانا ينفقان الكثيـر أو القليل من الوقت فى التـحـادث مـعى والسـؤال بالتـفـصـيل عن أحـوالى أو فى مـحـاولة تسليـتى . كـانت مـهـمـة تسليـتى تقع علىّ أنا ، ومن ثم كنت أنا وإخـوتى نخـتـرع مـخـتلف الطرق لقـضـاء الوقت ، مما كـان يطلق لخيالنا العنان ، بما فى ذلك اختراع شخصيات خيالية أحيانا .

تسخر مؤلفة الكتاب ، بحق فى رأيى ، من الاعتقاد الشائع بين الآباء والأمهات ، فى عصرنا الحالى ، بأن من واجبهم ، إذا طلبوا من أولادهم وبناتهم أن يفعلوا شيئاً مـا أو أن يمتنعوا عن شىء ، أيا كـان هذا الشىء ، أن يعطوا دائما تفسيراً لهذا الطلب . فإذا سأل الطفل مـعترضـا على ما وجه إليه من طلب أو أمـر ، وهو على وشك البكاء والنحيب «ولكن لماذا؟» ، كـان علينا أن نشـرح له دائما الحـيـثـيـات والأسـبـاب ، وأن نتجنب تمامـا أى صـورة من صـور الطلب أو الأمـر ، تنطوى على مـحـاولة لفرض إرادتنا على الطفل . تقـول المؤلفـة : إن هذا الاعـتقـاد يفـرض على الآباء والأمـهـات فى كثير من الأحيان ما فوق الطاقـة وما لزوم له . وهـى تقول إنهـا بعد أن كانت تطبق هذه القاعدة أقلعت عنها ، وأصـبـحت فى كثير من

الأحيان ، إذا اعترضت إحدى بناتها على أمر أصدرته إليها وطالبت بمعرفة السبب ، أجابتها الأم بلهجة حاسمة : السبب هو أننى قلت هذا ، أى أن عليها تنفيذ الأمر دون مناقشة أو مماحكة ، ذلك أنه ليس لكل أمر تفسير يمكن أن يفهمه الطفل ، والأب والأم ليس لديهما دائما لا الوقت ولا هدوء البال الذى يسمح بإعطاء تفسير لكل شىء ، بل تذهب المؤلفة - بحق أيضا - إلى أن هذا الموقف ، إذا استخدم فى حدود معقولة طبعاً ، وما دامت الأوامر والطلبات لا تعنت فيها ولا ظلم ، له فوائد محققة فى تربية الطفل ، بل وقد لايكرهه الطفل فى قرارة نفسه . فالطفل لا يكره فى الحقيقة أن تكون فى مواجهته سلطة حازمة طالما كان مقتنعا بأن صاحب هذه السلطة يحبه ويبغى مصلحته .

تسخر المؤلفة سخرية ، تعاطفت معها تمام التعاطف ، من حالة تلك الأم التى قالت لطفلها أن الوقت هو وقت الاستحمام وأن عليه بناء مع ذلك أن يدخل إلى حوض الاستحمام بالمنزل ، فلما رفض الطفل ، لسبب غير مقبول ، حاولت الأم أن تسترضيا بمختلف الحجج ، فلما أصر على الرفض حاولت الأم إغراءه بأن تعرض عليه أن تنزل هى نفسها إلى حوض الاستحمام ، إذا قبل أن ينزل معها ، فقبل الطفل ذلك . تقصد المؤلفة بالطبع أن مجرد

إصدار أمر بسيط ولكن بحزم والإصرار عليه ، بأن على الطفل أن يستحم، كان كفيلا بتحقيق المطلوب دون أن تعرض الأم نفسها لكل هذا العذاب بل والهوان ، وأن الطفل له يصيبه أى سوء من هذا الاصرار وهذا الحزم .

تقول أيضا إننا أحيانا نستخدم هذه اللهجة الحازمة والحاسمة إذا كان الطفل على وشك أن يفعل شيئاً يهدد حياته بالخطر ، فلماذا لا نستخدمها أيضا فى أمور أخرى مهمة أيضا ؟ تقول إن أباهـــا وأمها كانا يستخدمان نفس اللهجة الحاسمة إذا صدرت من الابن أو الإبنة فى اتجاههما كلمة لا تتسم بالأدب والاحترام الكافيين . ذلك أنهما كانا لا يتصوران صدور مثل هـــذه الكلمة من طفل ، كما لا نتصور نحن أن يعرض الطفل نفسه للخطر ، الفرق بين الجيلين هو أننا أصبحنا نتساهل فى أمور ليس من المفروض أن نتساهل فيها ، ولم يكن جيل آبائنا وأمهاتنا يتساهل فيها .

كذلك تنتقد المؤلفة المسلك الشائع بين آباء وأمهات هذا العصر فى المبالغة فى تلبية طلب الطفل أن نلتفت إلى ما يصنع وأن نراقبه وهو يقوم بهذا العمل أو ذاك ، وابداء الإعجاب بهذا العمل مهما كان عملا عاديا . إن للطفل بالطبع ميلا إلى أن يلفت نظر

الكبار إلى ما يفعل ، إظهاراً لمهارته أو ذكائه ، أو بسبب اندهاشه من قدرة جديدة اكتسبها ولم يكن يتوقع هو نفسه أن تكون لديه هذه القدرة . هذا طبيعي ومفهوم تماما ، واظهار الاعجاب بمهارات الطفل شيء مستحب طبعا ومطلوب ، تشجيعاً له ودعما لثقته بنفسه ، ولكن لهذا الشيء المطلوب ، كما لكل شيء آخر ، حدودا يصبح بعدها سخيفا بل ومضرا . فإظهار الاعجاب في غير محله قد يصبح هو التدليل بعينه ، الذى يفسد الطفل ويعوّده على توقع الثناء حيث لا موجب له ولا مبرر ، كما قد يعوّد الطفل على الاعتقاد بأن الفائدة الوحيدة من القيام بعمل ما هى الحصول على الثناء والاعجاب من الغير ، وليس المتعة المباشرة التى تأتى من ممارسة الطفل لقدراته ، ناهيك بالطبع عن الضرر الذى يتحقق دائما إذا استقر لدى الطفل الاعتقاد بأن الكبار كلهم ، بل والعالم كله ، لا وظيفة لهم إلا متابعة ما يفعل، والجبر بخاطره ، والسهر على راحته .

وتبدى المؤلفة فى هذا الصدد ملاحظة ، إذا صحت ، تكون بالغة الخطورة وشديدة الأهمية ، وأنا أميل إلى الاعتقاد بأنها قد تكون قريبة جداً من الحقيقة . وهى أن هذه الظاهرة التى ذكرتها حالا، أى إظهار الاهتمام المفرط بكل ما يصدر عن الطفل ، وتكرار

ذلك بمناسبة وغير مناسبة ، قد تكون هى أحد الأسباب الأساسية وراء ميل الأجيال الجديدة من الشباب إلى القيام بأعمال تتسم بالعنف أو الاستهتار أو الاستهانة بالقواعد والقوانين ، كتعمد تخريب وتشويه الأموال العامة كوسائل المواصلات أو الحدائق العامة ، دون أى سبب واضح ، أو الاعتداء بلا مبرر على الناس فى الطريق العام ، أو المبالغة فى ممارسة العنف فى التعبير عن السخط أو التأييد فى المباريات الرياضية.. الخ ، فقد يكون السبب الحقيقي وراء كل هذا ، أو أحد أسبابه الرئيسية ، مجرد محاولة للفت الأنظار يقوم بها شباب اعتاد منذ الطفولة أن يحصلوا على الاهتمام المستمر من الأب أو الأم ، فلما خرجوا إلى العالم الواسع، وتعذر عليهم الحصول على نفس الدرجة من الاهتمام التى كان يعطيها لهم الأب أو الأم ، أصروا على الحصول عليها بأى ثمن ، فكانت هذه الأعمال العدوانية غير المفهومة وغير المبررة.

لقد عشت فى انجلترا بضع سنوات فى الخمسينات ، أى منذ نحو خمسين عاما ، ورأيت انجلترا فى السنوات الأخيرة . منذ خمسين عاما لم يكن ليتصور أحد ، انجليزى أو أجنبى ، أن يقوم شاب انجليزى بإخراج مدية من جيبه ليشوه مقعدا من المقاعد المرصوصة فى حديقة عامة جميلة أقيمت لاستمتاع الناس جميعا،

أو أن يحضر فرشاة وطلاء أسود ليسود بهما جدران مبنى جميل أو حائطا من الحوائط بإحدى محطات مترو الأنفاق . كان المعتقد منذ خمسين عاما أو أكثر ، أنه مع انتشار التعليم وزيادة الرخاء وكثرة التعرّض لمختلف أنواع الفنون ، سوف يرقى الحس الأخلاقى شيئا فشيئا ، وتصبح مراعاة الناس لمشاعر الاخرين أمرا بديهيا ومن مسلمات الحياة اليومية ، ولكن الذى حدث هو العكس بالضبط . أليس من الممكن أن يكون وراء هذا التطور المؤسف تبنينا لفلسفة خاطئة فى التربية ومعاملة الأطفال ؟

★ ★ ★

كيف نفسر هذا الموقف الغريب الذى أصبح شائعا بيننا فى تربية الأطفال ؟ يجب أن ننتبه فى البداية ، قبل أن نحاول التفسير، إلى أن هذه النظرة للأطفال هى جديدة بقدر ما هى غريبة . ففى أوروبا ، لا ترجع هذه النظرة إلى الأطفال إلى ما قبل القرن العشرين ، على أكثر تقدير . ففى العصر الڤيكتورى فى بريطانيا مثلا ، الذى استمر حتى بداية هذا القرن ، كان الشعار الشائع الذى يلخص النظرة إلى الأطفال هو أن «الأطفال يمكن أن يُروا ، ولكن يجب ألا يُسمعوا» .

(Children should be seen but not heard)

أما في مصر ، فالراجح أن هذه النظرة للأطفال أحدث من هذا بكثير . فقد كانت نادرة للغاية قبل ثلاثين عاما ، أما الآن فقد شاعت وانتشرت بشدة بين أفراد الطبقتين المتوسطة والعليا ، وبدأت تزحف بسرعة إلى العائلات الصاعدة من الشرائح الدنيا من الطبقة المتوسطة . إن وراء ذلك عوامل شتى : نظرة فلسفية ، وعوامل اجتماعية ، ودوافع نفسية ليست بالضرورة هي النظرة الأكثر حكمة أو العوامل والدوافع التي تساعد على خلق مجتمع أكثر سعادة - سواء تعلق الأمر بسعادة الآباء والأمهات أو حتى بسعادة الأطفال أنفسهم .

أما النظرة الفلسفية فتتعلق بالاعتقاد بغلبة عوامل البيئة على عوامل الوراثة . إن هذه النظرة تعود على الأقل إلى القرن الثامن عشر حيث بدأ يشيع الاعتقاد بأن الانسان يولد كالصفحة البيضاء التي تخط عليها البيئة الاجتماعية وطريقة التربية خطوطا بعد أخرى، تتشكل منها شخصية الفرد وطباعه ، وتحكم نمط سلوكه. كانت النتيجة الحتمية لهذه النظرة الميل إلى المبالغة في أهمية نوع التربية التي يتعرض له الطفل منذ أيامه الأولى . ولكن هذا الاعتقاد بأهمية البيئة لم يكن كافيا بحد ذاته لأن ينتج هذه الطريقة المبالغة في التسامح في التعامل مع الأطفال ، إذ من

الممكن جدا أن يقترن الاعتقاد بغلبة البيئة بنظام غاية فى التشدد فى تربية الأطفال، وقد ساد بالفعل هذا النظام فى التربية فى أوروبا حتى نهاية القرن الماضى على الأقل ، عندما بدأ الاعتقاد بالأهمية القصوى لنظام التربية يقترن بتفضيل التسامح على التشدد ، واللين فى المعاملة على القسوة . كان لافكار فرويد، قرب نهاية القرن التاسع عشر وفى العقود الأولى من القرن العشرين أثر لا ينكر فى انتشار هذا التفضيل للتسامح مع الأطفال على التشدد معهم ، إذ نبهت أفكاره الناس إلى الآثار المدمرة التى يمكن أن تنتج عن كبت بعض الدوافع الطبيعية لدى الطفل . ولكن من المؤكد أن هذا التسامح وهذا التساهل ما كان من الممكن لهما أن ينتشرا لولا ما حققه المجتمع الغربى فى القرن العشرين ، وعلى الأخص فى نصف القرن الأخير ، من شيوع الرخاء وزيادة ساعات الفراغ ، إذ ما كان لأب أو أم مرهقين بالعمل ، منذ أن يستيقظا فى الفجر وحتى يخلدا إلى النوم ، من أجل كسب العيش وسد الرمق، أن يتساهلا مع الأطفال بهذه الدرجة التى نراها اليوم .

ثم زاد الطين بلة بالطبع ، انتشار قيم المجتمع الاستهلاكى منذ الستينات ، فأغرق الأطفال بمختلف أنواع الألعاب ووسائل التسلية، وشاع التفنن فى صنع مختلف أصناف الحلوى التى

تخلب اللب بشكلها ومضمونها ، وبما تتضمنه من مختلف أنواع الرموز لكل ما يطمح إليه الطفل ، شعوريا أولا شعوريا . كل هذا كان لابد أن يصبح مرغوبا لمجرد أنه قد أصبح ممكنا . واستغل منتجو ومروجو السلع نقاط الضعف الطبيعية فى الأطفال فألحوا عليهم فى الإغراء ، واستغلوا نقاط الضعف الطبيعية لدى الأباء والأمهات فألحوا عليهم بالخضوع لهذا الاغراء ، وصوروا لهم أن الأب المثالى والأم المثالية هما اللذان يستجيبان لنوازع أطفالهم تمام الاستجابة ، ولا يقاومان أية رغبة من رغبات أطفالهم مهما كانت عارضة أو تافهة . وصوروا لهم أن الامتناع أو التردد فى الاستجابة لرغبات الأطفال دليل قسوة وغلظة لا يليقان بالأب العصرى أو الأم المتحضرة .

ولكن الأمر ليس بالطبع مجرد علاقة خضوع وإذعان . فالأب والأم لديهما أيضا بعض النوازع الطبيعية التى تجمل لديهم هذا الـ ـوع . فالمجتمع الاستهلاكى يستجيب لنزعات من الطبيعى أن توجد ، ولو بدرجات متفاوتة ، فى الناس جميعا : إشباع مختلف أنواع الحواس ، وإشباعها الآن أفضل من اشباعها غدا ، والرغبة فى التميز عن الغير بإظهار القدرة على إشباع هذه الرغبات بأكثر مما يستطيعه هذا الغير ، واتخاذ هذا الإشباع دليلا على التفوق

فى أمور أخرى ، كاتخاذ هذه القدرة الأكبر على الاستهلاك كدليل على التمتع بذكاء أكبر أو حيوية أشد أو طموح أبعد .. إلخ. المجتمع الاستهلاكى يستجيب بالطبع لكل هذه النوازع ، ولكن إشباع رغبات الأطفال بالذات ، له مزايا لا يمكن إنكارها فى هذا الصدد . فالأطفال بطبيعتهم أقل صبرا وأكثر لهفة على إشباع الرغبات ، ومطالبتهم بالانتظار حتى الغد معناه فى نظرهم الحرمان إلى الأبد ، وهم أكثر افتتانا بالجديد وأكثر انخداعا بالمظهر ، ومن ثم فالأطفال فى نظر المستفيدين المباشرين من المجتمع الاستهلاكى ، من منتجين وموزعين ومروجى السلع ، نعمة هبطت عليهم من السماء ، يجب استغلالها إلى أقصى حد . كذلك فإن الأطفال يحققون أيضا وظيفة لآبائهم وأمهاتهم لا يستطيع الآباء والأمهات تحقيقها بأنفسهم . فالأطفال ، هم أيضا ، نعمة هبطت من السماء على الآباء والأمهات يستطيعون من خلالهم تمديد قدرتهم على الاستهلاك إلى أبعد مما تسمح لهم قدراتهم الطبيعية على الأكل والشرب والاستمتاع بالحياة ، فهم يستمتعون بالمجتمع الاستهلاكى عن طريق غير مباشر عن طريق أطفالهم ، وهم أيضا يبعثون ، عن طريق أطفالهم ، بالغيظ والغيرة فى نفوس جيرانهم ومعارفهم ، وهم يشبعون عن طريق أطفالهم نفس

النزعات التى قد يعجزون عن تحقيقها بطريق مباشر ، كاثبات التفوق، وإثبات الذكاء والحيوية ، إذ أن أى نجاح يحققه الطفل لابد أن يصيبهم منه نصيب .

لاعجب إذن أن يزيد الميل إلى تدليل الأطفال والتسامح معهم مع ازدياد درجة الحراك الاجتماعى ، وسرعة انتقال الشرائح الاجتماعية الأدنى إلى أعلى . فالأطفال يقومون لآبائهم وأمهاتهم المنتمين إلى هذه الشرائح الاجتماعية الصاعدة ، بما يعجزون هم عن تحقيقه : يتكلمون بلغات أجنبية حيث عجز أباؤهم عن تعلمها أو إجادتها ، ويلعبون بأزرار الكومبيوتر حيث يئس الآباء والأمهات من فك طلاسمها ، ويبدون من الذوق فى اختيار الملابس والتعامل مع الناس ، ما عجزوا هم عن التدرب عليه فى صغرهم .

ساعدت ظاهرة المجتمع الاستهلاكى أيضا على زيادة ميل المرأة إلى العمل خارج المنزل . «فمطالب الحياة» ، أو ما يسمى الآن بذلك ، فى ظل المجتمع الاستهلاكى ، أكثر بكثير وأشد إلحاحا مما كانت فى ظل مجتمع أكثر قناعة . فالدخل الواحد الذى يحصل عليه الأب لا يكفى الآن لكل ما أصبح يعتبر من «ضروريات الحياة» ، ولابد من دخل آخر تحصل عليه الأم . فخرج الاثنان يسعيان فى طلب الرزق ، وزاد عدد الساعات التى يقضيها

الأطفال فى غيبة الأب والأم مما خلق شعورا بالذنب ، خاصة لدى الأم ، فإذا بها ، بمجرد عودتها إلى طفلها، لاتدخر شيئا فى سبيل إرضائه ، وإذا بكل طلباته تصبح في نظرها أوامر ، المشروع منها وغير المشروع ، الطبيعي وغير الطبيعي ، المفيد منها والضار . وللطفل استعداد طبيعي لاستغلال أى نقطة ضعف يجدها عند الكبار فى تعاملهم معه (أم هو استعداد طبيعي لدينا جميعا صغارا وكبارا ؟) فإذا به يستغل ما يراه فى أمه من ضعف نحوه ويمعن فى طلب المزيد . والأم العاملة لا تتحمل من أحد أن يبدى أى اعتراض على سلوك الطفل ، مهما كان السلوك الذى يعترض عليه غريبا وغير مقبول . فإذا بالمحيطين بالأم من بقية أفراد الأسرة يرضخون لرغبتها ، فهى الأم على أى حال ، وهى أدرى بمصلحة ابنها أو ابنتها ، وهم زائرون عارضون ، وليس لهم حق التدخل بين الأم وطفلها .

والنتيجة الحتمية هى ما نراه : مجتمع يدور حول الطفل ورغباته . إذا اجتمعت الأسرة حول المائدة ، فالطفل هو الذى يتحكم فيما يدور من حديث ، ويمتنع الحديث فى أي موضوع آخر، حتى يصاب الكبار باليأس من أي محاولة للحديث فيما يهمهم من أمور ، فإذا بهم يشتركون فى تدليل الطفل أو محاولة إرضائه أو

لفت نظره إلى شئ لم يكن منتبها إليه . والأمهات والآباء إذا قابلوا أصدقاءهم ومعارفهم فلا حديث بينهم إلا ما فعله طفلى وما أنجزه، مقارنة بما فعله طفلك وما لم ينجزه ، فخر بذكائه ، أو اكتشاف لعبقرية دفينة بدأت تظهر ، أو كلمة عارضة قالها الطفل فإذا بها قمة الطرافة والظرف ، أو ما قالته المدرسة فى مدحه ، أو ماحصل عليه من درجة باهرة فى الامتحان .... إلخ .

لقد كانت النوادى الرياضية تستجيب فى الأصل لرغبات الكبار البالغين من ذوى الميول لممارسة نشاط رياضي فإذا بها الآن تستجيب فى الأصل لرغبات الأطفال وتصبح ، فى الأساس ، مكان تجمع ولقاء الأطفال والمراهقين ، وأصبح الكبار يشعرون فيها أكثر فأكثر ، بالغربة ..

★ ★ ★

تقول المؤلفة إن هذا الاهتمام المتزايد ، والذى فاق كل حد ، بالأطفال ، جعل الأطفال يعاملون أكثر فأكثر وكأنهم من الكبار ، وجعل الكبار ، وياللحسرة ، يتصرفون أكثر فأكثر ، كأطفال . فالأطفال يسمح لهم بالجلوس والحديث حيث يجلس الكبار يتحدثون ، ويسمح لهم بمقاطعة الكبار إذا شاءوا ، وبتقليد الكبار فى كل ما كان يظن من قبل أنه مقصور عليهم ، مثل تدخين

السجائر أو مشاهدة الأفلام التى تصور العلاقات الجنسية أو أعمال العنف ، أو قيادة السيارات .... إلخ . فالسن الذى أصبح يسمح فيه بممارسة هذه الأعمال يميل إلى الانخفاض شيئا فشيئا . ولكن الكبار ، من ناحية أخرى ، بسبب انشغالهم المستمر بمطالب الأطفال ، وحرصهم الدائم على إرضائهم وتسليتهم، يقومون أكثر فأكثر بأعمال ما كان ليخطر ببالهم القيام بها لولا هذا ، فهم ينفقون جزءا متزايدا من وقتهم فى ممارسة نفس ما يقوم به أطفالهم من أعمال ، يقرأون معهم نفس الكتب ويلعبون معهم نفس الألعاب ، ويشاهدون معهم نفس الأفلام . فضلا عن الكتب التى لا يكفون عن قراءتها عن أفضل الطرق لتربية الأطفال (التى ربما كانت فى الحقيقة أسوأها) ، أو حضور المحاضرات والندوات عن الأطفال ومشاكلهم ، والرضوخ للمطالب المستمرة من المدرسين والمدرسات والنظار بالحضور إلى المدرسة لمناقشة هذا السلوك أو ذاك ، مما قد يكون قد صدر عن الطفل العزيز .

★ ★ ★

كم ابتعدنا عن الحكمة فى الطريقة التى نفكر بها فى أطفالنا وفى طريقة تعاملنا معهم . نعم ، ربما كان أجدادنا يبالغون فى الشدة ، ولكننا بكل تأكيد قد أخطأنا خطأ مريعا بالذهاب من

النقيض إلى النقيض . ربما كان أجدادنا يبالغون فى قبول كل شئ وكأنه شئ طبيعى وحتمى ولا يمكن تغييره ، ولكننا ذهبنا إلى أبعد من اللازم فى الاعتقاد بأننا نستطيع أن نتحكم فى كل شئ ونغير أى شئ . ربما كان أجدادنا يبالغون فى الأمل فى أن يشفى الطفل المريض دون استشارة الطبيب ، ولكننا أصبحنا نبالغ بشدة فى الجرى إلى الطبيب وإجراء التحاليل لدى أى كحة صغيرة تصيب الطفل أو لدى أى ارتفاع طفيف فى درجة الحرارة . كان المفكرون القدامى يبالغون فى الاعتقاد بأهمية عوامل الوراثة ، فأصبحنا نبالغ فى الاعتقاد بأهمية عوامل البيئة والتربية . نعم، إن هناك مجالا للتحسين والاصلاح ، ولكن هناك أيضا أشياء يولد بها الطفل وتدخل فى تركيبه الكيمائى والعصبى مما قد يستحيل تغييره ، على الأقل فى حدود علمنا الحالى . لا مبرر إذن بالمرة لهذا الشعور القاتل بالذنب كلما لاحظنا عيبا أو نقصا فى أولادنا ، وكأننا نحن المسئولون عن كل ما فيهم من عيوب وأوجه نقص ، وكأنه كان بإمكاننا أن نفعل ما من شأنه تخليص الابن أو البنت من هذا العيب أو النقص .

كم ابتعدنا أيضا عن الحكمة بالرضوخ لإلحاح وإغراء المجتمع الاستهلاكى ، حتى حولنا أولادنا إلى مجرد ميدان للمنافسة بيننا

وبين أقراننا ومعارفنا ، وسمحنا لهم بالاشتراك فى هذه اللعبة المميتة : لعبة المنافسة على الاستهلاك .

وكم ابتعدنا أيضا عن الحكمة بالظن بأن تربية الأطفال تحتاج باستمرار إلى استشارة الخبراء وقراءة عشرات الكتب لاستطلاع رأى خبراء علم النفس والتربية والصحة والتغذية .. إلخ وفقدنا الثقة فى الفطرة السليمة والشعور العفوى الذى لابد أن يكون بوصلتنا الأساسية فى تعاملنا مع الأطفال . وقد تكون هذه الفطرة وهذا الشعور العفوى فى معظم الأحوال ، مرشدا أقرب بكثير إلى الحكمة من آراء كل هؤلاء الخبراء .

ليس فى هذا الفصل كل أفكار الكتاب ، فالكتاب ثرى ويصعب أن أتعرض هنا لكل ما فيه . ولكن ليس كل ما فى هذا المقال قد ورد فى الكتاب . فقد اختلطت فى ذهنى بعض أفكارى وملاحظاتى ببعض أفكار الكتاب وملاحظاته ، حتى أصبح من الصعب علىّ أن أميز بين هذا وذاك ،ولابد أن يكون هذا الاختلاط قد انعكس فى هذا الفصل ، وليس فى هذا على أى حال ضرر كبير . كما أنى أظن أن هذا هو أيضا من سمات الكتاب الجيد : أن يستخرج الكتاب من قارئه من الأفكار ما لا يحتويه الكتاب نفسه .

(١٦)
رمــزى زكــى
وداعـــا للطبقـة الوسـطـى

يبـدو أن هناك أفكارا من الصـعب جـدا أن تموت ، مـهـمـا واجهتها من نوائب ، ومهما طرأ على العالم من تغيرات تنفيها وتؤكد عكسها ، مما يجعل المرء يميل إلى الاعتقاد أن وراء هذه القدرة الغريبة على البقاء والاستمرار شيئا آخر ومختلفا تماما عما إذا كانت الفكرة صائبة أو خاطئة ، تصف الواقع وصفا صحيحا أم لا تصفه . ربما كان وراء ذلك مجرد حاجة نفسية شائعة بين الناس للاعتقاد بصحتها .

من ذلك - فى رأيى - فكرة «التقدم» ، أى الاعتقاد بأن التاريخ يسير فى طريق مستقيم من الأسوأ إلى الأحسن . فمنذ بدأ شيوع هذه الفكرة على أيدى كتاب ومفكرى القرن الثامن عشر فى أوروبا ، أخذ الناس يعاملونها معاملة المعتقدات الدينية ، ولم يفلح أى شئ فى ضعضعة الإيمان بها ، لا الحروب العالمية ولامعسكرات

الاعتقال والتعذيب ، ولا الفاشية أو النازية ، ولا الديكتاتورية والاستبداد باسم الاشتراكية مرة وباسم الحرية والديمقراطية مرة أخرى ، ولا ازدياد أعمال العنف والإجرام ، ولا تفكك العائلة .... إلخ . يحدث كل هذا ولا يزال الناس يعتقدون فى قرارة أنفسهم أننا نسير من الأسوأ إلى الأفضل ، وأن كل قرن لابد أنه يفضل القرن الذى سبقه ، ولكنه أقل حسنا من القرن الذى يليه .

من هذه الأفكار أيضا ، التى تمتعت ولاتزال تتمتع بجاذبية شديدة لدى الكثيرين ، ولازالت تقاوم مرور الزمن مقاومة غريبة ، رغم كل ما حدث مما يدحضها ويؤكد عسكها بالضبط ، فكرة «الإفقار المتزايد» التى قال بها ماركس وانجلز منذ قرن ونصف. ومن اللافت للنظر أن هذه الفكرة ، من شأنها ، لو صحت ، أن تلقى ظلالاً كثيفة من الشك على الفكرة السابقة ، وهى فكرة التقدم، ومع ذلك فالفكرتان كثيرا ما تجتمعان فى الرأس نفسه ، ويعتنقهما الشخص نفسه .

ذلك أن من الطريف أنه من الممكن جدا أن يجتمع لدى المرء الإيمان العميق فى نفس الوقت نفسه بفكرتين متضادتين ، لأن كلا منهما يلبى حاجة ملحة فى نفسه ، فيمضى مطمئنا إلى صحة كل

منهما رغم هذا التعارض . فإذا لفت أحد نظره إلى تعارضهما، اخترع أى شىء ، مهما كان مصطنعا للتوفيق بينهما ، وراح يميل إلى الاستناد إلي إحدى هاتين الفكرتين فى بعض الأوقات وإلى الفكرة المضادة لها فى أوقات أخرى .

والمقصود بفكرة «الافقار المتزايد» ، ما قال به ماركس وانجلز منذ إصدارهما البيان الشيوعى فى ١٨٤٨ ، وتردد منذ ذلك الحين مراراً وتكراراً فى الكتابات الماركسية ، من أنه مع مرور الزمن سيزيد الفقراء فقراً ، وعلى الأخص سوف يزيد حال الطبقة العاملة سوءاً ، وسوف تتعرض لاستغلال متزايد من جانب أرباب الأعمال.

وقد اقترنت فكرة «الافقار المتزايد» هذه ، بفكرة تدهور الطبقة الوسطى وانحدارها ، بل وانخفاض حجمها ومركزها النسبى فى المجتمع ، بسبب ما تتعرض له شرائح منها لمنافسة أرباب العمل الكبار ، فلا تقدر هذه الشرائح على منافستهم فى استخدام وسائل الانتاج الأكثر تطوراً ، فتضطر إلى ترك مواقعها ، وتنضم إلى صفوف البرولتياريا ، أى تلك الطبقة التى ليس لديها ما تتكسب منه إلا بيع قوة عملها .

منذ قال ماركس وانجلز بهذه النظرية منذ ١٥٠ عاما ، حدث فى العالم الرأسمالي ما يشير إلى عكسها بالضبط ، إذ تحسنت

أحوال العمال شيئاً فشيئاً مع تقدم الرأسمالية ، وارتفاع مستوى الأجور ارتفاعا ملحوظا ، وزاد اشتراك العمال فى التمتع بثمرات التقدم التكنولوجى ، حتى جاء ما عرف «بدولة الرفاهية»، فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، فانتشر فى دولة رأسمالية بعد أخرى اتجاه قوى نحو إعادة توزيع الدخل لصالح الطبقات الأقل دخلا ، فارتفع مستوى الأجور بمعدلات أعلى منه فى أى وقت مضى ، وانخفضت البطالة إلى حدودها الدنيا ، بل وطبق نظام التأمين ضد البطالة نفسها ، فتحسنت حال الطبقة العاملة أكثر فأكثر ، وظهر فساد قانون «الافقار المتزايد» ، وأنه لا يمكن أن يؤخذ باعتباره قانونا عاما يصف التطور الحتمى للرأسمالية .

حاول كثير من الكتاب الماركسيين محاولات يائسة وغير مقنعة لإنقاذ قانون «الإفقار المتزايد» ، فقالوا : إن ماركس لم يقصد الإفقار المطلق بل الإفقار النسبى ، أى ليس انخفاض المستوى المطلق للأجور بل انخفاض نسبة الأجور إلى الربح ، وهو تفسير يتعارض تماما مع ما قصد إليه ماركس من ناحية ومع واقع الحال من ناحية أخرى . فعبارات ماركس فى هذا الشأن ، إذا فهمت فهما مباشرا غير ملتوٍ ، تعنى ازدياد الفقر المطلق والنسبى ،

والإحصاءات المتوافرة عن القرن الذى انقضى على ظهور البيان الشيوعى ، أى بين منتصف القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين ، تشير على نحو قاطع إلى اتجاه نصيب الأجور فى الدخل القومى ، فى العالم الرأسمالى إلى الزيادة على حساب نصيب الأرباح . كا أنها تشير إلى أنه خلال ذلك القرن زاد حجم الطبقة الوسطى (أيا كان تعريفنا لهذه الطبقة) بالنسبة إلى الحجم الإجمالى للسكان فى أى مجتمع من المجتمعات الرأسمالية المتقدمة ، مما يدحض أيضا مقولة اندحار شرائح متزايدة من هذه الطبقة لينضموا إلى الطبقات العاملة .

ليس من الصعب أن يخمن المرء العامل النفسى الذى يكمن وراء هذا الميل الغريب للتمسك بمقولة «الإفقار المتزايد» . فالنفوس الثورية (وكلنا يحمل من ذلك نصيبا يزيد أو ينقص) تميل دائما إلى الاعتقاد بأن الثورة التى تحلم بها على الأبواب ، وأن سقوط الظلم سقوطا نهائيا هو قاب قوسين أو أدنى . ولكن تحسّن الأحوال من شأنه أن يؤخر هذه الثورة ويؤجل سقوط الظلم ، ومن ثم فكل ما يشير إلى ازدياد الأمر سوءاً قد يكون ، بعكس ما يبدو لأول وهلة ، مبشرا بشىء طيب وهو الثورة ، «والإفقار المتزايد» هو من هذه الأشياء التى «تبشر» بذلك !

لابد من الاعتراف مع ذلك بأن تاريخ الرأسمالية يعرف بالفعل فترات يصح فيها القول بأن الإفقار كان يميل فيها حقا إلى التزايد ، وأن التفاوت في الدخول خلالها ، بين أصحاب الدخول الدنيا والعليا قد زاد ، وأن شرائح من الطبقة الوسطى تدهورت أحوالها بحيث جعلها تقترب من مستويات الطبقات الدنيا . كانت هذه هي فترات الأزمات الدورية التي حفل بها تاريخ الرأسمالية ، والتي تنبأ بها ماركس أيضا ، حيث تفوق قدرة المنتجين على الانتاج قدرة المشترين على الشراء ، فيعجز الطلب الكلي عن استيعاب مجموع السلع المنتجة ، فتنخفض الأسعار والأرباح ، ويتشاءم المستثمرون ويقللون من حجم استثماراتهم ، فتزيد البطالة ، وتنخفض الدخول ويعم الركود . وإذا كان هذا الانخفاض في الدخول يشمل الجميع ، فإنه يصيب محدودي الدخل بدرجة أكبر مما يصيب أصحاب الدخول العليا ، فيزيد التفاوت في الدخول ، وتزيد أعباء الطبقة الوسطى ، بل ينضم أعداد منهم إلى صفوف البرولتياريا . يحدث هذا بصفة دورية في المدى القصير ، ولكن هذا الانخفاض الدوري في النشاط الاقتصادي يعقبه اتجاه صعودي ، وتحدث هذه الدورات حول منحنى آخذ في الصعود المستمر في المـــدى الطويل . فاتجاه الرأسمالية في المدى

الطويل ، وعلى الأخص فى المدى الطويل جدا ، أى عبر القرنين الماضيين ، كان قطعا اتجاها صعودياً فيما يتعلق بارتفاع متوسط الدخل لكل شرائح المجتمع، ونحو نمو الطبقة الوسطى نمواً مطلقا ونسبيا . فمن المؤكد أن حجم هذه الطبقة فى أى مجتمع من المجتمعات الغربية هو الآن أكبر بكثير مما كان فى منتصف القرن العشرين ، ناهيك عما لو قارناه بحجمها النسبى (والمطلق طبعا) فى مطلع ذلك القرن ، أو فى منتصف القرن التاسع عشر وهكذا .

ولكن استجابة لذلك الموقف النفسى الذى أشرنا إليه منذ قليل (فضلا عن مختلف الاعتبارات السياسية) نجد دائما أنه كلما حلت بالرأسمالية فترة من فترات الركود والانكماش ، انبرى بعض الكتاب من ناقدى الرأسمالية والكارهين لها والمتعجلين لسقوطها ، ليعيدوا إحياء قانون الإفقار المتزايد مؤكدين علي ما يحدث من تدهور فى أحوال الطبقات الدنيا ، ومن اتساع الفجوة بين الدخول ، ومن انحدار فى أحوال الطبقة الوسطى .

ينتمى كتاب «وداعا للطبقة الوسطى» للدكتور رمزى زكى (دار المستقبل العربى ، ١٩٩٧) ، إلى هذا النوع من الكتابات ، مثل كثير من كتابات المؤلف نفسه في العشر سنوات الأخيرة ، فهو

كثير التنبيه والتحذير من تفاقم أزمة الرأسمالية فى العالم المتقدم والمتخلف على السواء ، وتوحى كتاباته دائماً بأن الأمر لايمكن أن يستمر طويلا على هذا الحال ، وأن نهاية الرأسمالية أقرب مما يتصور الكثيرون . ولكنه فى هذا الكتاب الأخير ذهب إلى أبعد مما يذهب إليه عادة فهو يبدو هنا أكثر تشاؤما من ذى قبل (أم هل نقول أكثر تفاؤلا ؟) .

عنوان الكتاب يدل على النتيجة التى يصل إليها المؤلف ، وهى أن الطبقة الوسطى ، فى كلا العالمين المتقدم والمتخلف ، آخذه فى التضاؤل ، ومن ثم فقد آن لنا أن نقول لها «وداعا» . ولكنك تبحث فى الكتاب عن الحجج التى دفعت المؤلف إلى الجزم بذلك فلا تجد أكثر كثيرا من ترديده ما معناه أن الفجوة بين أكثر السكان دخلاً (الذين يمثلون نحو ٥٪ من السكان) وأقلهم دخلا (نحو ٢٠٪ من السكان) قد اتسعت بشدة فى العقدين الأخيرين ، مع إيراد مختلف الإحصاءات الدالة على ذلك . ولكن يتساءل القارىء : ما المانع من أن يقترن اتساع الفجوة بين القمة والسفح بنمو ، فى نفس الوقت ، فى حجم الطبقة الوسطى بل وبتحسن ملحوظ فى أحوال هذه الطبقة ؟ إن من الممكن مثلا أن نتصور مجتمعا تشكل فيه الطبقة الوسطى ٦٠٪ من السكان ، والطبقة

العليا ١٠٪ ، والطبقة الدنيا ٣٠٪ ، ويمر هذا المجتمع بفترة من الزمن تزداد فيها دخول الطبقة العليا بشدة ويبقى متوسط الدخل للطبقة الدنيا ثابتا ، ومن ثم تزداد الفجوة بين الاثنين اتساعا ، ومع ذلك يتحسن في الفترة نفسها حال الطبقة الوسطى بدرجة كبيرة ، سواء من حيث مستوى دخلها المطلق أو دخلها النسبى بالمقارنة بكلا الطبقتين العليا والدنيا ، كما يزيد حجمها المطلق زيادة ملموسة ، بل وربما اقترن ذلك أيضا بضرورة إعادة رسم الخطوط الفاصلة بين الطبقات الثلاث ، بحيث يصبح من الواجب مثلا (أو الملائم) اعتبار أن الطبقة الدنيا تمثل أقل من ٣٠٪ من السكان ، والطبقة الوسطى أكثر من ٦٠٪ .

ذلك أنه ليس هناك تعريف «للطبقة الوسطى» يمكن اكتشافه بالرجوع إلى القواميس ، إذ أن هذا التعريف ينطلق من موقف شخصي وتحكمي يتأثر بعوامل عدة من بينها ، ليس فقط ما يعتبره المرء دخلا «متدنيا» أو دخلا «عاليا» ، ومن ثم ما يعتبره دخلا «متوسطا» ، بل من بينها أيضا تشخيص المرء لمطامح الشرائح الإجتماعية المختلفة ، ولنظرتها إلى نفسها وإلى الشرائح الأعلى منها أو الأدنى ، وما تعتبره كل شريحة منها من ضروريات الحياة وما تعتبره من الكماليات ، وما تعتبره مصدرا للرضا عن

النفس أو لاحترام الغير لها .. الخ . وهذه كلها اعتبارات تتفاوت ليس فقط بين مجتمع وآخر ، وبين ثقافة وأخرى ، بل وفى المجتمع الواحد بين زمن وآخر . يترتب على ذلك أن من الممكن جدا أن يزيد اتساع الفجوة بين فئات الدخل العليا وفئاته الدنيا ، دون أن يعنى ذلك بالضرورة انكماشاً فى حجم «الطبقة الوسطى» .

من المهم أيضا أن نلاحظ أهمية الأفق الزمنى الذى يختاره الباحث، للحكم بما إذا كانت الطبقة الوسطى آخذة فى الانحسار أم التوسع . فلماذا يبنى المؤلف مثلا حكمه على المستقبل على أساس ما حدث فى العقدين أو الثلاثة الماضية ؟ بدلا من أن يتخذ أساسا لحكمه مدى زمنيا أوسع ، وهو فى رأيى الأنسب فى مثل هذه الموضوعات ، المتعلقة بالتركيب الطبقى للمجتمع . فانقسام المجتمع إلى طبقات ، عليا ووسطى ودنيا ، ظاهرة بطيئة التغير ، فلا يصلح لتحليلها وتشخيصها نظرة قصيرة المدى ، إذ ما قد يحدث لها فى خمس أو عشر سنوات قد يلغيه ما يحدث فى السنوات الخمس أو العشر التالية ، وهى ظاهرة لا تتعلق فقط بمستويات الدخول والثروة ، بل وبالمواقف النفسية وآمال وطموحات الشرائح الاجتماعية المختلفة وبل وبقيمها وسلم أولوياتها ، وهذه كلها أمور عميقة الغور لا تتغير بسرعة .

ولكن المؤلف يبني حكمه بانحسار الطبقة الوسطى على ملاحظاته لما حدث في الأساس منذ تطبيق السياسات الريجانية والثاتشريه، وظهور ما يسمي الآن «بالليبرالية الجديدة» أى منذ نحو عشرين عاماً ، وهى فترة تعتبر قصيرة فى مثل هذا المجال الذى نحن بصدده . يؤيد هذا أن ذلك التدهور الملحوظ فى توزيع الدخل ، لصالح الطبقات العليا وضد الطبقات الدنيا (وربما بعض شرائح الطبقة الوسطى أيضا) حدث مثله من قبل أكثر من مرة فى تاريخ الرأسمالية ، ولكنه عاد فصُحح مع مرور الزمن ، بحيث أصبح التطور الملحوظ فى المدة الطويلة ، هو اتساع الطبقة الوسطى وزيادة وزنها المطلق والنسبى ، وليس الانحسار والأفول .

إن المؤلف ينعي على الفترة الحالية من عمر الرأسمالية ، أى العقدين أو العقود الثلاثة الأخيرة ، أنها لم تقترن ، مثلما اقترنت فترات سابقة ، بتحسن فى أحوال الطبقة الوسطى والطبقة الدنيا ، فيقول فى صفحة ٣٨ «إنه على العكس مما حدث فى الثورة الصناعية الأولى والثورة الصناعية الثانية ، فإن ثمار ومكاسب زيادة الانتاجية الناجمة عن تكنولوجيا الثورة الصناعية الثالثة توزع الآن بشكل استقطابى حاد جدا . فبينما أدت تكنولوجيا الثورة الأولى والثورة الثانية إلى أن يكون للعمال ولأعضاء الطبقة

الوسطى نصيب فى الزيادة التى حدثت فى الانتاجية ، من خلال زيادة أجورهم الحقيقية (بالتوازى مع النمو الحادث فى الانتاجية) وتقصير وقت العمل ، وزيادات الاجازات السنوية ، والرعاية الصحية ، والتأمين ضد البطالة والشيخوخة إلى آخره ، فإن النمو الهائل الذى حدث ، ويحدث الآن ، فى الانتاجية من جراء الثورة الراهنة فى التكنولوجيا ، قد استأثر بثماره فئة قليلة جدا من الأفراد .. وما رافق ذلك من آثار (انتشار الجريمة والعنف والعنصرية .. إلى آخره . يحذر بعض المفكرين (جيريمى ريفكين مثلا) من خطورة استمرار هذا الوضع الذى يشبه - فى بعض جوانبه - العالم الكئيب الذى صوره تشارلز ديكنز فى روائعه التى كتبها عن مرحلة الثورة الصناعية الأولى »

ولكن فى هذا تصويراً غير دقيق وغير كامل لما حدث فى المراحل التاريخية السابقة . ففى كلا الفترتين اللتين يطلق عليهما أحيانا اسم «الثورة الصناعية الأولى» «والثورة الصناعية الثانية» ، حدث فى البداية ، مثلما يحدث الآن ، مما يسمى أحيانا بالثورة الصناعية الثالثة ، تدهور شديد فى توزيع الدخل ، واتساع كبير فى الفجوة بين فئات الدخل العليا والدنيا ، أعقبه تحسن فى هذا التوزيع وانكماش فى الفجوة ، واتساع ملحوظ فى حجم الطبقة

الوسطى . فليس صحيحا بالطبع أن الثورة الصناعية الأولى (١٧٥٠ - ١٨٥٠) قد اقترنت من البداية بتحسن فى أحوال العمال، والأدلة على ذلك معروفة ومشهورة ، منها ما يشير إليه المؤلف نفسه عن «العالم الكئيب الذى صوره تشارلز ديكنز فى روائعه التى كتبها عن مرحلة الثورة الصناعية الأولى» ! كذلك فإن ما يسمى بالثورة الصناعية الثانية (١٨٦٠ - ١٩١٤) أعقبتها فترة الكساد الشهير فى الثلاثينيات التى زادت فيها أيضا الفجوة بين الدخول وتدهورت خلالها أحوال الطبقة الوسطى ، ولكن هذه الفجوة عادت إلى الانكماش وعادت الطبقة الوسطى إلى الانتعاش خلال الحرب العالمية الثانية وفى أعقابها .

ولا أظن أن هذه الدورات والتحولات فى حجم الفجوة بين الدخول وفى حجم الطبقة الوسطى هى من قبيل الصدف التاريخية ، إذ أن من الممكن للمرء أن يشير إلى أسباب قوية تجعل من شبه المحتم أن يحدث هذا التحسن بعد فترة من التدهور فى توزيع الدخل . وأقصد بذلك ضروريات «التسويق» . إذ أنه لايمكن أن نتصور أن تستمر قوة المجتمع الانتاجية فى النمو وتستمر الفجوة بين الدخول فى الاتساع ، ويستمر التدهور فى أحوال الطبقة الوسطى إلى مالا نهاية ، إذ لو حدث واستمر هذا

فلابد بعد فترة ، طالت أو قصرت ، أن ينعكس فى تباطؤ نمو الاقتصاد بسبب صعوبات تصريف السلع والخدمات المطروحة للبيع .

إن اتساع الطبقة الوسطى فى المدى الطويل من تاريخ الرأسمالية ، كان ضرورة تكنولوجية قبل أن تكون ضرورة اجتماعية أو إنسانية ، فلا يمكن مثلا أن نتصور أن يزداد انتاج السيارة الخاصة بمعدلات كبيرة دون أن تنمو الطبقة الوسطى القادرة على استهلاكها .

كان من الممكن إذا لمؤلف هذا الكتاب أن يجد فيما حدث فى الفترات التاريخية الماضية ما يبعث فى نفسه أملا أكبر فى إمكانية التحسن وعودة الطبقة الوسطى إلى النمو من جديد ، بفرض أنها فعلا آخذة فى الانحسار . ذلك أن كل البيانات التى يوردها الكتاب من تأييد القول بانحسار الطبقة الوسطى تتعلق فى الأساس بالطبقة الدنيا لا الوسطى ، وإنما يلحق المؤلف الطبقة الوسطى بالطبقة الدنيا إلحاقا ، من أجل تدعيم حجته . فهو كلما تكلم عن تدهور أحوال فئات الدخل الدنيا حرص على إضافة «أبناء الطبقة الوسطى» ، خاصة الشرائح الدنيا منها (انظر مثلا ص ٩٨) ، وكلما تكلم عن تدهور أحوال الطبقة الوسطى ، حرص على أن

يلحق بها أفراد الطبقة الدنيا أيضا (انظر مثلا ص ٩٣) لكى يصبح التعميم أكثر قبولاً وأقل تعرضا للشك . وليس فى الكتاب على أى حال تعريف واضح ومقبول لما تعنيه عبارة الطبقة الوسطى ويسمح بالتحقق مما إذا كان قد أصاب هذه الطبقة تحسن أم تدهور . فالتعريف الذى يورده المؤلف للطبقة الوسطى (ص ٨٤ - ٨٥) بأنها «مختلف الشرائح الإجتماعية التى تعيش بشكل أساسى على المرتبات المكتسبة فى الحكومة والقطاع العام وفى قطاع الخدمات والمهن الحرة الخاصة ، بمعنى أنها تضم من يعملون لحساب أنفسهم» تعريف غريب وغير دقيق ويتناقض أوله مع آخره . فمن المؤكد أنه ليس كل من اعتمد «بشكل أساسى» على مرتبه هو من الطبقة الوسطى ، فقد يكون الأنسب إدراج كثير من هؤلاء فى الطبقة الدنيا ، وليس كل من يعمل لحسابه من الطبقة الوسطى، بل قد ينتسب كثير من هؤلاء إلى الطبقات العليا .

من الغريب أيضا أن المؤلف لم يجر تمييزا كافيا بين مصير الطبقة الوسطى فى الدول الصناعية المتقدمة وبينه فى الدول الأقل نمواً ، مع أن بعض العوامل التى أشار إليها واعتبرها مسئولة عن انكماش الطبقة الوسطى فى الدول الصناعية ، من شأنها أن

تحدث العكس بالضبط في الدول الأقل نموا ، أى إلى ازدهار ونمو الطبقة الوسطى . وأقصد بذلك اتجاه الشركات العملاقة إلى الخروج باستثماراتها الجديدة إلى الدول الأقل دخلا للإفادة من الانخفاض النسبى فى أجور العمال . إن للاستثمارات الأجنبية الخاصة التى تقوم بها هذه الشركات فى دول العالم الفقير نقائص وأضراراً كثيرة لا يمكن إنكارها ، كما أن كثيراً مما ينسب إلى هذه الاستثمارات من منافع يقال إنها تعود على هذه الدول الفقيرة، مبالغ فيه ومردود عليه . من ذلك ما يقال عن أن هذه الاستثمارات الأجنبية الخاصة سوف تساهم مساهمة فعّاله فى تخفيض معدل البطالة فى هذه الدول . إن الأرجح أن شرائح الدخل الدنيا فى الدول الفقيرة لن يصيبها نفع يذكر من هذه الاستثمارات بسبب طبيعة ما تنتجه من سلع ، ونوع ما تطبقه من تكنولوجيا ونمط توزيع الدخل الذى تعتبر هذه الشركات أن من صالحها أن يسود فى هذه الدول ، كما أن الأرجح أن هذه الاستثمارات الأجنبية الخاصة سوف يترتب عليها ارتفاع فى معدل البطالة فى هذه الدول بدلا من انخفاضه . ولكن كل هذا لايعنى أن الطبقة الوسطى فى دول العالم الثالث لابد أن تأخذ فى

الانحسار والتضاؤل . مرة أخرى نقول : إن من الممكن أن يزيد أغنى ٥٪ أو ١٠٪ من السكان ثراء ودخلا ، ويزيد أفقر ١٠٪ أو ٢٠٪ من السكان فقراً وبؤسا ، ومع ذلك يزيد حجم الطبقة الوسطى من ١٠٪ أو ٢٠٪ إلى ٤٠٪ أو ٥٠٪ من السكان . قد تمر فترات بهذه الطبقة الوسطى أكثر صعوبة من غيرها ، ولكن هذه الطبقة قد تأخذ في النمو في المدى الطويل رغم زيادة الفجوة بين أكثر الناس غنى وأكثرهم فقراً . ذلك أن مصالح هذه الشركات العملاقة قد لا تتعارض البتة ، مع نمو الطبقة الوسطى في البلاد الفقيرة بل قد تتفق معه وتتطلبه ، إذ أن ما تحتاج هذه الشركات إلى تسويقه هو في الأساس من متطلبات هذه الطبقة أكثر من غيرها ، ونوع العمالة التي تحتاج إليه اكثر من غيره في هذه البلاد ، هو مما يتطلب درجة من المهارة والتعليم لا تتوافر إلا في أصحاب مستوى متوسط من الدخل . إن مختلف جوانب السياسة المعروفة باسم «الانفتاح الاقتصادي» ينطبق عليها ما ذكرناه حالاً عن الاستثمارات الأجنبية الخاصة ، من حيث تشجيعها على نمو طبقة وسطى ، وإن كانت شديدة الوطأة على أصحاب الدخول الدنيا ، كتحرير التجارة الدولية ، وزيادة الاعتماد على تصدير

السلع والخدمات بدلا من سياسة الاحلال محل الواردات ، وزيادة الاعتماد على المعونات الأجنبية . فهذه السياسات لا يتوقع أن تفيد منها شرائح الدخل الدنيا ، ولكن من الممكن جدا ، بل والأرجح أن تؤدى إلى نمو الطبقة الوسطى .

وتجربة مصر فى الانفتاح الاقتصادى تؤيد هذا . فالطبقة الوسطى فى مصر فى أواخر التسعينات هى أكبر حجما مما كانت منذ ربع قرن ، مهما كانت المعايير التى تتبناها لتحديد هذه الطبقة : حجم الدخل والثروة ، أو نوع الطموحات والتطلعات ، أو نظرة الفرد إلى نفسه بالمقارنة بمن هم أعلى منه فى المركز الاجتماعى أو أدنى ، أو أنماط السلوك والقيم .. الخ (وقد حاولت أن أدلل على هذا النمو فى الطبقة الوسطى المصرية فى كتاب لى بعنوان : « ماذا حدث للمصريين » : التطور الاجتماعى فى مصر فى نصف قرن ، ١٩٤٥ – ١٩٩٥» ، كتاب الهلال ، يناير ١٩٩٨) صحيح أن الطبقة الوسطى فى مصر قد أصابتها منذ منتصف الثمانينات مصاعب جمه ، بسبب مختلف اجراءات السياسة الاقتصادية التى اتبعتها مصر تحت ضغط صندوق النقد والبنك الدوليين ، مما يناقشه بالتفصيل كتاب د. رمزى زكى ، ومما يعرف

بإجراءات التثبيت الاقتصادى والتكيف الهيكلى ، ولكن زيادة الاعباء والمصاعب الواقعة على فرد ما أو على شريحة اجتماعية معينة ، لا تؤدى بالضرورة إلى انتقال هذا الفرد أو الشريحة من طبقة لأخرى ، كما أنها لا تعنى بالضرورة تدهورا أبديا أو اختفاء من الوجود إلى الأبد ، مما قد توحى به عبارة «وداعاً للطبقة الوسطى» .

(١٧)
جوزيف استيجليتز
نكد العولمة

ما أكثر ما كتب اقتصاديون ينتسبون للعالم الثالث ، فى نقد العلاقات الاقتصادية الدولية السائدة ، وصندوق النقد والبنك الدوليين ، ولكن كم كان صدى هذا النقد ضعيفا وما أقل استجابة هاتين المؤسستين له . كانت هذه الانتقادات تعامل من جانب المهيمنين على النظام الاقتصادى أو المشتغلين بمثل هذه المؤسسات باستهانة تثير الغيظ ، وبتكبر وتعال ، هذا بفرض أنهم تنازلوا وقاموا بالرد على هذه الانتقادات أصلا .

إقرأ مثلا ما كتبته مجلة مثل الايكونوميست البريطانية عن مظاهرات سياتل احتجاجا على سياسات التجارة الدولية ومنظمة التجارة العالمية فى نوفمبر ١٩٩٩ ، أو فلتتذكر الردود التى قابل بها رجال صندوق النقد الدولى ما وجه اليهم من نقد عندما وقعت أزمة جنوب شرقى آسيا فى ١٩٩٧ ، أو عندما قامت مظاهرات

الارجنتين في العام الماضى ، احتجاجا على ما جلبه أتباع توجيهات الصندوق من مآس للشعب الأرجنتينى ، أو السهولة التى يتعامل بها رجال الصندوق مع سقوط «معجزة» بعد أخرى من المعجزات التى زعموا المرة بعد الأخرى أن سياساتهم وتوجيهاتهم تؤدى إليها ، فإذا بهم يجدون لكل سقوط تفسيرا غير اتباع هذه التوجيهات ، ويجدون دائما أعذاراً ومسببات يلقون عليها بمسئولية الفشل . حدث هذا فيما يتعلق بمعجزة البرازيل ومعجزة أندونيسيا ويحدث الآن فيما يتعلق بمعجزة تركيا .. الخ .

كان كل هذا يثير الغيظ والحنق ، ولكن أخيرا جاءت الشهادة من واحد من أهلها ، فوضع الحق فى نصابه وانتصر للحق الذى طالما نطق به المظلومون فلم يستمع إليهم أحد . حدث هذا بظهور كتاب لاقتصادى أمريكى شهير حصل على جائزة نوبل فى الاقتصاد فى سنة ٢٠٠١ ، وهو جوزيف استجلتز (Joseph Sti-glitz) فأحدث ظهوره منذ شهور قليلة ضجة كبرى لازالت قائمة حتى الآن ، ولم تستطع أى مؤسسة من المؤسسات المناصرة لصندوق النقد الدولى أن تتجاهله ، و ' بت - اة الايكوندميست البريطانية ، الناطقة بنفس الفلسفة التى ينادى بها الصندوق ،

مـذعـورة ، تسب وتشـتم هذا المؤلف الذى خـان أصـدقـاءه وتنكر للعقيدة التى يدينون بها .

كان جوزيف استجلتز قد قضى الجزء الأكبر من حياته المهنية استاذا وباحثا أكاديميا ، حتى لا تكاد أن تكون هناك جامعة أمريكية واحدة من جامعاتها الكبرى واكثرها عراقة ، لم يشغل فيها استجلتز كرسى الأستاذية ، ثم اختاره الرئيس الأمريكى السابق كلينتون عضوا ثم رئيساً لمجلس مستشاريه الاقتصاديين ، ثم شغل فى أواخر التسعينات منصب كبير الاقتصاديين فى البنك الدولى ، وكأنه بقبول هاتين الوظيفتين الأخيرتين أراد أن يرى بعينيه ويلمس بيده كيف تتم صياغة السياسات الاقتصادية فى الواقع بعد أن ظل سنوات طويلة غارقا فى العمل الأكاديمى ، يفكر فى النظريات ويصوغ الأفكار التى قد تكون بعيدة عما يجرى فى الحياة الواقعية .

ومن المؤكد ، كما يتضح لدى قراءة هـذا الكتاب الأخير، أن الذى رآه فى الحياة الواقعيـة لم يعجبه ، وهو ما يتضح أيضا من العنوان الذى اختاره للكتاب (Globalization and its Discontents ,Allen Lane, London, 2002) الذى يمكن أن يترجم حرفيا بعبارة (العولة ودواعى السخط عليها) وقد استوحى

استجلتيز العنوان بلاشك من عنوان كتاب سيجموند فرويد الشهير Civilization its Discontents (الحضارة ودواعى السخط عليها) . ولكن من الممكن أيضا استخدام كلمة (النكد) فى ترجمة كلا العنوانين ، نكد الحضارة في حالة فرويد ، ونكد العولمة فى حالة استجليتز . فكلمة «النكد» تعبر تعبيرا جيدا عما يدور فى ذهنه . وحيث أن معظم الانتقادات ودواعى السخط التى يذكرها الكتاب موجهة إلي صندوق النقد الدولى ، فكلمة «النكد» لا تخلو من طرافة ، إذ ما أكثر ما استخدمت هذه الكلمة فى التعبيرات الجارية فى مصر عند الإشارة إلي المآسى التي تجلبها سياسات هذا الصندوق ، حتى ورد مرة فى حديث لرئيس الجمهورية المصرى إشارة ساخرة إلى الصندوق بأنه «صندوق النكد الدولى»!

فما هو هذا الذى يغضب استجلتيز فى العولمة بصفة عامة ، ومن صندوق النقد الدولى بالذات ؟

★★★

أما العولمة فاستجلتيز يرى بحق أن العولمة لا يمكن اعتبارها خيرا مطلقا ولا شرا مطلقا ، وهى على أى حال شئ حتمى لافرار منه . ولابد أن نتفق مع استجليتز فى هذا ، فالعولمة هى فيما يبدو

النتيجة الطبيعية للتطور التكنولوچى . والتطور التكنولوچي هو بدوره نتيجة طبيعية لذلك الحافز القوى الكامن فى الإنسان ويدفعه باستمرار إلى محاولة اكتشاف أى وسيلة جديدة من شأنها تخفيف أعباء الإنتاج ومشاق الصراع من أجل الحياة . هذا التطور التكنولوچى لابد أن يؤدى ، ببطء أحيانا وبسرعة أحيانا أخرى ، إلى مزيد من التقارب بين الناس (ولو تقاربا ماديا بحتا) وتضاؤل المسافات الفاصلة بين الأمم (المسافات المادية وغير المادية) ، وهذا لابد بالضرورة أن يكون خيرا من نواح وشرا من نواح أخرى .

العولمة ، أو بتعبير أدق ، الارتفاع المستمر فى معدل العولمة ، هى فيما يبدو لى ظاهرة طبيعية مثل هبوب الريح ، وهبوب الريح قد يساعد القارب الشراعي على الوصول إلي هدفه بسرعة أكبر وعناء أقل ، ولكنه أيضا قد يؤدى إلى التهلكة . النتيجة تتوقف على عدة أمور ، ليس فقط على قوة الريح ، بل وأيضا على حجم القارب ووزنه ، ونوع الشراع المستخدم ومدى ملاءمته ، وربما الأهم من هذا وذاك ، كفاءة الملاح وذكائه .

لابد إذن أن نتفق مع استجليتز عندما يقول : إن المهم فى تحديد النتيجة الصافية للعولمة هو مدى كفاءة

الإدارة (management) بأوسع معانى «الإدارة » بالطبع ، أى كيفية التعامل مع الظاهرة والتحكم فيها وتوجيهها الوجهة المطلوبة.

ولكن الجزء الأكبر من الكتاب ، وعلى الرغم من عنوانه ، لايناقش العولمة بوجه عام ، بل طريقة تعامل المؤسسات المالية الدولية وبالذات صندوق النقد الدولى ، مع مقتضيات العولمة ، أو بعبارة أخرى مع المكونات الاقتصادية للعولمة ، أى حركة السلع والخدمات (التجارة) وحركات رءوس الأموال ، من معونات وقروض واستثمارات . وفى رأى استجليتز ، وهذا هو الذى أثار الدنيا وجلب كل هذا الاهتمام بالكتاب ، أن صندوق النقد الدولى بطريقة إدارته للعولمة ، قد عاث فى الدنيا فسادا ، وأن تدخله في دولة بعد أخرى من الدول التى اضطرت إلى اللجوء إليه ، لم يأت إلا بالكوارث الاقتصادية والاجتماعية .

إن سبب قدرة الصندوق على إحداث هذه الكوارث لا ينبع فقط من قدرة الصندوق على المنح والمنع ، فقدرات الصندوق المالية هى فى نهايه الأمر محدودة بالمقارنة بحجم ما تحتاج إليه الدول التى تتعامل معه ، وإنما يرجع السبب إلى نفوذ الصندوق والأثر الذي يحدثه موقفه من دولة ما على ما تتخذه المؤسسات الأخرى ، دولا

ومصارف وشركات ، من هذه الدولة نفسها . فالصندوق عن طريق ما يعطيه للدولة التى تتعامل معه من «شهادة حسن سير وسلوك» أو برفضه إعطاءها هذه الشهادة ، يستطيع أن يفرض إرادته على الدولة . وهذا الفرض لإرادة الصندوق هو فى نظر استجليتز سبب الكوارث والنوائب . لماذا بالضبط ؟

يمكن صياغة الاجابة عن هذا السؤال صياغات مختلفة ، ولكنها كلها تصب فى النهاية فيما يلى :

صندوق النقد الدولى فى رأى استجليتز مؤسسة تسيطر عليها أيديولوجية معينة لا تحيد عنها ، وتحكم قراراتها وتصرفات العاملين بها . وهى، مثل أى أيديولوجية ، لم تتكون نتيجة تفكير علمى وموضوعى محايد ، بل نتيجة موقف مسبق قد لا تبرره الظروف الموضوعية ولا يستقيم دائما مع ما يتطلبه الواقع .

إنها أصولية (Fundamentalism) بمعنى الكلمة . واستجليتز يستخدم بالفعل هذا التعبير دون تردد ، والموقف الأصولى قد يصيب أحيانا ولكنه كثيرا ما يخطئ .

ولكن الأمر فى نظر استجليتز أسوأ من هذا ، إذ أن دوافع الصندوق ليست دوافع أخلاقية أو روحية ، كما فى حالة بعض الأصوليين الأخرين ، وإنما هى دوافع كثيرا ما تكون لا أخلاقية ،

تتعلق بمصالح اقتصادية لذوى القوة والبأس . فالصندوق إذن كثيرا ما يستلهم قراراته من «واشنطون» أو من «وول ستريت» ، أى من مصادر اتخاذ القرارات السياسية والاقتصادية الخاضعة لنفوذ أصحاب المصالح المالية والاقتصادية الكبرى . فإذا فرضت مثل هذه القرارات على دولة من دول العالم الثالث ، فإن النتيجة كثيرا ما تكون لغير صالح هذه الدولة بل قد تؤدى إلى كارثة محققة .

والذى يدفع الثمن ، ثمن تطبيق هذه القرارات ، هم فى رأى استجليتز ، فقراء العالم الثالث ، لا أغنياؤها وأولى الأمر وأصحاب النفوذ فيها . فهؤلاء الفقراء هم الذين يتحملون مغبة سياسات الصندوق سواء فى صورة قبض يد الدولة عن التدخل لصالحهم ، وإلغاء أو تخفيض ما يقدم من دعم السلع والخدمات الضرورية من صحة وتعليم وسكن ... إلخ ، وشيوع البطالة وارتفاع أسعار الواردات الضرورية ، أو زيادة معدلات الضرائب وفاء بديون لم تكن لها ضرورة ، أو تخفيضا لعجز فى الموازنة ليس من المصلحة دائما تخفيضه .. الخ

الصندوق لا يريد أن يعترف ، كما يقول استجليتز ، بأن الاعتماد على قوى السوق ليس دائما هو الحل الأمثل . ولا يريد

أن يعترف أن هناك حالات كثيرة تستوجب تدخلا من جانب الدولة لإصلاح ما أفسده السوق ، أو لسد الثغرات التى تركها السوق دون علاج ، أو باستخدام مصطلحات النظرية الاقتصادية ، لمواجهة «نقائص السوق» (market imperfections) وحالات «فشل السوق» (market failure) .

إن النظرية الاقتصادية ، ومعها الصندوق ، تعترف بالطبع بوجود مثل هذه الحالات ، ولكن النظرية كما تعرضها المدرسة الكلاسيكية الحديثة ، وهى التى مازالت تسيطر على تدريس علم الاقتصاد فى العالم بأسره ، تفترض صراحة أو ضمنا ، أن هذه الحالات (حالات النقص أو الفشل فى نظام السوق) هى حالات عارضة سرعان ما تصحّح نفسها بنفسها ولا تتطلب تدخلا من جانب الدولة . استجليتز يرفض هذا رفضا حاسما ، كما رفضه من قبل الاقتصادى الانجليزى الشهير جون مينارد كينز ، فى الثلاثينات من القرن العشرين ، واضطر الجميع إلى الأخذ برأيه ، قبل أن يعود أنصار قوى السوق إلى السيطرة على الحياة الأكاديمية ومصادر صنع القرار على السواء . يقول استجليتز الآن ، كما قال كينز من قبل ، إن تدخل الدولة ضرورى للتنمية ولمكافحة البطالة ولإعادة توزيع الدخل وللقضاء على أسوأ صور

الفقر والعوز ولحماية بعض الصناعات .. الخ ، وهذا هو ما يرفضه الصندوق رفضا باتا . يترتب على هذا أن استجليتز يرى أن الخصخصة (أى بيع مشروعات القطاع العام) قد تؤدى فى بعض الحالات (وعلى الأخص إذا بيعت للأجانب) إلى أضرار أكبر من نفعها ، كما أن الانتقال من نظام التخطيط وتدخل الدولة الصارم إلى نظام السوق ، كما حدث بعد سقوط الشيوعية ، يجب أن يجرى ببطء وبحذر ، وإلا دفعت الدولة ثمنا باهظا فى صورة انخفاض شديد فى معدل النمو وزيادة نسبة الفقراء والمعوزين ، وارتفاع معدل البطالة ، وشيوع الفساد ، وهو ما حدث بالفعل فى روسيا وبعض بلاد أوروبا الشرقية الأخرى نتيجة تطبيق نصائح صندوق النقد الدولى الذى أوصى بسياسة «العلاج بالصدمة» (Shock therapy) . ويرى استجليتز أن نجاح الصين حيث فشلت روسيا فى الانتقال الناجح من نظام تدخل الدولة إلى نظام السوق ، يرجع إلى هذا التدرج وذلك الحذر اللذين التزمتهما الصين ، فحققت تلك المعدلات الباهرة فى النمو ، ولم تحدث مآس اجتماعية بالدرجة التى شهدتها روسيا ودول أخرى فى أوروبا الشرقية .

ولكن استجلتيز لا يلقى باللوم والمسئولية على صندوق النقد فيما حدث فى روسيا وأوروبا الشرقية فقط ، بل يرى الصندوق

مسئولا عن حالات فشل كثيرة فى العالم ، من الأرجنتين إلى أفريقيا إلى شرقى آسيا . فحيث تدخل الصندوق وقعت أخطاء اقتصادية فادحة ، وكان وقعها أفدح على فقراء هذه الدول جميعا .

★ ★ ★

استجليتز يكتب هذا بلغة بالغة الوضوح وأسلوب بالغ السلاسة ، ومن ثم فمن السهل على غير المتخصصين فى الاقتصاد استيعاب كل ما يقول . بل هو فضلا عن هذا يستخدم أحيانا أسلوبا شخصيا فى الكتاب يجعل الكتاب أقرب إلى قلب القارىء من المألوف فى الكتابات الاقتصادية . إن كل المعلومات التى يستخدمها مصدرها خبرة شخصية مباشرة وليست مستمدة من تجارب الآخرين أو مما يقوله أو يكتبه غيره من المراقبين . وهو يمزج تحليله الاقتصادى ببعض المشاهدات الشخصية التى تضفى جاذبية على ما يقول . فى حديثه عن تجربة روسيا مثلا ، يذكر كيف أنه ذهب لمعاينة الحال ومعه بعض زملائه من البنك الدولى فشاهد ، من بين ما شاهده ، اكتظاظ الشوارع بالسيارات العاجزة عن الحركة من فرط كثرتها ، تحمل الذاهبين لقضاء عطلة نهاية الأسبوع إلى خارج موسكو ، ولاحظ أن كثيرا من السيارات

التي تكتظ بها شوارع موسكو من سيارات المرسيدس الفاخرة . فعلق استجليتز على هذا مشيرا إلى المفارقة بين هذا النظر ، بالاضافة إلى اكتظاظ المحلات بالسلع الفاخرة المستوردة ، وبين حالات الفقر والعوز الشديد التي بدأ يعاني منها فقراء الروس ، وهم كثيرون ، في أعقاب سقوط الشيوعية . (يقول استجليتز إنه «بينما كانت نسبة الروس الذين يعانون من الفقر (أي الذين يحصلون على أقل من دولارين في اليوم) لا تزيد على ٢٪ من السكان في ١٩٨٩ ، ارتفعت هذه النسبة إلى ٢٣,٨ في ١٩٩٨» ص ١٥٣) . عندما علق استجليتز على هذا عارضه زميله الذي يعمل في البنك قائلا : «إن كثرة سيارات المارسيدس التي نراها دليل على ما جلبته السياسات الحديثة وترك الحرية لنظام السوق من رخاء» كان رد استجليتنر على هذا قوله «إن اكتظاظ الشوراع بسيارات المرسيدس في بلد لا يزيد متوسط الدخل فيه للفرد الواحد، على ٤٧٣٠ دولار في السنة (كما كان الحال في روسيا في ١٩٩٧) هو دليل عي المرض والفشل الاقتصادي وليس دليلا على الصحة »

فما الذي يمكن أن يقوله استجليتز ياترى تعليقا على الظاهرة نفسها في دولة كمصر ، لا يزيد متوسط الدخل فيها على ١٥٠٠ دولار في السنة ؟

في عدد ١٥ أغسطس ٢٠٠٢ من المجلة الأمريكية الشهيرة :

«New York Review Of Books» نشـر عـرض مـفـصل وتحليل ونقد لكتاب استجليتز، لخص فيها كاتبه «وهو بنيامين فريدمان الأستاذ بجامعة هارفارد» بأمانة، رأى استجليتز وانتقاداته لصندوق النقد الدولى، ثم قدم بعض الردود على بعض هذه الانتقادات، وانتهى إلى قوله : إنه على الرغم من كل ما يمكن أن يقال فى الرد على استجليتز فإن كتابه يتضمن «بلا أدنى شك أقوى نقد تعرض له صندوق النقد الدولى وسياسته حتى اليوم » وقال إننا الآن فى انتظار ليس مجرد من يحاول الرد على هذا النقد أو ذاك من الانتقادات التى وجهها استجليتز، بل نحن فى انتظار كتاب يدافع عن سياسات الصندوق من أساسها وعن النظرة العامة التى يتبناها الصندوق فيما يدعو اليه. كما قال الكاتب : إن المرجو أن ينهض بهذه المهمة اقتصادى كبير من وزن ستانلى فيشر «Stanley Fischer» الذى كان أستاذا بمعهد ماساشوسيتس للتكنولوچيا، والذى شغل، خلال نفسها الفترة التى يغطيها كتاب استجليتز، منصب النائب الأول لمدير صندوق النقد الدولى، ومن ثم يعتبره معظم المراقبين المسئول الأول عما طبقه الصندوق من إجراءات وسياسات خلال هذه الفترة .

ولكن فى انتظار هذا الدفاع الشامل، ما الذى يقوله بنيامين فريدمان نفسه فى الرد على استجليتز ؟ إن ردوده تنحصر فى خمس نقاط :

الأولى: هى أن الصورة التي يرسمها كتاب استجليتز للأحوال الاقتصادية فى الدول التى طبقت توجيهات الصندوق ليست فى الحقيقة بهذه الدرجة من السوء التي يصورها ، إن هناك بعض أوجه التحسن التي لم يشر إليها استجليتز، ومعنى هذا أنه ليس صحيحا أن سياسات الصندوق لم ينتج عنها إلا الخراب، بل هناك أوجه للنجاح إلى جانب أوجه الفشل.

والثانية : أنه حتى بفرض أن الأحوال هى بهذا السوء، أليس من الممكن أن الأحوال كانت ستصبح أسوأ لو لم يتدخل الصندوق؟

والنقطة الثالثة : هى أن صندوق النقد الدولى لم يفعل أكثر من أنه تصرف مثلما تتصرف أى مؤسسة تقوم باقراض الأموال . اليس على أى مؤسسة مقرضة أن تفعل مثلما فعل الصندوق من فرض شروط معينه على المقترض؟ وهى شروط لا يمكن أن تخلو من شدة وغلظة .

والنقطة الرابعة : إن استجليتز يتكلم كما لو كانت الدولة لغنية، ومعها صندوق النقد ، مسئولة مسئولية أخلاقية عن مد يد

المساعدة لفقراء العالم ، ولكن إلى أى مدى، هكذا يتساءل فريدمان، يمكن أن نعتبر أن هناك حقا مسئولية أخلاقية من هذا النوع من جانب مواطنى دولة معينة، عن التخفيف من متاعب مواطنى دولة أخرى؟ لقد ثبت من كتابات فلاسفة الأخلاق المحدثين «من أمثال چون رولز J.Rawls وتوماس بوج T.Pogge» أن حسم هذه القضية هو أمر فى غاية الصعوبة إن كان ممكنا على الاطلاق.

والنقطة الخامسة والأخيرة: إن كل الاعتبارات التى يثيرها استجليتز فى كتابه، ويزعم أن سياسات الصندوق قد خرجت عليها، هى اعتبارات خلافية لا يتفق عليها الرأى بالضرورة. فإلى أى مدى يجب أن تعتبر مصالح الفقراء أهم من مصالح الدائنين ؟ وإلى أى مدى يجب أن يعتبر تخفيض معدل البطالة أهم من تخفيض معدل التضخم؟ وإلى أى مدى يجب أن نعتبر تحقيق تحسن مباشر فى أحوال الفقراء أهم من رفع معدل النمو فى المدى الطويل .. الخ ؟

وأصارح القارىء بأن قراءة هذه الردود على كتاب استجليتز لم تنجح فى تغيير رأيى فى الكتاب ولا فى قوة ما يحتويه من انتقادات .

فمثلا لا أظن أن استجليتز نفسه سوف يرفض القول بأن هناك بعض مظاهر التحسن والتقدم ، رغم تطبيق توجيهات الصندوق،

ولكن دون ان يعنى ذلك إعفاء الصندوق من المسئولية عما حدث من أضرار. وأما الزعم بأن أحوال كثير من بلاد العالم الثالث، وكذلك الدول التى تحولت من الشيوعية الى نظام السوق ، كان من الممكن ان تكون أسوأ فى حالة عدم تدخل الصندوق، فليس لدينا أى طريقة للقطع بصحته، ومن ثم نبقى مضطرين للحكم على سياسة الصندوق بناء على ما حدث بالفعل بعد تطبيقها ، مع استخدام ما نعرفه من مبادىء النظرية الاقتصادية لكى نعرف ما إذا كان المحتمل أن تكون سياسات الصندوق هى المسئولة عما حدث من فشل. وأعتقد أن استجليتز قدم فى هذا الصدد حججا مقنعة بما فيه الكفاية .

أما الردود الباقية فتتعلق بالاخلاق لا بالاقتصاد، وهنا يجب الاعتماد على الحس الاخلاقى لدى القارىء للفصل فيما إذا كان استجليتز على حق أو لم يكن، هل يحسن مثلا بمؤسسة مالية دولية تزعم أنها تعمل لصالح رفاهية الشعوب، ان تتصرف كما يتصرف الدائنون والمقرضون قساة القلب؟ هل يصح من الناحية الأخلاقية أن تصرف الشعوب الثرية النظر، ومعها المؤسسات الدولية، عن مآسى غيرها من الشعوب، باعتبار أنها تنتمى إلى أمم أخرى أو ثقافات مغايرة أو حتى ذات ألوان مختلفة للبشرة ؟

وهل يصح حقا أن نعتبر الاختلاف حول أهمية الارتفاع بمستوى معيشة الفقراء والقضاء على البطالة بالمقارنة بتحقيق بمصلحة الدائنين او بتخفيض معدل التضخم أو حتى برفع معدل النمو فى المدى الطويل، هل يصح ان نعتبر مثل هذا الاختلاف مجرد اختلاف فى الامزجة والأهواء ولا علاج له ولا طريقة لحسمه ؟

بل وحتى إذا قبلنا كل هذه الردود ، هل ينقذ هذا صندوق النقد الدولى مما وجهه اليه جوزيف استجليتز من اتهامات بالنفاق والعناد، والمكابرة والرضوخ لضغوط الاقوياء ، والسكوت على مختلف مظاهر الفساد فى كثير من الدول التى يتعامل معها الصندوق ، بل وبتشجيع هذا الفساد أحيانا ؟

كتب أخرى للمؤلف

أ- باللغة العربية :

١- مقدمة الى الاشتراكية ، مع دراسة لتطبيقها فى الجمهورية العربية المتحدة، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٦٦.

٢- مبادىء التحليل الاقتصادى، مكتبة سيد وهبة ، القاهرة ١٩٦٧ .

٣- الاقتصاد القومى : مقدمة لدراسة النظرية النقدية، مكتبة سيد وهبة ، القاهرة، ١٩٦٨، ١٩٧٢ .

٤- الماركسية ، عرض وتحليل ونقد لمبادىء الماركسية الأساسية فى الفلسفة والتاريخ والاقتصاد . مكتبة سيد وهبة ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

٥- المشرق العربى والغرب : بحث فى دور المؤثرات الخارجية فى تطور النظام الاقتصادى العربى والعلاقات الاقتصادية العربية. مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٧٩ ، ٨٠ ، ٨١، ١٩٨٣ .

٦- محنة الاقتصاد والثقافة فى مصر . المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة ١٩٨٢ .

٧- تنمية أم تبعية اقتصادية وثقافية: خرافات شائعة عن التخلف والتنمية وعن الرخاء والرفاهية . مطبوعات القاهرة ، ١٩٨٣ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٥ .

٨- الاقتصاد والسياسة والمجتمع فى عصر الانفتاح . مكتبة مدبولى ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

٩- هجرة العمالة المصرية ، (بالاشتراك مع اليزابيث تايلور عونى) . مركز البحوث للتنمية الدولية (اوتوا) ١٩٨٦ .

١٠- قصة ديون الخاجية من عصر محمد على إلى اليوم . دار على مختار للدراسات والنشر ، القاهرة، ١٩٨٧ .

١١- نحو تفسير جديد لازمة الاقتصاد والمجتمع في مصر مكتبة مدبولى ، ١٩٨٩ .

١٢- مصر فى مفترق الطرق، دار المستقبل العربى، القاهرة ١٩٩٠ .

١٣- العرب ونكبة الكويت ، مكتبة مدبولى ١٩٩١ .

١٤- السكان والتنمية : بحث فى الآثار الإيجابية والسلبية لنمو السكان ، مع تطبيقها على مصر، المؤسسة الثقافية العمالية، معهد الثقافة السكانية ، القاهرة ١٩٩١ .

١٥- الاثار الاقتصادية والاجتماعية لهجرة العمالة المصرية : المؤسسة الثقافية العمالية، معهد الثقافة السكانية، القاهرة ١٩٩١.

١٦- الدولة الرخوة فى مصر، دار سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٣ .

١٧- معضلة الاقتصاد المصرى ، دار مصر العربية للنشر، القاهرة ١٩٩٤ .

١٨- ماذا حدث للمصريين ؟ كتاب الهلال، دار الهلال القاهرة، ١٩٩٨ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٩ ، دار الهلال ٢٠٠١.

١٩- المثقفون العرب وإسرائيل ، دار الشروق ، القاهرة،١٩٩٨ .

٢٠ - العولمة ، سلسلة إقرأ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٩، ٢٠٠٠ ، ٢٠٠٢ .

٢١- التنوير الزائف ، سلسلة (اقرأ) ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٩ .

٢٢- العولمة والتنمية العربية، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ٢٠٠٢ .

٢٣- شخصيات لها تاريخ، دار رياض الريس بيروت ، ١٩٩٧ (طبعة ثانية مزيدة ومنقحة) ٢٠٠٠ .

٢٤- وصف مصر في نهاية القرن العشرين ، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٠.

٢٥- كشف الاقنعة عن نظريات التنمية الاقتصادية كتاب الهلال ، دار الهلال ، ٢٠٠٢ .

٢٦- عولمة القهر : الولايات المتحدة والعرب والمسلمون قبل وبعد احداث سبتمبر ٢٠٠١ ، دار الشروق ، القاهرة ، ٢٠٠٢.

(ب) باللغة الانجليزية :

1- Food Suply and Economic Development, with Special Reference to Egypt, F. Cass, London, 1966.

2- Urbanization and Economic Development in the Arab World, Arab University in Beirut, 1972.

3- The Modernization of Poverty : A Study in The Policital Economy of Growth in Nine

Arab Countries, 1945-1970 , Brill, Leiden, 1947, 1980 .

(ترجم الى اليـابانيـة فى ١٩٧٦ وحـاز على جـائزة الدولة التشجيعية فى ١٩٧٦) .

4- Project Appraisal and Income Distribution in Deveioping Countries, Coedited with J. Mac Arthur (spectial issue of World Development, Oxford, February, 1978).

5- International Migration of Egyptian Labour, (with Elizabeth Taylor Awny), International Development Reserach Centre, Ottowa), 1985.

6- Egypt's Economic Predicament, Brill, Leiden, 1995.

7- Whetever Happened to the Egyptians? American Universty in Cairo Press , Cairo, 2001, 2002 .

ج - كتب مترجمة :

١- التخطيط المركزى : تأليف جان تنبرجن ، الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى ، القاهرة ١٩٦٦ .

٢- مقالات مختارة فى التنمية والتخطيط الاقتصادى (بالإشتراك)، الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى ، القاهرة ١٩٦٨ .

٣- أنماط من التجارة الدولية والتنمية الاقتصادية ، تأليف راجنار نيركسه ، الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى، القاهرة ١٩٦٩ .

٤- الشمال - الجنوب - برنامج من أجل البقاء ، تقرير اللجنة المستقلة المشكلة لبحث قضايا التنمية الدولية برئاسة ويلى برانت، (بالاشتراك)، الصندوق الكويتى للتنمية ، الكويت، ١٩٨١ .

المحتويات

تقديم : ٥

١- الطيب صالح : عرس الزين ٦

٢- الطيب صالح : موسم الهجرة الى الشمال.................. ٢٠

٣- بهاء طاهر : خالتي صفية والدير........................ ٣٦

٤- بهاء طاهر : نقطة النور ٤٩

٥- سلوى بكر : عن الروح التي سرقت تدريجيا ٦٢

٦- سلوى بكر : ليل نهار.................................... ٧٤

٧- علاء الاسواني : جمعية منتظرى الزعيم ٧٨

٨- علاء الاسواني : عمارة يعقوبيان......................... ٨٤

٩- لطيفة الزيات : الباب المفتوح........................... ٩٠

١٠- سمير غريب على : الصقار ٩٦

١١- رشدى سعيد : رحلة عمر ....

د . يحيى الجمل : قصة حياة عادية ١٢٤

١٢- ثروت اباظة : شيء من الخوف ١٥٦
١٣- على مختار : علوم ام مذاهب ؟ ١٨٤
١٤- فرانز جال : عن الاساس البيولوجى للذكاء ١٩٣
١٥- آن كاسيدى : عن تربيتنا لأطفالنا ٢٠٤
١٦- رمزى زكى : وداعاً للطبقة الوسطى ٢٢٦
١٧- جوزيف استيجليتز: نكد العولمة ٢٤٥
- كتب أخرى للمؤلف ٢٦٢

رقم الايداع
٢٠٠٢/٢٠٦٠٠
9-77-07-0978-6

الهـــــلال

المجلة الثقافية الأولى فى مصر والعالم العربى

فبراير ٢٠٠٣ عدد ممتاز- تقرأ فيه :

- أمة فى خطر، هل دالت دولة الكتاب؟!
- مستقبل الكتب فى القرن الجديد
- الثقافة فى سياق العولمة
- الصحراء الشرقية موطن السحر والجمال
- **دائـرة حــوار :**

العقلانية وتشويه الرموز الوطنية

- ذكريات شاهد عيان: من أحرق القاهرة؟
- سيرة ذاتية تروى مأساة العراق
- شخصية العدد: د. شوقى ضيف

عائلات ثقافية (جزء خاص)

- اعترافات آخر العنقود: د. جلال أمين
- أثر رفاعة الطهطاوى فى أسرته: محمد رفاعة الطهطاوى
- لم يتحقق هدفى فى اليونسكو.. ورب ضارة نافعة: د. اسماعيل سراج الدين

روايات الهلال

تقدم

اغتيال

تأليف

أميلى نوتومب

تصدر ١٥ فبراير

٢٠٠٣

كتاب الهلال

القادم:

دفتر أحوال الاقتصاد المصرى

بقلم

د. محمود عبد الفضيل

يصدر ٥ مارس

٢٠٠٣

هـذا الكتـاب

يحتوى هذا الكتاب على تحليل وتقييم لعدد من الكتب التي نالت واستحقت شهرة واسعة وثناء عظيما، للطيب صالح وبهاء طاهر وسلوى بكر وعلاء الأسوانى ورشدى سعيد وغيرهم، وكتب أخرى نالت فى رأى مؤلف هذا الكتاب ، أكثر بكثير مما تستحق من الشهرة والثناء.

يعرض المؤلف رأيه فى هذه الكتب، ويقدم حيثياته وأسبابه ، فيأخذ القارىء فى رحلة مثيرة تطوف به فى عوالم مختلفة، فى الأدب والسيرة الذاتية، والسياسة والاقتصاد، وعلم الاجتماع وعلم النفس، والتربية وفلسفة العلوم.

ولكل كتاب من الكتب التى يناقشها المؤلف قضية مهمة ، ترجع إما إلى أهمية الموضوع الذى يتناوله الكتاب، أو إلى أهمية الظروف التى كتب فيها ، أو إلى الضجة التى أحدثها ، أو الاستقبال الحار الذى استقبل به ، أو الدور الذى لعبه كاتبه فى حياتنا الثقافية ، إيجابا أحيانا ، وسلبا فى بعض الأحيان القليلة ، ومن ثم فإنها كلها «كتب لها تاريخ» .

الشركة القابضة لمصر للطيران
شركة مصر للطيران للخطوط الجوية

مصر للطيران
EGYPTAIR

الصين

خط جديد ... و رحلات جديدة

مع مصر للطيران

حالياً

القاهرة / بكين / القاهرة

الثلاثاء و الجمعة

بأحدث طرازات الطائرات

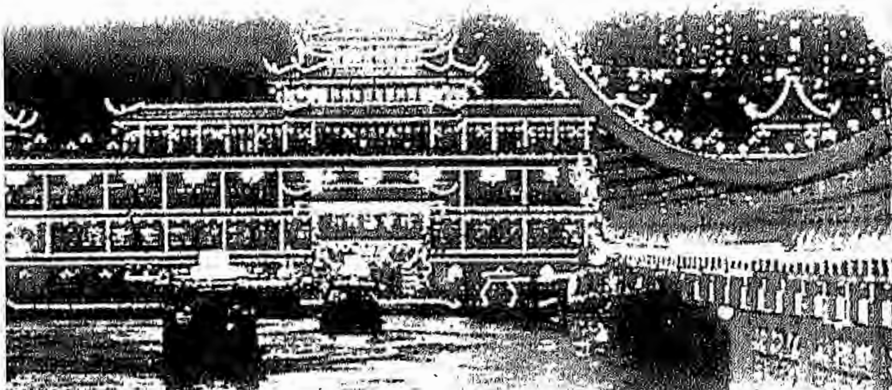

com.eg

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن
دار الهلال

الإصدار الأول يونيو ١٩٥١

رئيس مجلس الإدارة **مكرم محمد أحمد**

رئيس التحرير **مصطفى نبيل**

مدير التحرير **عادل عبدالصمد**

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ ش محمد عز العرب

ت : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

فاكس : FAX -3625469

العدد ٦٢٦ - ذو الحجة ١٤٢٣ - فبراير ٢٠٠٣

No 626- FE . 2003

اسعار بيع العدد فئة ٥ جنيهات

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١.٢٥ دينار - السعودية ١٢ ريال - البحرين ١,٢ دينار - قطر ١٢ ريال - دبى - أبو ظبى ١٢ درهم - سلطنة عمان ١,٢ ريال - المغرب ٤٠ درهم - فلسطين ٣.٥ دولار - سويسرا ٥ فرنكات .

عنوان البريد الإلكترونى : darhilal@idsc . gov . eg

Bibliotheca Alexandrina
0356456